

شرح نهج البلاغة

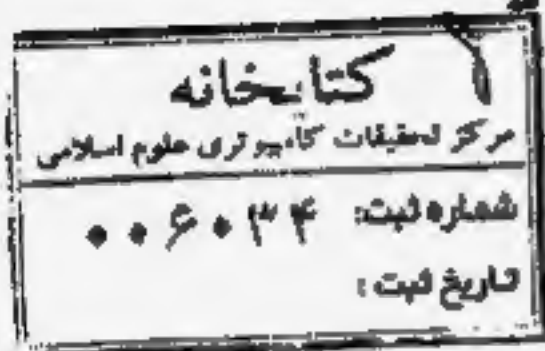
لابن أبي الحديد

محمّد بن
محمّد بن الفضل بن حسين

دار النشر: دار الفکر للطباعة
بيروت - لبنان

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحسین



بمقتضى
محمد أبو الفضل البراهین



مرکز تحقیقات کلامی و فقهی علوم اسلامی

الجزء السابع

دار الفکر العربیة

میس البابی الجلیلی و شریک



مرکز تحقیقات تاریخ و فرهنگ اسلامی

منشورات مکتبه آیه الله العظمیٰ المرعشی النجفی
قم - ایران ۱۴۰۴ هجری

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

(٩٠)

الأصل:

فَلَمَّا مَهَّدَ أَرْضَهُ ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ ، اخْتَارَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَيْرَةً ^(١) مِنْ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِيلِهِ ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ ، وَأَرْفَعَهُ فِيهَا أَكْلَهُ ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَا عَنْهُ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ الضَّرَضَ لِمَحَبَّتِهِ ، وَالْخَاطِرَةَ بِمَنَزِلَتِهِ ؛ فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَا عَنْهُ مُوَافِقَةً لِأَمْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ . فَأَقْبَلَتْهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ ، لِيَحْتَضِرَ أَرْضَهُ بِنَفْسِهِ ، وَلِيَقِمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ بِمَا يُوَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رَبِّهِ عَلَيْهِ ، وَيَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى السَّنِ الْخَيْرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ ، وَمُتَعَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالَاتِهِ ؛ قَرَنًا قَرَنًا ، حَتَّى تَمُتَ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُجَّتُهُ ، وَبَلَغَ الْقَطْعَ حُدُودُهُ وَنُدْرَهُ .

•••

الشرح :

مهَّد أرضه : سواها وأصلحها، ومنه للمهاد وهو الفراش، ومهَّدت الفراش، بالتخفيف مهَّدًا ، أى بسطته ووطأته . وقوله : « خَيْرَةً مِنْ خَلْقِهِ » على « فِعْلَةٍ » ، مثل عِنَبَةٍ ، الاسم

(١) بقية الحطبة التسعين ؛ وأولها في الجزء السادس من ٣٩٨

(١) المظومة التهج : « خَيْرَةً » ، بالسكينة .

من قولك : اختاره الله ؛ يقال : محمد خيرته الله من خلقه ؛ ويجوز : « خيرة الله » بالتسكين ، والاختيار : الاصطفاء .

والجيلة : الخلق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّخُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(١) ، ويجوز « الجيلة » ، بالضم ، وقرأ بها الحسن البصري ، وقرئ قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلاً كَثِيراً ﴾ ^(٢) على وجوه : فقرأ أهل المدينة بالكسر والنشديد ، وقرأ أبو عمرو : ﴿ جَيْلاً كَثِيراً ﴾ مثل قُل ، وقرأ السكاني « جَيْلاً » كثيراً بضم الباء مثل « حُلْم » ، وقرأ عيسى بن عمر : ﴿ جَيْلاً ﴾ بكسر الجيم ، وقرأ الحسن وابن أبي إسحق : ﴿ جَيْلاً ﴾ بالضم والنشديد .

قوله : « وأزغده فيها أكله » ، أي جعل أكله - وهو لما كول - رغداً ، أي واسعاً طيباً ، قال سبحانه : ﴿ وَكَلَّا فِيهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ ^(٣) ، وتقرأ رَغْدًا ورَغْدًا بكسر الفين وضمها ، وأزغده القوم : أحصبوا ، وصاروا في رَغْدٍ من العيش .

قوله : « وأوعز إليه فيما نهاه عنه » ، أي تقدم إليه بالإلذار ^(٤) ، ويجوز « ووَعَزَ إليه » بالنشديد توعيذاً ، ويجوز التثفيف أيضاً وعز إليه وعزاً .

والواو في « وأعلمه » عاطفة على « وأوعز » ، لا على « نهاه » .

قوله ، « موافاة لسابق علمه » لا يجوز أن ينتصب لأنه مفعول له ، وذلك لأن المفعول ٤ يكون عنوا وعلة للفعل ، ولا يجوز أن يكون إقدام آدم على الشجرة لأجل الموافاة للعلم الإلهي السابق ، ولا يستمر ذلك على مذاهبتنا ، بل يجب أن ينتصب « موافاة » على

(١) سورة الشراء ١٨٤ .

(٢) سورة يس ٦٢ .

(٣) سورة البقرة ٣٥ .

(٤) ب : « الإلذار » ، وما أثبت من ج ، د .

للمصدرة للحضة ؛ كانه قال : فوافى بالمعصية موافاة ، وطابق بها « سابق العلم » مطابقة .

قوله : « فأهبطه بعد التوبة » ، قد اختلف الناس في ذلك ، فقال قوم : بل أهبطه قبل التوبة ؛ ثم تاب عليه وهو في الأرض . وقال قوم : تاب قبل الهبوط ، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام ، وبديل عليه قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ • قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَعِيمًا ﴾ ^(١) ، فأخبر عن أنه أهبطهم بعد تلقى الكلمات والتوبة . وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءُ عَدُوٌّ مُبِينٌ • قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ • قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ ^(٢) . فيبين أن اضرارهما بالمعصية واستفزازهما كانا قبل أمرهما بالهبوط . وقال في موضع آخر : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى • ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى • قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَعِيمًا ﴾ ^(٣) ؛ فجعل الإهباط بعد الاجتباء والتوبة ، واحتج الأولون بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ • فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ • فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ ^(٤) ، قالوا : فأخبر سبحانه عن أمره لهم بالهبوط عقوب لإزال الشيطان لهما ، ثم عقب الهبوط بفاء التعقيب في قوله : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ ، فدل على أن التوبة بعد الهبوط .

(١) سورة البقرة ٣٧ ، ٣٨

(٢) سورة الأعراف ٢٢ - ٢٤

(٣) سورة طه ١٢١ - ١٢٣

(٤) سورة البقرة ٢٥ - ٢٨

ويمكن أن يجاب عن هذا فيقال : إنه تعالى لم يقل : « قُلْنَا اهْبِطُوا » بالفاء ، بل قال : « وَقُلْنَا اهْبِطُوا » بالواو ، والواو لا تقتضي الترتيب ، ولو كان عَوْضًا فاء لكانت صريحة في أن الإهباط كان عقيب الزلة ؛ فأما الواو فلا تدل على ذلك ؛ بل يجوز أن تكون التوبة قبل الإهباط ، ويخبر عن الإهباط بالواو قبل أن يخبر عن التوبة .

قوله عليه السلام : « وَلَيَقِيمَ الْحِجَّةَ عَلَى عِبَادِهِ » ، أى إذا كان أبوم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة فأخلق بها ألا يدخلها فخطا لا حجة ؛ وهذا يؤكد مذهب أصحابنا في الوعيد .

ثم أخبر عليه السلام أن البارئ سبحانه ما أدخل عباده بعد قبض آدم وتوفيه عما يؤكده عليهم حجج الربوبية ، بل أرسل إليهم الرسل ثم قرأنا فقرنا ، بفتح القاف ؛ وهو أهل الزمان الواحد ، قال الشاعر :

إِذَا مَاضَى الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ وَخُلِفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ^(١)

وتماهدتم بالحجج ، أى جدد العهد عندهم بها ؛ ويروى « بل تمهدتم » بالتشديد ، والتمهد : التعهّظ بالشئ ؛ تمهدت فلانا وتمهدت ضيمتى ؛ وهو أفصح من « تماهدت » لأن التفاعل إنما يكون من شيئين ؛ وتقول : فلان بشعده صريح .

قوله : « وَبَلَغَ الْقَطْعَ عُذْرُهُ وَنَذْرُهُ » ، مفعل الشئ حيث ينقطع ، ولا يبقى خلفه شئ منه ، أى لم يزل يبعث الأنبياء واحدا بعد واحد حتى بعث محمدا صلى الله عليه وآله ؛ فتمت به حجته على الخلق أجمعين . وبلغ الأمر مقطعه ، أى لم يبقى بعده رسول ينتظر ؛

وانتهت عذر الله تعالى وتذره ، فعذره ما بين للكافرين من الإعذار في عقوبته لم ين عصوه ، وتذره ما أنذرهم به من الحوادث ، ومن أنذرهم على لسانه من الرسل .

[القول في عصمة الأنبياء]

واعلم أن التكلمين اختلفوا في عصمة الأنبياء ؛ ونحن نذكر هاهنا طرفاً من حكاية للذاهب في هذه المسألة على سبيل الاختصاص ونقل الآراء ؛ لأعلى سبيل الحجاج ؛ ونخص قصة آدم عليه السلام والشجرة بنوع من النظر ؛ إذ كانت هذه القصة مذكورة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل ؛ فنقول :

اختلف الناس في المصوم ما هو ؟ فقال قوم المصوم هو الذي لا يمكنه الإتيان بالمعاصي ؛ وهؤلاء هم الأقلون أهل النظر ؛ واختلفوا في عدم التمكن كيف هو ؟ فقال قوم منهم : المصوم هو المحتص في نفسه أو بدنه أو فيهما ، بخاصية تقتضي امتناع إقدامه على المعاصي .

وقال قوم منهم : بل المصوم مساوٍ في الخواص النفسية والبدنية لغير المصوم . وإعنا العصية هي القدرة على الطاعة أو عدم القدرة على العصية ، وهذا قول الأشعرى نفسه ؛ وإن كان كثير من أصحابه قد خالفه فيه .

وقال الأكثرون من أهل النظر : بل للمصوم مختار متمكن من العصية والطاعة .

وفسروا العصمة بتفسيرين :

أحدهما : أنها أمور يفعلها الله تعالى بالكلف فتقتضي ألا يفعل العصية انتضاء

غير بالغ إلى حد الإيجاب ، وفسروا هذه الأمور فقالوا : إنها أربعة أشياء : أولها أن يكون
لنفس الإنسان ملكة مائمة من الفجور ، داعية إلى العفة ؛ وثانيها العلم بمطالب المعصية
ومناقب الطاعة . وثالثها تأكيد ذلك العلم بالوحي والبيان من الله تعالى . ورابعها أنه متى
صدّر عنه خطأ من باب النسيان والسهو لم يترك مهملًا بل يعاقب وينبه ويضيق عليه
العذر ؛ قالوا : فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان الشخص معصوما عن المعاصي
لا محالة ، لأن العفة إذا انضاف إليها العلم بما في الطاعة من السعادة وما في المعصية من
الشقاوة ؛ ثم أكد ذلك بتابع الوحي إليه وترادفه ، ونظام البيان عنده ، وتتم ذلك
خوفه من العتاب على القدر القليل ، حصل من اجتماع هذه الأمور حقيقة المعصية .

وقال أصحابنا^(١) : المعصية لطف يتمتع للكلف عند فعله من القبيح اختيارا ، وقلم
يكون ذلك اللطف خارجا عن الأمور الأربعة للمعدة ، مثل أن يعلم الله تعالى أنه إن
أنشأ سجاء ، أو أهب رجما ، أو حرّك جسما ؛ فإن زيدا يتمتع عن قبيح مخصوص اختيارا ،
فإنه تعالى يحب عليه فعل ذلك ، ويكون هذا اللطف معصية لزيد ، وإن كان الإطلاق
للمشهور في المعصية إنما هو لمجموع الطوافي يتمتع الكلف بها عن القبيح مدة
زمان مكلفه .

وبينى أن يقع [الكلام^(٢)] بعد هذه المقدمة في ثلاثة فصول :

• • •

الفصل الأول

في حال الأنبياء قبل البعثة ومن الذي يجوز أن يرسله الله تعالى إلى العباد

فالذي عاين أصحابنا المعترزة رحمهم الله ، أنه يجب أن ينزل النبي قبل البعثة عما كان
فيه تنفير عن الحق الذي يدعو إليه ، وعما فيه غضاظة وعيب .

(٢) تسكعة من ج ، ٥ .

(١) هو التفسير للثاني للمعدة .

فالأول نحو أن يكون كافراً أو فاسقاً ، وذلك لأننا نجد العائد إلى الصلاح بعد أن عهد الناس منه الشُّفْخ والجون والفسق ، لا يقع أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر عند الناس موقعهما ممن لم يمهده به إلا على السداد والصلاح .
والثاني نحو أن يكون حقيقاً أو حائكاً أو محترفاً بحرفة يقدرها الناس ، ويستخفون بصاحبها ، إلا أن يكون للبعوث إليهم على خلاف ما هو المهود الآن ، بآلا يكون من ضاعى ذلك مستهاناً به عندهم .

ووافق أصحابنا في هذا القول جمهور المتكلمين .

وقال قوم من الخوارج : يجوز أن يبعث الله تعالى من كان كافراً قبل الرسالة ، وهو قول ابن قورك^(١) من الأشعرية ، لكنه زعم أن هذا الجائز لم يقع .

وقال قوم من الخشوية : قد كان محمد صلى الله عليه وآله كافراً قبل البعثة ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾^(٢) . وقال يرغوث المتكلم ، وهو أحد التجارية^(٣) : لم يكن النبي صلى الله عليه وآله مؤمناً بالله قبل أن يبعثه ، لأنه تعالى قال له : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾^(٤) .

وروى عن السددي في قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَثَرَكَ وَزُرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾^(٥) ، قال : وزره : الشرك ، فإن كان على دين قومه أربعين سنة .

وقال بعض الكرامية^(٦) في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم صلى الله عليه وآله ،

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن قورك ؛ الأديب المتكلم الواعظ ؛ ترجم له ابن عساكر في كتابه تبين كذب الفقي من ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) سورة الضحى ٦ .

(٣) التجارية أصحاب الحسين بن محمد التجار ؛ ومحمد بن عيسى للقب يرغوث من رجالهم ؛ وانظر المعبر ستاني ١ : ٨١ ، ٨٢ .

(٤) سورة الشورى ٥٢ .

(٥) سورة الفصح ٢ .

(٦) الكرامية ؛ أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام ؛ وانظر تحصيل آرائهم في المعبر ستاني

﴿ قال أسأت ﴾ (١) : إياه أعلم يومئذ ، ولم يكن من قبل ذلك مسلماً ، ومثل ذلك ، قال
اليان بن رباب ، متكلم الخوارج .

وحكى كثير من أرباب المقالات من شيخنا أبي الهذيل وأبي عليّ جواز أن يبعث
الله تعالى من قد ارتكب كبيرة قبل البعثة ، ولم أجد في كتب أصحابنا حكاية هذا
المذهب عن الشيخ أبي الهذيل ، ووجدته عن أبي عليّ ، ذكره أبو محمد من متوابعه في
كتاب « الكفاية » ، قال : منع أهل العدل كلهم من تجويز بعثة من كان فاسقاً قبل
النبوة إلا ما جرى في كلام الشيخ أبي عليّ رحمه الله تعالى من ثبوت فصل بين البعثة
وقبلها ، فأجاز أن يكون قبل البعثة مرتكباً لكبيرة ثم يتوب ، فيبعثه الله تعالى حينئذ ،
وهو مذهب محكى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

ثم قال الشيخ أبو محمد رحمه الله تعالى : والصحيح من قول أبي عليّ رحمه الله تعالى
مثل ما اختاره من التوبة بين حال البعثة وقبلها في المنع من جواز ذلك .

وقال قوم من الأشعرية ومن أهل الظاهر وأرباب الحديث : إن ذلك جائز واقع ،
واستدلوا بأحوال إخوة يوسف . ومنع للانعون من ذلك من ثبوت نبوة إخوة يوسف ،
ثم هؤلاء المجوزون ، منهم من جوّز عليهم فعل الكبائر مطلقاً ، ومنهم من جوّز ذلك
على سبيل التذكرة ثم يعودون عنه ، ويشتهر حالهم بين الخلق بالصلاح ، فأما لو فرضنا (٢)
إصرارهم على الكبائر بحيث يصيرون مشهورين بالفسق والمعاصي ، فإن ذلك لا يجوز ،
لأنه يخوف العرض من إرسالهم ونبوتهم على هذا التقدير .

وقالت الإمامية : لا يجوز أن يبعث الله تعالى نبياً قد وقع منه قبيح قبل النبوة ،

(١) من قوله تعالى في سورة الفرقة ١٣١ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴾ .

(٢) ب : « لو فرض » ، وما أثبتته من ج ، د .

لا صغيراً ولا كبيراً ، لا عمداً ولا خطأ ، ولا على سبيل التأويل والشبهة ؛ وهذا للذهب
بما تفرحوا به ؛ فإن أصحابنا وغيرهم من المائمين الكبار قبل النبوة ، لم يعموا وقوع الصغار
منهم إذا لم تكن مسخفة منفرة .

أطردت الإمامية هذا القول في الآفة فجعلت حكمهم في ذلك حكم الأنبياء في وجوب
المصية المطلقة لم قبل النبوة وبعدها .



الفصل الثاني

في عصية الأنبياء في زمن النبوة عن الذنوب في أفعالهم وتركهم
عدا ما يتعلق بتبليغ الوحي والفتوى في الأحكام

جوز قوم من الحشوية عليهم هذه الكبائر وهم أنبياء ؛ كالزنا واللواط وغيرهما ، وفيهم
من جوز ذلك بشرط الاستمرار دون الإعلان ، وفيهم من جوز ذلك على
الأحوال كلها .

ومنع أصحابنا المعتبرة من وقوع الكبائر منهم عليهم السلام أصلاً ، ومنعوا أيضاً من
وقوع الصغار المسخفة منهم ، وجوزوا وقوع الصغار التي ليست بمسخفة منهم . ثم اختلفوا
فمنهم من جوز على النبي الإقدام على المصية الصغيرة غير المسخفة عمداً^(١) ؛ وهو قول شيخنا
أبي هاشم رحمه الله تعالى ؛ فإنه أجاز ذلك وقال : إنه لا يقدم عليه السلام على ذلك إلا على
خوف ووجل ، ولا يتجرأ على الله سبحانه .

ومنهم من منع من تعمد إتيان الصغيرة ، وقال : إنهم لا يقدمون على الذنوب التي
يسلمونها ذنباً ، بل على سبيل التأويل ودخول الشبهة ؛ وهذا قول أبي علي رحمه الله تعالى .

(١) كذا في ج ، د ، وفي ب : • • • • •

وحُكِيَ عن أبي إسحاق النخعي وجعفر بن مبشر، أن ذنوبهم لا تكون إلا على سبيل السهو والنسيان ، وأنهم مؤاحذون بذلك وإن كان موضوعاً عن أمتهم ، لأن معرفتهم أقوى ، ودلائلهم أكثر ، وأخطارهم أعظم ؛ وبهذا لهم من التحفظ ما لا يتهيأ لغيرهم .

وقلت الإمامية : لا تجوزُ عليهم الكبائر ولا الصغائر ، لا عمداً ولا خطأ ، ولا سهواً ، ولا على سبيل التأويل والشبهة ؛ وكذلك تولم في الأئمة ؛ والخلاف بيننا وبينهم في الأنبياء يكاد يكون ساقطاً ، لأن أصحابنا إنما يجوزون عليهم الصغائر ، لأنه لا عقابَ عليها ؛ وإما نعتضى نقصان الثواب المستحق على قاعدتهم في مسألة الإحباط ، فقد اعترف إذاً أصحابنا بأنه لا يقع من الأنبياء ما يستحقون به ذمّاً ولا عقاباً ؛ والإمامية إنما تنفي عن الأنبياء الصغائر والكبائر ؛ من حيث كان كل شيء منها يستحق فاعله به القم والعقاب ، لأن الإحباط باطل عندهم ؛ وإذا كان استحقاق اللزم والعقاب يجب أن ينفي عن الأنبياء ، وجب أن يُنفي عنهم سائر الذنوب ، فقد صار الخلافُ إذاً متعلقاً بمسألة الإحباط ، وصارت هذه المسألة فرعاً من فروعها .



واعلم أن القول بجواز الصغائر على الأنبياء بالتأويل والشبهة على ما ذهب إليه شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى ؛ إنما يقتضاه تفسيرُ ملكية آدم والشجرة ، وتكلفه إخراجها عن تمتد آدم للمصيان ، قل : إن آدم نهى عن نوع تلك الشجرة لا عن هيئتها ، بقوله تعالى - ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ ، وأراد سبحانه نوعها للطلق ، فظن آدم أنه أراد خصوصية تلك الشجرة بهيئتها ؛ وقد كان أشير إليها فلم يأكل منها بهيئتها ، ولكنه أكل من شجرة أخرى من نوعها ، فأخطأ في التأويل . وأصحاب شيخنا أبي هاشم لا يرضون هذا المذهب ، ويقولون إن الإشكال باقٍ بحاله ، لأن آدم أخل بالنظر على

هذا القول في أن النهي عنه : هل هو عين الشجرة أو نوعها ؟ مع أنه قد كان مدلولاً على ذلك ، لأنه لو لم يكن مدلولاً على ذلك لكان تكليف الامتناع عن تناول تكليف مالا يطاق ، وإذا دل على ذلك وجب عليه النظر ؛ ولا وجه يجب النظر لأجله إلا الخوف من تركه ؛ وإذا لم يكن بد من كونه خائفاً فهو عالم إداً بوجود هذا التأمل والنظر ؛ فإذا أحل به فقد وقعت منه المعصية مع عهده .

وكما لا يرضى أصحاب شيخنا أبي هاشم هذا المذهب ؛ فكذلك لا يرتضون مذهب النظام وجعفر بن مبشر ؛ وذلك لأن القول بأن الأنبياء يؤخذون على ما يفعلونه سهواً متناقض ؛ لأن السهو يُزيل التكليف ، ويخرج الفعل من كونه دينياً مؤاخداً به ؛ ولهذا لا يصح مؤاخضة المجنون والغائم ، والسهو في كونه مؤثراً في رفع التكليف جاري مجرى فقد القدر والآلات والأدلة ؛ فلو جاز أن يخالف حال الأنبياء حال غيرهم في صحة تكليفهم مع السهو ، جاز أن يخالف حالهم حال غيرهم في صحة التكليف مع فقد القدر والآلات ؛ وذلك باطل .



واعلم أن الشريف المرتضى - رحمه الله تعالى - قد تكلم في كتابه للسي « بشريه الأنبياء والآئمة » على هذه الآية ، وانتصر لمذهب الإمامية [فيها] ^(١) ، وحاول صرفها عن ظاهرها ، وتأول اللفظ بتأويل مستكره غير صحيح ؛ وأنا أحكي كلامه هاهنا وأتكلم عليه نصرة لأصحابنا ، ونصرة أيضاً لأمر المؤمنين عليه السلام ؛ فإنه قد صرح في هذا الفصل بوقوع الذنب من آدم عليه السلام ، ألا ترى إلى قوله : « والمخاطرة بممراته » ؛ وهل تكون هذه اللفظة إلا في الذنب ؛ وكذلك سياقة الفصل من أوله إلى آخره ؛ إذا تأمله المنصف وأطرح الهوى والتعصب . ثم إنا نذكر [كلام] ^(٢) السيد الشريف المرتضى رحمه الله تعالى ، قال رحمه الله تعالى :

أما قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ ﴾ فإن المصيبة مخالفة للأمر^(١) ؛ والأمر من الحكيم تعالى قد يكون بالواجب وبالندب معا ؛ فلا يمتنع على هذا أن يكون آدم مندوبا إلى ترك التناول من الشجرة ، فيكون بموافقها تاركا فرضا وغلا ، وغير فاعل قبيحا ، وليس يمتنع أن يسمى تارك النفل حاصيا ، كما يسمى بذلك تارك الواجب ، فإن تسمية من خالف ما أمر به سواء كان واجبا أو غلا بأنه عاصي ظاهر ، ولهذا يقولون : أمرت فلانا بكذا وكذا من الخير فمضاهى وخالفنى ، وإن لم يكن ما أمر به واجبا^(٢) .

يقال له : الكلام على هذا التأويل من وجوه :

أولها أن ألفاظ الشرع يجب أن تحمل على حقائقها القنوية ما لم يمكن لها حقائق شرعية ، فإذا كان لها حقائق شرعية وجب أن تحمل على عرف الشرع واصطلاحه ، كالصلاة والحج والنفاق والكفر ، ونحو ذلك من الألفاظ الشرعية ، وهكذا قال السيد المرتضى رحمه الله تعالى في كتابه في أصول الفقه المعروف " بالقدريّة " في باب كون الأمر للوجوب وهو الحق الذي لا مندوحة عنه . وإذا كان لفظ المصيان في الاصطلاح الشرعي موضوعا لمخالفة الأمر الإيجابي لم يجز المدول عنه وحله على مخالفة الندب .

ومعلوم أن لفظ المصيان في العرف الشرعي لا يطلق إلا على مخالفة الأمر المقتضى للوجوب ، فالقول بموازحها على مخالفة الأمر التذبي قول تطله وتدفعه تلك القاعدة المقررة التي ثبتت بالاتفاق وبالدليل ، على أننا قبل أن نجيب بهذا الوجه ننبع أصلاً أنه يجوز أن يقال إن تارك النفل : إنه عاصي لافي أصل اللفظ ، ولاف للعرف ، ولاف للشرع ، وذلك لأن حقيقة النفل هو ما يقال فيه للسكّاف : الأولى أن تفعل هذا ، ولك الآتفعله ، ومعلوم أن

(١) العامر وكتاب ترمذ الأبياء بعدد كراآيه : وهذا تصرع يوقوع المصيبة الى لا تكون إلا نجيحة ! وأكده قوله : " فمضى " ، والنهي عند الرشد . الجواب : يقال لهم : أما المصيبة
(٢) نزيه الأبياء . ٩ .

تارك مثل ذلك لا يطلق عليه أنه عاصي ؛ وبين ذلك أن لفظ « العصيان » في اللغة موضوع للامتناع ؛ والله تميم المصاعصا ، لأنه يمتنع بها ؛ ومنه قولهم : قد شق المصا ، أي خرج من الرقة المانة من الاختلاف والفتور ، وتارك الذنب لا يمتنع من أمر ، لأن الأمر الديني لا يقتضي شيئا اقتضاء القزوم ، بل معناه إن فعلت فهو أولى ؛ ويجوز ألا تفعل ، فأى امتناع حدث إذا خولف أمر الذنب سمي المخالف له عاصيا ، وبين ذلك أيضا أن لفظ « عاصي » اسم ذم ، فلا يجوز إطلاقه على تارك الذنب ؛ كما لا يستحقه طائفا ؛ وإن كان الفسق في أصل اللغة الخروج .

ثم يسأل المرتضى رحمه الله تعالى عما سأل عنه خصه ، فيقال له : كيف يجوز أن يكون ترك الذنب معصية ؟ أو ليس هذا يوجب أن يوصف الأنبياء بأنهم عصاة في كل حال ، وأنهم لا ينفكون عن المعصية ؛ لأنهم لا يكادون ينفكون من ترك الذنب^(١) ١٩ وقد أجاب رحمه الله تعالى عن هذا ، فقال : وصف تارك الذنب بأنه عاصي توسع ويجوز ، والمجاز لا يقاس عليه ، ولا يبدى من موضعه . ولو قبل إنه حقيقة في فاعل القبيح ، وتارك الأولى [والأفضل]^(٢) لم يحز إطلاقه في الأنبياء إلا مع التقييد ، لأن استعماله قد كثر في فاعل القبايح ، فإطلاقه عن التقييد موهوم .

لكننا نقول : إن أردت بوصفهم بأنهم عصاة أنهم فعلوا القبيح ، فلا يجوز ذلك ، وإن أردت أنهم تركوا ما لو فعلوه لا يستحقوا الثواب ؛ ولكان أولى ، فهم كذلك . كذلك يقال له : ليس هذا من باب القياس على الحار الذي احتلف فيه أرباب أصول الفقه ؛ لأن من قال : إذا ترك زبد الذنب ؛ فإنه يسمى عاصيا ؛ يلزمه أن يقول : إن عمرا إذا ترك الذنب يسمى عاصيا ؛ وليس هذا قياسا ، كما أن من قال لزبد البليد . هذا

(١) نهي الأنبياء ١٠

(٢) من نهي الأنبياء

حار ، قال لسرو البليد : هذا حار ، والقياس على الجواز الذي اختلف الأصوليون في جوازه خارج عن هذا للوضع .

ومثال للسأة الأصولية المختلف فيها : (وَخَفِضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ^(١)) ، هل يجوز أن يقال : طأطأ لها عتق الذل !

وأما قوله : لو سلمنا أنه حقيقة في تارك الدب لم يحز إطلاقه في حق الأنبياء ؛ لأنه يوم العصيان ؛ بل يجب أن يقيد .

فيقال له : لكن للبارئ سبحانه أطفه ولم يقيد في قوله : (وَعَمَى آدَمُ) ، فيلزمك أن يكون تعالى موهما وفاعلا لتبيح ؛ لأن إيهام التبيح قبيح .

فإن قال : الله لالة العقلية على استعانة للمعنى على الأنبياء تؤمن من الإيهام . قيل له : وتلك الالة يسميها تؤمن من الإيهام في قول القائل : الأنبياء عصاة ؛ فهلا أجزت إطلاق ذلك !

• • •

وثانيها أنه تعالى قال : (فَغَرَى) والنن الصلال .

قال المرتضى رحمه الله تعالى : معنى غرى ما هنا خاب ، لأنه نعلم أنه^(٢) لو فعل ما ندب إليه من ترك تناول من الشجرة لا استعق الثواب العظيم ؛ فإذا خالف الأمر ولم يصير^(٣) إلى ما ندب إليه ، فقد خاب لا محالة من حيث لم يصير إلى الثواب الذي كان يستعقه بالامتناع ؛ ولا شبهة في أن لفظ « غرى » يحتمل الخيبة ، قال الشاعر :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْتَدِ النَّاسُ أُمُورَهُ وَمَنْ يَفْوَ لَا يَعُدُّ عَلَى النَّفْسِ لَأُثْمًا^(٤)

(١) سورة الإسراء : ٢٤ . (٢) التزيه : « لانا نعلم » .

(٣) ب : « فإذا خالف الأمر إلى ما ندب إليه » .

(٤) للمرثي ، السان : ١٩ : ٣٧٧ .

يقال له : أَلَسْتَ الْقَاتِلَ فِي مَصَفَاتِكَ الْكَلَامِيَّةِ : إِنَّ لِلنَّدَوَاتِ إِنَّمَا نَدَبَ إِلَيْهَا ، لِأَنَّهَا كَالسَّهْلَاتِ وَلِلْيَسَرَاتِ لِفَعْلِ الْوَاجِبَاتِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ أَلْطَافًا فِي وَاجِبِ عَقْلِي ؛ وَأَنَّ ثَوَابَهَا بِسُرٍّ جَدًّا بِالْإِصَافَةِ إِلَى ثَوَابِ الْوَاجِبِ ؛ فَإِذَا كَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أَخْلَى بِشَيْءٍ مِنَ الْوَاجِبَاتِ ، وَلَا فَعَلَ شَيْئًا مِنَ الْمُقْبَعَاتِ ؛ فَقَدْ اسْتَعْقَى مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ مَا يَسْتَعْرِثُ ثَوَابَ لِلنَّدَوَاتِ بِالْإِصَافَةِ إِلَيْهِ . وَمِثْلُ هَذَا لَا يَقَالُ فِيهِ لِمَنْ تَرَكَ لِلنَّدَوَاتِ إِيَّاهُ قَدْ خَابَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ أَكْنَسَ مِائَةَ أَلْفِ قَنْطَارٍ مِنَ الذَّلِّ ، وَتَرَكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ دِرْهَمًا وَاحِدًا كَانَ يُمْسِكُهُ أَكْفَاسُهُ فَلَمْ يَكْتَسِبْهُ ، لَا يَقَالُ : إِنَّهُ خَابَ !

وَنَالِهَا أَنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ يَخَالِفُ مَا ذَكَرَهُ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ آدَمَ مَنِيءٌ مِنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ﴾ ؛ وَهَذَا يُوجِبُ أَنَّهُ قَدْ عَصَى بِأَنْ فَعَلَ مَهِيئًا عَنْهُ ، وَالشَّرِيفُ الْمُرْتَضَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِنَّهُ عَصَى بِأَنْ تَرَكَ مَأْمُورًا بِهِ .



قَالَ الْمُرْتَضَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَجِيبًا عَنْ هَذَا : إِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لَيْسَا بِمُخْتَصَّانِ ^(١) عِنْدَنَا بِصِيْغَةٍ لَيْسَ فِيهَا أَحْتِمَالٌ وَاشْتِرَاكٌ ، وَقَدْ يُوْمرُ عِنْدَنَا بِلَفْظِ النَّهْيِ وَيُنْهَى بِلَفْظِ الْأَمْرِ ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ النَّهْيُ نَهْيًا بِكَرَاهَةِ النَّهْيِ عَنْهُ ، فَإِذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ ، وَلَمْ يَكْرَهُ قَرْمَهُمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَقِيقَةِ نَاحِيًا ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ : ﴿ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ ^(٢) ، ﴿ وَإِذَا احْمَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ ^(٣) ؛ وَلَمْ يَرُدْ ذَلِكَ ؛ لَمْ يَكُنْ أَمْرًا ؛ وَإِذَا كَانَ قَدْ صَحِبَ قَوْلُهُ : ﴿ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ إِرَادَةَ تَرْكِ التَّنَاولِ ، وَجِبَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ أَمْرًا ؛ وَإِنَّمَا سَمَّاهُ مَنِيئًا ، وَسَمِي

(١) التَّزْمَةُ : أَمَّا النَّهْيُ وَالْأَمْرُ مِمَّا قَلْبًا . . .

(٢) سُورَةُ قَصَصَاتٍ ٤٠ .

(٣) سُورَةُ الْمَائِدَةِ ٢

أمره له بأنه نهى من حيث كان فيه معنى النهى ؛ لأن في النهى ترغيباً في الامتناع من الفعل ، وترهيداً في الفعل نفسه ، ولما كان الأمر ترغيباً من فعل للأمر ، وترهيداً في تركه جاز أن يستى نهياً .

وقد بداخل هذان الوضمان في الشاهد ، فيقول أحدنا : قد أمرت فلانا بالآلا بلقي الأمير ؛ وإنما يريد أنه نهاه عن لقائه ؛ ويقول : نهيتك عن هجر زيد ؛ وإنما معناه أمرتك بمواصلته^(١) .

يقال له : هذا خلاف الظاهر ، فلا يجوز المصير إليه إلا بدلالة قاطعة تصرف اللفظ من ظاهره ؛ ويمكن أصحاب أي هاشم في نصرة قولهم التمسك بالظاهر .

واعلم أن بعض أصحابنا تناول هذه الآية ، وقال : إن ذلك وقع من آدم عليه السلام قبل نبوته ؛ لأنه لو كان نبياً قبل إخراجيه من الجنة ، لكان إما أن يكون مرسلًا إلى نفسه ؛ وهو باطل ، أو إلى حواء وقد كان الخطاب يأتيها بغير واسطة ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ أو إلى الملائكة ، وهذا باطل ، لأن الملائكة رسل الله ، بدليل قوله : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾^(٢) ، والرسول لا يحتاج إلى رسول آخر ، أو يكون رسولاً وليس هناك من يرسل إليه ؛ وهذا محال . فثبت أن هذه الواقعة وقعت له عليه السلام قبل نبوته وإرساله .

• • •

الفصل الثالث

في خطئهم في التبليغ والفتاوى

قال أصحابنا : إن الأعياء معصومون من كل خطأ يتعلق بالأداء والتبليغ ، فلا يجوز

(١) التنزيه ١١ .

(٢) سورة طه ١٠ .

عليهم الكذب ولا التفسير ولا التبديل ولا الكتمان ولا تأخر البيان عن وقت الحاجة ،
ولا الخلط فيها بؤدونه عن الله تعالى ، ولا السهو فيه ولا الإلغاز ولا التعمية ؛ لأن كل
ذلك إما أن ينقض دلالة السجزة على صدقه ، أو يؤدي إلى تكليف ما لا يطاق .

وقال قوم من الكرامية والحشوية: يجوز عليهم الخلط في أقوالهم ، كما جاز في أفعالهم ؛
قالوا : وقد أخطأ رسول الله صلى الله عليه وآله في التبليغ ، حيث قال : « تلك الفرائض للملا »
وإن شفاعتهم لترجي .

وقال قوم منهم : يجوز الخلط على الأنبياء فيما لم تكن الحجة فيه مجرّد خبرهم ، لأنه
لا يكون في ذلك إبطال حجة الله على خلقه ، كما وقع من النبي صلى الله عليه وآله في هذه
الصورة ، فإن قوله ذلك ليس يبطل حجة العقل في أن الأصنام لا يجوز تعظيمها ، ولا ترجى
شفاعتها . فأمّا ما كان السبيل إليه مجرّد السمع فلا يمكن الخلط فيه لبطلت الحجة بإخارهم .
وقال قوم منهم : إن الأنبياء يجوز أن يخطئوا في أقوالهم وأفعالهم ، إذا لم تجز تلك
الأفعال مجرّد بيان الوحي ، كبيان عليه السلام لما الشريعة ، ولا يجوز عليه الخلط في حال
البيان ، وإن كان يجوز عليه ذلك في غير حال البيان ، كما روى من خبر ذي اليمين^(١) حين
سأله النبي صلى الله عليه وآله في الصلاة ، وكذلك ما يكون منه من تبليغ وحي ، فإنه لا يجوز
عليه أن يخطئ فيه ، لأنه حجة الله على عباده . فأمّا في أقوله الخارجة عن التبليغ ، فيجوز

(١) نقله أبو داود في كتاب الصلاة ١٠٦٣٠ بسنده عن أبي هريرة قال : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وسلم إحدى صلاتي العشي : الظهر أو العصر ؛ قال : فصل بنا ركعتين ثم سلم ، ثم قام إلى حشبه لي
مقدم السجدة فوضعه يديه عليها ؛ إحداهما على الأخرى ، يرفق وجهه المص ، ثم خرج سرعان الناس
وهم يقولون : قصرت الصلاة ؛ قصرت الصلاة ؛ وفي الناس أبو بكر وعمر ؛ فهما أن يكلماه ، فقام رجل
كان رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وسلم يسبه ذا العيين ؛ فقال : يا رسول الله ، أسيت أم قصرت الصلاة ؟
فقال : « لم أس ولم تقصر الصلاة » ، قال : بل قسيت يا رسول الله ، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على القوم فقال
« أصدق ذو اليمين ؟ » فأومئوا ؛ أي نعم ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مقامه فصل الركعتين الباقتين ثم سلم
ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول . ثم رجع فكبر .

أن يخطئ كما روى عنه صلى الله عليه وآله في نهيه لأهل المدينة عن تأييد النعل^(١) .
فأما أصحابنا للعترة ، فإنهم اختلفوا في الخبر المروي عنه عليه الصلاة والسلام في
سورة النجم ، فهم من دفع الخبر أصلاً ولم يقبله ، وطمعن في روايته ، ومنهم من اعترف بكونه
قرآناً منزلاً ، وهم فريقان : أحدهما القائلون بأنه كان وصفاً للملائكة ، فلما ظنّ المشركون
أنه وصف آلهم ، رفع موسى عن تلاوته . وثانيهما القائلون إنه خارج على وجه
الاستفهام بمعنى الإسكار ، فتوهم سامعوه أنه بمعنى التحقيق ، ففسخه الله تعالى ونهى
عن تلاوته .

ومنهم من قال : ليس قرآن منزل ، بل هو كلام تسكلم به رسول الله صلى الله عليه
وآله من قبل نفسه على طريق الإسكار والمهره بقريش ، فظنوا أنه يريد التحقيق ،
ففسخه الله بأن بين خطأ ظنهم ، وهذا معنى قوم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ
يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾^(٢) قالوا : فإلقاء الشيطان هاهنا هو إلقاء الشبهة في قلوب المشركين ،
وإنما أضافه إلى أميته ، وهي تلاوته القرآن ، لأن بفرور الشيطان ووسوسته أضاف للمشركون
إلى تلاوته عليه السلام ما لم يرد بها .

وأسكر أصحابنا الأخبار الواردة التي تقدمت الطعن على الرسول صلى الله عليه وآله ،
قالوا : وكيف يجوز أن تصدق هذه الأخبار لأحد على من قد قال الله تعالى له : ﴿ كَذَلِكَ
لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾^(٣) وقال له : ﴿ سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾^(٤) وقال عنه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل ١٨٣٦٠ بسنده عن أس : أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم
يلتصقون النعل ؛ فقال : « لو لم يعملوا الصلح ، قال فخرج شرباً (وهو اليسر الردي) فربهم فقال :
« ما لنعلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : « أنتم أعلم بأمر دينكم » .

(٢) سورة الحج ٥٢ .

(٣) سورة القدر ٣٢ .

(٤) سورة الأعلى ٦ .

عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَابِيلِ لَا خُذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ • ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَسِينَ (١) وَأَمَّا
خبر ذى اليمين وخبر تأييد النخل ، فقد تكللنا عليهما في كتبنا المصنفة في أصول الفقه .

• • •

الأصل :

وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا ، وَتَسَمَّى عَلَى الضَّيْقِ وَالسَّعَةِ ، فَمَدَّلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ
مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا ، وَلِيَتَغَيَّرَ بِذَلِكَ الشُّكْرُ وَالصَّبْرُ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا .
ثُمَّ قَرَنَ بِسَمِيِّهَا عَقَابِيلَ فَأَقْبَاهَا ، وَيَسْلَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا ، وَيَفْرُجُ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ
أَمْرَاحِهَا . وَخَلَقَ الْآجَالَ فَأَمْلَأَهَا وَقَصَّرَهَا ، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا ، وَوَصَلَ بِالتَّوْتِ أَسْبَابَهَا ،
وَجَمَعَهُ خَالِجًا لِأَشْطَانِهَا ، وَقَاطَمًا لِمَرَائِرِ أَفْرَاحِهَا .

(• • •)

التبنيح :

الضَّيْقُ وَالضَّيْقُ : لفتان ، فأما المصدر من « ضَاقَ » الضَّيْقُ بالكسر ، لا غير
وَمَدَّلَ فِيهَا : من التمديل وهو التصويم ، وروى : « مَدَّلَ » ، بالتخفيف ، من العدل
نقيض الظلم .

وَالْمَيْسُورُ وَالْمَعْسُورُ : مصدران . وقال سيبويه : هما صفتان ، ولا يجرى عنده المصدر
على وزن « مفعول » ألينة ، ويتأول قولهم : « دعه إلى ميسوره » ، ويقول كأنه قال : دعه إلى
أمر يوسر فيه ، وكذلك يتأول « للقول » أيضا ، فيقول كأنه عَقِلَ له شيء ، أى حبس
وأبَدَ وحسَدَ .

ومعنى قوله عليه السلام : « لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا » ، هو معنى قول
النبي صلى الله عليه وآله : « إِنَّ إِعْطَاءَ هَذَا الْمَالِ فِتْنَةٌ ، وَإِمْسَاكُهُ فِتْنَةٌ » .

والعقائل في الأصل : الخلأ ، وهو قروح صناد تخرج بالشفة من جسامها للرض .
والغافة : القفر .

وطوارق الآفات : متجددت للصائب ، وأصل الطروق ما يأتي ليلاً .
والأنراح : الضوم ، الواحد تروح ، وتروحته تزيحها ، أى حرته .
وخالجا : جاذبا ، والخلج الجذب ، خلجه يخلجه بالكسر ، واختلعه ، ومنه انطليج :
الحبل لأنه يجذب به ، وسمى خليج البحر خليجا ؛ لأنه يجذب من معظم البحر .
والأشطان : الجهال ، واحدها شطن ، وشطنت القرم أشطته ، إذا
شدته بالشطن .

والقرائن : الجبال ، جمع قرن ؛ وهو من شواذ الجوع ، قال الشاعر :
أبلغ خليفة إن كنت لاقية ^أ لدى الباب كالمشود في قرن ^(١)
ومرائر القرائن : جمع مريد ، وهو ما لطف وطلب منها واشتد فقه ، وهذا الكلام
من باب الاستعارة .



الأدمل :

عالم المسر من ضماير المصيرين وتجوى المتخافين ، وخواطر رجم الطنون ، ونقد
عزيمات اليقين ، ومسارق إباح الجعون ، وما ضمتته أكنان القلوب ، وغيابات
الضيوب ، وما أضمت لإستراحه مصايح الأنماج ، ومصايح الدر ، ومثاني الهوام
ورجع الحنين من اللوليات ، وتمس الأقدام ، ومنعش الثمرة من ولايج خلف
الأكمام ، ومنقش الوحوش من غيران الجبال وأوديتها ، ومحتب البعوض بين سوق

(١) لقمان ١٧ : ٢١٥ من غير نسخة ، وروايته : « أبلغ أما سمع » .

الأشجار والحيثها ، ومغري الأوراق من الأفنان ، وتخط الأمشاج من مسارب
 الأصلاب ، وناشئة الغيوم ومُتلاحيها ، ودُور قطر السحاب في متراكبها ، وماتشي
 الأعاصير يذبولها ، وتسفو الأمطار يسويلها ، وعوم نبات الأرض في كُثبان الرمال ،
 ومُسفر ذوات الأجنحة يذرا شاخيب الجبال ، وتريد ذوات المنطق في دياجير
 الأوكار ، وما أوعيت الأصداف ، وحضت عليه أمواج البحار ، وما غشيت
 سُدفة ليل ، أو ذر هدير شارق نهار ، وما اعتفت عليه أطباق الدياجير ، وسُبحات
 الثور ؛ وأثر كل خطوة ، وحس كل حركة ، وزجع كل كيلة ، وتحريك كل
 شفة ، ومُسفر كل نَسمة ، ومِنقال كل ذرة ، وهمايم كل نفس هامة ، وما عليهما من
 تمر شجرة ، أو ساط ورقة ، أو قرارة نطفة ، أو هامة ديم ومُضغية ، أو ناشئة خلق
 وسلالة ؛ لم يلعنه في ذلك كفة ، ولا اعتزجتم في حيط ما ابتدع من خلقه عارضة ،
 ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدبير المخلوقين سلالة ولا فترة ، بل تقدّم علمه ،
 وأحصاهم عدده ، ووسمهم عدله ، وقرّمهم فضله ، مع تفصيلهم عن كنه ما هو أهله .

• • •

الشيخ :

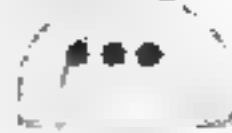
لو سمع النضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله مقالته على بن العباس بن جريح ،

لإسماعيل بن بلبل :

قالوا أبو الصغرى من شيبان قلت لهم كلاً ، ولكن لعمري منه شيبان^(١)
 وكم أب قد علا بان ذرا شرف كلاً عسلاً يرشول الله عدنان
 إذا كان يخر به على عدنان وقطعان ، بل كان يقر به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن ،

(١) ديوانه الورقة ٢٧٣ (مخطوطة دار الكتب ، رقم ١٣٩ - أدب) .

ويقول له : إنه لم يُنفَر ما شِئْتُ من معالم التوحيد ، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولما ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب ما لم تبتدعه أنت في جاهلية النبط ؛ بل لو سمع هذا الكلام أرسطوطاليس ، القائل بأنه تعالى لا يعلم الجزئيات ؛ لخشع قلبه وقفت شمره ، واضطرب فكره ؛ ألا ترى ما عليه من الرُواء والمهاية ، والمظنة والفضامة ، والثانة والجزالة مع ما قد أشرب من الخلاوة والعلالة والعلف والسلاسة ؛ لا أرى كلاماً يشبه هذا إلا أن يكون كلام الخالق سبحانه ، فإن هذا الكلام نبئة من تلك الشجرة ، وجنود من ذلك البحر ، وجذوة من تلك البراكين ، وكأنه شرح قوله تعالى : ﴿ وَحِثِّدْهُ مَفَاحِ الْمُنِيبِ لَا يَسْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَقْطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .



ثم نعود إلى التفسير فنقول :-

النَّجْوَى : المسارة ، قول : اتجى القوم وتناجوا ، أى تساروا ، وانتجيت زبدا إذا خصصته بمناجاتك ؛ ومنه الحديث ، أنه صلى الله عليه وآله أطال النجوى مع علي عليه السلام ؛ فقال قوم : لقد أطال اليوم نجوى ابن عمه ، فبلغه ذلك فقال : « إني ما انتجيت ؛ ولكن الله انتجاء » . ويقال هسر نفسه النجوى ؛ يقال : نجوت تجواً أى ساررت ؛ وكذلك ناجيته مناجاة ، ومعنى ذلك الأمر الخصوص نجوى لأنه يستسر به ؛ فأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ فمعهم هم النجوى ؛ وإنما النجوى فعلهم ؛ وإنما هو كقولك : « قوم رضا » وإنما الرضا ، فعلهم ؛ ويقال لقدى تسارته : اتجى على « فليل » ؛ وجمعه أنجية ، قال الشاعر :

• إني إذا ما القوم كانوا أنجية^(١) •

وقد يكون النجى جماعة ؛ مثل الصديق ؛ قال الله تعالى : ﴿ خَلَّصُوا نَجِيًّا ﴾^(٢) ،
وقال الفراء : قد يكون النجى والنجوى اسما ومصدرا .

والتخافتين : الذين يسرون للنطق ، وهى الخافضة والتخافت وانخفضت ، قال الشاعر :
أَخَاطِبُ جَهْرًا إِذْ لَهْنٌ تَخَافْتُ وَشَتَانٌ بَيْنَ أَجْهَرٍ وَاللَّغَطِ انْخَفْتُ^(٣)
ورَجَمَ الظنون : القول بالظن ، قال سبعة : ﴿ رَجَمًا بِالْعَبِّ ﴾ ، ومنه « الحديث
للرجم » بالتشديد ، وهو الذى لا يدرك أحق هو أم باطل ، ويقال صار رجما ، أى
لا يوقف على حقيقة أمره .

وعقد عزمات اليقين ، العزائم التى يقد القلب عليها وتطمئن النفس إليها .

ومسارق إيماض الجفون : ما ستره الأبصار حين نومض ، يقال : أومض البصر والبرق
إيماضا إذا لمع لمعا خفيفا ، ويمحور : ومض بنير همر ، يبيض ومضاً وميضاً ومضانا . وأكنان
القلوب : غلافها ، والكن : الستر ، والجمع أكنان ، قال تعالى : ﴿ حَمَلْنَاكُمْ مِنَ الْجِبَالِ
أَكْنَانًا ﴾^(٤) ويروى : « أكنة القلوب » وهى الأغشية أيضا ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا
عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾^(٥) ، والواحد كنان ، قال امرئ بن أبى ربيعة :

(١) اللسان ٢٠ : ١٧٩ ، ونسب إلى سحيم بن وئيل البرومى ؛ وبمده :

واضطرب القوم اضطراب الأرشية هناك أوصيتي ولا تؤمى بيته

(٢) سورة يوسف ٨٠ .

(٣) اللسان ٢ : ٣٣٥ من غير نسخة .

(٤) سورة النحل ٨١ .

(٥) سورة الأحكام ٢٥ .

تَحْتَ عَيْنٍ كِنَانًا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّلٍ^(١)

ويعنى بالقى ضمنت أ كنانُ القلوب الضمائر .

وغيايات المبوب : جمع غيابة ، وهى قمر البدر فى الأصل ؛ ثم نقلت إلى كل غامض

خفى ، مثل غيابة ، وقد روى : « غَيَابَات » بالباء .

وأصغنت : تستمت ومالت نحوه . ولاستر فيه : لاستماعه فى خفيه ، قال تعالى :

﴿ إِنْ مِّنْ أَسْتَرْقٍ فَسَمِعَ ﴾^(٢) .

ومصانخ الأسماع : خروقاتها التى يُصْبِغُ بها ، أى يستمع .

ومصائف النر : المواضع التى يصيف القدر فيها ، أى يقيم الصيف ، يقال : صاف بالمكان

واصطاف بمعنى ، والموضع مَصِيفٌ ومصطاف .

والقر : جمع ذرة ، وهى أصغر الحبل .

ومشاقى الهوام : اللواضع التى تشق الهوام بها ، يقال : شقوت بموضع كذا ونشقت ،

أى أقت به الشتاء .

والهوام : جمع هامة ، ولا يقع هذا الاسم إلا على الحوف من الأحناش .

(١) السان ١٧ : ٧٤٣ ، وذكره :

هَاجَ ذَا الْقَلْبِ مَزَلْ دَارِمْ الْعَهْدِ نُحُولْ

أُبْنَا بَاتَ تَيْلَّةَ بَيْنَ غُصْنَيْنِ مُوبَلْ

قال ابن برى : صوابه إنقاده :

• بَرْدُ غُصْبٍ مُرَحَّلْ •

وأشده ابن حريد :

تَحْتَ ظِلِّ كِنَانًا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّلْ

(٢) سورة الحجر ١٨ .

ورجع الحنين : ترجيعه وترديده ، والمولّيات : الثوب والنساء اللواتي حول يمين
وبين أولادهن .

وحس الأقدام : صوت وطئها حفاً جداً ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا نَحْنًا ﴾^(١) ،
ومنه قول الراجز .

• فَمَنْ يَمْشِيَنَّ بِنَا فَمَيْسًا^(٢) •

والأسدُ المشوس : الخفي الوطء .

ومتفتح الثمرة ، أى موضع سقطها من الأكلم ، وقد روى : « متفتح » بالخاء
المعجمة ونشديد السين وبتاء بعد اللام ، مصدراً من تفتحت الثمرة ، إذا انقطعت .

والولائج : الواضع الساترة ، والواحدة وليجة ، وهو كالكهف يستتر فيه اللارة من مطر
أو غيره ، ويقال أيضاً في جمه : ولج وأولاج .
ومتفتح الوحوش : موضع تقسمها واستنارها ، وصي قَمْعَة^(٣) بن إلياس بن مضر بذلك ،
لأنه اتهم في بيته كازحموا .

وغيران الجبال : جمع غار ، وهو كالكهف في الجبل ، والغار مثل الغار
والغارة مثله .

ومحتباً البهوض : موضع احتبائها واستنارها ، وسوق الأشجار : جمع ساق . والحيثها
جمع لحاء وهو القشر .

ومفرز الأوراق : موضع فرزها فيها .

(١) سورة طه ١٠٨ .

(٢) اللسان ٨ : ١٣٦ من غير منة .

(٣) قَمْعَة : جمع القمف والقم ، قال صاحب اللسان : « كان اسمه عميراً فأعير على إبل أبيه فاقمع في
البيت فرثاً ، فسماه أبوه قَمْعَة ، وخرج أخوه مسركاً بن إلياس لبقاه إبل أبيه ، فأدركها وعهد الأخ الثالث
بطلح القدر ، فسمى طابخة » .

والأفنان : جمع قَنَن ، وهو المصن والامشاج : ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها ، جمع مَشِيج ، كَيْتِمٍ وَأَيْتَام . ومحطها : إما مصدر أو مكان .

ومسارب الأصلاب : اللواصع التي ينسرب المني فيها من الصلب ، أى يسيل .
وماشئة العيوم : أول ما ينشأ منها ، وهو النشء أيضا ، وماشئة الليل في قوله تعالى :
(**إِنَّ مَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً**) ^(١) أول ساعاته ؛ ويقال : هى ما ينشأ في الليل من الطاعات . ومتلاحمها ، ما يلتصق منها بعضها ببعض ويلتصم .

ودرور قطر السحاب . مصدر ، من دَرَّ بَدْرًا ، أى سال ، وماقة دَرُّور : أى كثيرة اللبن ، وسحاب درور : أى كثير المطر ، ويقال : إن لهذا السحاب لدررة ، أى . صبا ، والجمع درور . ومتراكها : المحتجع المكثف منها ، رَكَتُ الشيء أركه بالضم : جمعته وألقيت بمعه على بعض ، ورمل ركام : وسحاب ركام ، أى مجتمع .

والأعاصير : جمع إعصار ، وهى ريح تنير البهار فيرتفع إلى السماء كالصود . وقال تعالى :
(**فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ**) ^(٢) .

وتسفى ، من سَفَتَ الريح التراب سفيا ، إذا أذنته فهو سَفَى . وذبولها هاهنا ، يريد به أطرافها وما لاحمت الأرض منها .

وما تعفو الأمطار : أى ما تدرُس ؛ عفت الريح المنزل أى درسته ، وعفا المنزل نفسه يسفُو : درس ، يتمدى ولا يتعدى .

وبنات الأرض : الهوام والحشرات التي تسكن في الرمال ، وعومها فيها : سباحتها ؛ ويقال لسير السفينة وسير الإبل أيضا : عَومٌ ، عُمت في الماء ، بصم أوله أعوم .

(١) سورة الزمل ٦ .

(٢) سورة الفرة ٢٦٦ .

وكُتِبَان الرمال : جمع كُتِيب وهو ما انصب من الرمل واجتمع في مكان واحد
فصار تلاً ، وكُتِيت الشيء أ كُتِيبه كُتِيباً ، إذا جمعته ، وانكُتِب الرمل : اجتمع .
وشَنَاخِيب الجبال : رموسها ، واحدها شُنخوب . وذُرَاها : أماليها جمع ذِرْوَة وذُرْوَة ،
بالكسر والضم .

والتَّغْرِيد : التطريب بالغناء ، والتَّغْرِيد مثله ؛ وكذلك المَرَد بفتحهم ما ؛ ويقال : غَرِدَ
الطائر فهو غَرِد ، إذا طرب بصوته .
وذوات المطلق هاهنا : الأطيوار ؛ ومتى صوتهام مطقاً وإن كان لا يطلق إلا على الفاظ
البشر مجازاً .

ودجاجير : جمع دَجِيمور ؛ وهو الظلام . والأوكار : جمع وَكْر ؛ وهو عُش الطائر ؛
ويجمع أيضاً على وَكُور ، وَوَكْر الطائر يَكِر وَكُراً ، أى دخل وَكْره .

وقوله : « وما أوعيته الأصداف » ، أى من التؤلؤ . وحَصَّت عليه أمواج البحار :
أى ما ضمتها كما تحصن الأتى من الطير يعضها ، وهو ما يكون في لجة ؛ إما من سمك أو
خشب أو ما يحمله البحر من المنكر كالحاجم بين الأمواج وغير ذلك .

وسُدْفَة الليل : ظلمته ، وجاء بالفتح . وقيل : السُدْفَة اختلاط الضوء والظلمة معاً
كوقت ما بين طلوع المعر إلى الإسفار .

وغشيتته : عطته . وذَرَّ عليه شارق نهار ، أى ما طلعت عليه الشمس ، وذرت الشمس
تَذَر بالضم ، ذُروراً : طلعت ، وذَرَّ البقل ، إذا طلع من الأرض .

وشَرَّقت الشمس : طلعت ، وأشرقت بالهمزة ، إذا أضامت وصفت .

واعتقبت : تماقبت . وأطباق الدجاجير : أطباق الظلم . وأطباقها : جمع طبقة ، أى

أغطيها، أطبقت الشيء أى غطيته ، وجسده مطبقاً ؛ وقد تطبق هو ، ومنه قولم : لو تطبقت السماء على الأرض لما فعلت كذا . وسُبحات النور : عطف على أطباق الدياجير ، أى يعلم سبحانه ما تنافى عليه الظلام والضياء . وسُبحات هاهنا ، ليس بمعنى به ما معنى بقوله : « سبحانه وجه ربنا » ، لأنه هناك بمعنى ما يسبح عليه النور ، أى يجرى ، من سُبَّح الفرس وهو جريه ، ويقال : فرس سابع .

والخطوة : ما بين القدمين ، بالضم ، وخطوت خطوة بالفتح ، لأنه المصدر .
ورجع كل كلمة : ما ترجع به من الكلام إلى نفسك وتردده في فكرك .
والنِّمَّة : الإنسان نفسه ، وجمعها نسم ، ومنقال كل ذرة : أى وزن كل ذرة ، وما يحظى فيه العامة قولم للربنار : منقال ، وإنما للمقال وزن كل شيء . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْلَ ذَرَّةٍ ﴾ ^(١) .

وهمام كل نفس هامة ، الهاميم : جمع همة ، وهي تردد الصوت في الصدر ، وجمام هميم : يهيم في صوته ، وهميم للرأفة في رأس الصبي ، وذلك إذ انوثته بصوت ترققه له . والنفس الهامة : ذات الهمة التي تعزم على الأمر .

قوله : « وما عليها » أى ما على الأرض ، فعاء بالضمير ولم يسبق ذكر صاحبه ، اعتماداً على فهم المخاطب ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ^(٢) .
وقراءة النطفة : ما يستقر فيه الماء من الأماكن ، قال الشاعر :

وَأَنْتُمْ قَرَارَةُ كُلِّ مَقْدِنٍ سَوْدَةٍ وَلِكُلِّ سَائِلَةٍ تَيْسَلُ قَرَارُ
والنطفة : الماء نفسه ، ومنه قوله عليه السلام في الخوارج : إن مصارعهم النطفة ، أى لا يهبرون النهر ، ويحوز أن يريد بالنطفة المني ويقويه ما ذكره بعده من المضة .

(١) سورة النساء ٤٠ .

(٢) سورة الرحمن ٢٦ .

والنقاعة : نُقْرَة يجتمع فيها الدم ، ومنه أنقوعة ، ويقال لوقبة الثريد : أنقوعة .
واللصنة : قطعة اللحم . والسلاة في الأصل : ما استل من الشيء ، وسميت النطفة سلاة
الإنسان ، لأنها استلت منه ، وكذلك الولد .
والسكفة : المشقة ، واعتورته مثل عرته وغذم عليه ، تشبيهه بنفوذ السهم ، وعدى
الفعل بنفسه وإن كان معدى في الأصل بحرف الجر ، كقولك : اخترت الرجال زبدا ،
أي من الرجال ، كأنه جعل عليه تعالى خارقاً لهم وناوذا فيهم . ويروى : « وأحصاهم
هذه » ، بالتضعيف .

• • •

الأصل :

اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ ، وَالْحَمْدُ الْكَثِيرِ ، إِنْ تَوَكَّلْتُ فَحَبْرٌ مَأْمُولٌ ،
وَإِنْ تَرَجَّ فَغَيْرُ مَرْجُورٍ . اللَّهُمَّ فَقَدْ سَمِعْتُ لِي رِيفاً لَا أَمْدَحُ بِكَ عَيْزَكَ ، وَلَا أَثْنِي
بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ ، وَلَا أُوْجِّهُ إِلَى مَعَادٍ الْخَيْفَةِ وَمَوَاضِعِ الرِّيبَةِ ، وَعَدَلْتُ
بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الْأَدَمِيِّينَ ؛ وَالثَّنَاءِ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ . اللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مَثْنٍ
عَلَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ مَثْنَةٌ مِنْ جَرَاءِ ، أَوْ عَارِفَةٍ مِنْ عَطَاءِ ؛ وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَى
ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ .

اللَّهُمَّ ، وَهَذَا مَقَامُ مَنْ أَوْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الْبَدِي هَوْلَكَ ، وَلَمْ تَرَ مُسْتَحِقّاً لِهَذِهِ
لِلْعَامِدِ وَالْمَادِحِ غَيْرَكَ ؛ وَرَبِّ فَاغْفِرْ لِيكَ لَا يَحْبُرُ مَسْكَنَتَهَا إِلَّا فَضْلُكَ ، وَلَا يَنْعَشُ
مِنْ خَلْقِهَا إِلَّا مَنُّكَ وَجُودُكَ ، فَهَبْ لَنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ رَحْمَتَكَ ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الْأَيْدِي
إِلَى سِوَاكَ ؛ إِيَّاكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

• • •

البِنْخُ :

التعداد : مصدر : وحَيَّرَ : خير مبتدأ محذوف ، تقديره : فأنت خير مأمول
ومعنى قوله : « قد سطت لى » ، أى قد آتيتى لسا وفصاحة وسعة منطق ، فلا أمدحُ
غيرك ، ولا أحد سواك .

وبمعنى عمادى الحية : البشر ، لأن مادحهم ومؤملهم يخيب فى الأكثر ، وجعلهم
مواضع الريبة ، لأنهم لا يوثق بهم فى حال .

ومعنى قوله عليه السلام : « وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة » ، أنه
راجع منه أن يدلّه على الأعمال التى ترضيه سبحانه ، ويستوجب بها منه الرحمة والمغفرة ،
وكأنه جعل تلك الأعمال التى يرحو أن يدلّ عليها ذخائر للرحمة وكنوزاً .
والعاقبة : الفقر ، وكذلك المسكنة .

ويَنمَشُ ، بالفتح : يرفع ، والدامى نَمَشَ ، ومنه النمش لارتفاعه .
والمرى : العطاء والنعمة ، والمأى ، من أسماء الله سبحانه .

(٩١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان

رضي الله عنه :

دَعُونِي وَالتَّمِسُوا غَيْرِي ، فَإِن مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَحُومٌ وَأَوَانٌ ؛ لَا تَقُومُ لَهُ
الْقُلُوبُ ، وَلَا تَذَلُّ عَنِّيهِ الْقُلُوبُ وَإِنِ الْآفَاقُ قَدْ أَعَامَتْ ، وَالْمَحَجَّةُ قَدْ تَنَكَّرَتْ .
وَأَعْلَمُوا^(١) أَنِّي إِنِ اجْتَنَسْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ ؛ وَلَمْ أَصْغِرْ إِلَى قَوْلِ الْعَائِلِ ، وَغَشِبَ
الْعَائِبِ ، وَإِن تَرَكَشُونِي قَدَامًا كَأَحَدِكُمْ ، وَتَقُلُّ انْتِمَائَكُمْ وَأَطُوعَكُمْ إِيَّانِي وَلِيَّةُ نَفْسِي
أَمْرَكُمْ ، وَأَمَّا لَكُمْ وَزِيرًا ؛ خَيْرُكُمْ مِنِّي أَمِيرًا !

الشرح :

و أكثر النسخ : « لما أراده الناس على البيعة » ، ووجدت في بعضها : « أداره الناس
على البيعة » ، فمن روى الأول جعل « على » متعلقة بمحذوف ، وتقديره « موافقا » ، ومن
روى الثاني جعلها متعلقة بالفعل الطاهر ، وهو « أداره » ، تقول : أدركت فلانا
على كذا ، وداورت فلانا على كذا ، أى عاينته .

ولا تقوم له القلوب ، أى لا نصير . وأعامت الآفاق : عطاها العيم ، أعامت وعامت ،
وأغيمت وتغيمت^(٢) ، كلمة تعنى ، والحجة الطريق وتنكرت جهلت فلم تعرف « وزيراً »
و « أميراً » : منصوبان على الحال

وهذا الكلام يحمله أصحابنا على ظاهره ؛ ويقولون : إنه عليه السلام لم يكن منصوباً

(١) كذا في أ ، ح ، و ، م ، وخطوة النهج « وأعلم »

(٢) د : « وغشت » .

عليه بالإمامة من جهة الرسول صلى الله عليه وآله ، وإن كان أولى الناس بها وأحقهم بمنزلتها ، لأنه لو كان منصوباً عليه بالإمامة من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام لما جاز له أن يقول : «دعوني والتمسوا غيري» ؛ ولا أن يقول : «ولعل أسمعكم وأطوعمكم إن وليتموه أمركم» ، ولأن يقول : «وأنا لكم وزيراً خيراً مني لكم أميراً» . وتحمله الإمامية على وجه آخر فيقولون : إن الذين أرادوه على الشيعة هم كانوا العاقدين ببيعة الخلفاء من قبل ؛ وقد كان عثمان مفعولهم أو منع كثيراً منهم عن حقه من العطاء ؛ لأن بني أمية استأصلوا الأموال في أيام عثمان ؛ فلما قُتل قالوا لعل عليه السلام : مباديك على أن تسير فينا سيرة أبي بكر وعمر ؛ لأنهما كانا لا يستأثران بالمال لأنفسهما ولا لأهلها ، فطلبوا من علي عليه السلام الشيعة ، على أن يقسم عليهم بيوت الأموال قسماً أي بكر وعمر ؛ فاستعفاهم وسألم أن يطلبوا غيره . فمن يسير سيرتهما ؛ وقال لم كلما تحته رمز ، وهو قوله : «إنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول» ، وإن الآفاق قد أعامت ، والحججة قد تنكرت .

قالوا : وهذا كلام له باطنٌ وعور عميق ، معناه الإخبار عن غيب بطله هو وبطلونه^(١) ، وهو الإنذار بحرب المسلمين بعضهم لبعض ، واختلاف الكلمة وظهور الفتنة .

ومعنى قوله : «له وجوه وألوان» أنه موضع شبهة وتأويل ، فمن قائل يقول : أصاب علي ، ومن قائل يقول : أخطأ ، وكذلك القول في تصويب محاربه من أهل الجبل وصفيين والنهرين ونحو ذلك ، فإن المذاهب فيه وفيهم تشتت وتفرقت حداً .

ومعنى قوله : «الآفاق قد أعامت ، والحججة قد تنكرت» أن الشبهة قد استولت على العقول والقلوب ، وجهل أكثر الناس بحجة الحق أين هي ، فأبالسكم وزيراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أفيتي فيكم شريعته وأحكامه خير لكم مني أميراً محموراً عليه

مديراً بتدبيركم ، فإن أعلم أنه لا قدرة لي أن أسير فيكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله في أصحابه مستقلاً بالتدبير ، لقصد أحوالكم ، ونمذّر صلاحكم .

وقد حمل بعضهم كلامه على محمل آخر ، فقال : هذا كلام مستزيد^(١) شاك من أصحابه ، يقول لهم : دعوني واتممسوا غيري ، على طريق الضمير^(٢) منهم ، والتبرم بهم والتسخط لأفعالهم ، لأنهم كانوا عدّوا عنه من قبل ، واختاروا عليه ، فلما طلبوه بعد أجابهم جواب التسخط العاتب .

وحمل قوم منهم الكلام على وجه آخر ، فقالوا : إما أخرجه مخرج التهمك والسخرية ، أي أمالككم وزيراً حيرتني لكم أميراً فيما نتقدونه ، كما قال سبحانه : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾^(٣) أي تزم لنفسك ذلك وتمتدده .

واعلم أن ما ذكره ليس بعيد أن يحمل الكلام عليه لو كان الدليل قد دلّ على ذلك ، فأما إذا لم يدلّ عليه دليل ، فلا يجوز صرف اللفظ عن ظاهره ، ونحن نتمسك بالظاهر إلا أن تقوم دلالة على مذهبهم تصديقا عن تحمل اللفظ عن ظاهره ، ولو جاز أن تصرف الألفاظ عن ظواهرها لمبر دليل ظاهر يصدف ويصد عنها ، لم يبق وثوق بكلام الله عز وجل وبكلام رسوله عليه السلام ؛ وقد ذكرنا فيما تقدم كيفية الحدل التي كانت بعد قتل عثمان ، والبيعة العلوّية كيف وقعت .



[فصل فيما كان من أمر طلحة والزبير عند قسم المال]

ونحن نذكر هاهنا في هذه الفصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر الإسكافي^(٤) في كتابه

(١) مستزيد ، أي شاك عاتب ، وفي الأساس : « نال يستزيد فلاناً ، يستقصده ويشكوه ؛ وهو مستزيد » . (٢) « الضمير » . (٣) سورة الدخان ٤٩ .

(٤) هو محمد بن عداقة ، أبو جعفر المعروف بالإسكافي ؛ أحد النكطين من مشرقة المقادير . قال الخطيب في تاريخه (٥ : ١١٦) : « له تصانيف مروية ؛ وكان الحسين بن علي الكرابيسي يتكلم معه ويأظره ، وبلغني أنه مات في سنة أربعين ومائتين » .

الذي تضمن فيه كتاب "العمامة" لشيخنا أبي عثمان ، فإن الذي ذكره لم نوردّه نحن فيما تقدم .

قال أبو جعفر: لما اجتمعت الصحابة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله بعد قتل عثمان للنظر في أمر الإمامة ، أشار^(١) أبو الهيثم بن القتيبان ورفاعة بن رافع ومالك بن العجلان وأبو أيوب الأنصاري وعمار بن ياسر بن علي عليه السلام ، وذكروا فضله وسابقته وجهاده وقرابته ، فأجابهم الناس إليه ، فقام كل واحد منهم خطيباً يذكر فضل علي عليه السلام ، فممن من فضله على أهل عصره خاصة ، ومنهم من فضله على المسلمين كلهم كافة . ثم بويج وصمد المنبر في اليوم الثاني من يوم النبعة ، وهو يوم السبت ، لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة ، حمد الله وأثنى عليه ، وذكر محمداً فصلّى عليه ، ثم ذكر نعمة الله على أهل الإسلام ، ثم ذكر الدنيا ، فهدم فيها ، وذكر الآخرة فرغبهم إليها ، ثم قال : أما بعد ؛ فإنه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله استخلف الناس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ، فعزل بطريقه ، ثم جعلها شورى بين ستة ، فأقصى الأمر منهم إلى عثمان ، فعزل ما أنكرتم وعزقتم^(٢) ، ثم حُصر وقتل ، ثم حنّتموني طائفة فطلستم إلى ؛ وإنما أمارجل^(٣) منكم ، لي مالتكم ، وعلى ما عليكم ، وقد فتح الله الداب بينكم وبين أهل القبلة ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، ولا يحيل هذا لأمر إلا أهل الصبر والصبر والعلم بمواقع الأمور ، وإني حاتمكم على مهج نبيكم صلى الله عليه وآله ، وممد فيكم ما أمرت به ؛ إن استقمتم لي ، وبالله المستعان . ألا إن موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته كموضعي منه أيام حياته ، فامصوا لما تؤمرون به ، وقبوا عما تهنون عنه ، ولا تمحلوا في أمر حتى يبينه لكم ؛ فإن لنا عن كل أمر تنكروا عدواً . ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أني كنت كارها للولاية على أمة محمد ؛ حتى اجتمع رأيكم على ذلك ، لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « أَيْمًا وَالْيَ وَلِيَّ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي ، أَقْبَمَ عَلَى حَدِّ الصِّرَاطِ ،

(١) أشاروا بفضله ؛ أي مرّوا الناس به

(٢) كذا ل د .

ونشرت اللائكة صحيفته ؛ فإن كان عادلاً أنعم الله بعبده ، وإن كان جائراً انتفض به الصراط حتى تنزِيل مفاصله ، ثم يهوى إلى النار ؛ فيكون أول ما يتقيها به أنه وحر وجهه ، ولكن لما اجتمع رأيكم لم يسمي ترككم .

ثم التفت عليه السلام بيما وشمالاً ، فقال : ألا لا يقولن رجال منكم غداً قد عمرتهم الدنيا فاتخذوا المقار ، وفجروا الأسفار ، وركبوا الخيول الفارحة ، واتخذوا الوصائف الروقة^(١) ؛ فصار ذلك عليهم عاراً وشاراً ؛ إذا ما سمعهم ما كانوا يحوضون فيه ، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يملكون ، فينقيون ذلك ، ويستنكرون ويقولون : حرمتنا ابن أبي طالب حقوقاً ألا وأيتما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته ، فإن العسل البير عدا عند الله ، وثوابه وأجره على الله ، وأيتما رجل استعاب الله ورسوله ، بصدق ملتصاً ، ودخل في ديننا ، واستقبل قبلتنا ؛ فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ؛ فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، لا فضل فيه لأحد على أحد ؛ وللتقير عند الله هذا أحسن الجزاء ، وأفضل الثواب ؛ لم يحمل الله الدنيا للمتقين أحراراً ولا ثوباً ، وما عند الله خير للأحرار . وإذا كان عدا إن شاء الله فاعدوا علينا ؛ فإن عدا ما لا قسمه فيكم ، ولا يتخلفن أحد منكم ؛ عرى ولا عجمي ، كان من أهل العطاء أو لم يكن ؛ إلا حصر ؛ إذا كان مسلماً حرّاً . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . ثم رل

قال شيخنا أبو جعفر : وكان^(٢) هذا أول ما أسكروه من كلامه عليه السلام ، وأوردتهم الصنف عليه ؛ وكرهوا إعطاءه وقسمه بالسوية . فلما كان من العدا ، غدا وغدا الناس لقبص المال ؛ فقال لعبيد الله بن أبي رافع كانبه : امدد بالمهاجرين فنادهم ، وأعطى كل

(١) الروقة : السار .

(٢) د : د : مسكان .

رجل من حضر ثلاثة دنانير ثم ثن بالأصابع فأمسك معهم مثل ذلك ؛ ومن يحضر من الناس كلمهم ؛ الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك .

فقال سهل بن حنيف : يا أمير المؤمنين ، هذا غلام بالأمس ؛ وقد اعتقه اليوم ؛ فقال : نعمليه كما نعمليك ، فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير ؛ ولم يفضل أحداً على أحد ؛ وتختلف عن هذا القسم يومئذ طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ؛ ورجال من قريش وغيرها .

قال : وسمع عبيد الله بن أبي رافع عبد الله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد : ما خفى علينا أمس من كلام علي ما يريد ؛ فقال سعيد بن العاص - والتفت إلى زهد بن ثابت : إياك أعمى واسمى بأجارة ؛ فقال عبيد الله بن أبي رافع لسعيد وعبد الله ابن الزبير : إن الله يقول في كتابه : ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَيَقَعُنَّ كَذِبُونَ ﴾ ^(١) .

ثم إن عبيد الله بن أبي رافع أخيراً علياً عليه السلام بذلك ، فقال : والله إن بقيت وسليت لهم لأقيمهم على المحبة البيضاء ، والطريق الواضح ، قاتل الله ابن العاص ! لقد عرفت من كلامي ونظري إليه أمس أني أريد وأصحابه من هلك فيمن هلك .

قال : فبينما الناس في المسجد بعد الصبح إذ طلع الزبير وطلحة ، فجلسا ناحية عن علي عليه السلام ، ثم طلع مروان وسعيد وعبد الله بن الزبير ؛ فجلسوا إليهما ، ثم جاء قوم من قريش فانضموا إليهم ، فتحدثوا بجمع ساعة ؛ ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فجهأ إلى علي عليه السلام ؛ فقال : يا أبا الحسن ؛ إنك قد وترتنا جميعاً ؛ أما أنا فقتلت أباي يوم بدر صبراً ، وخذلت أخى يوم الدار بالأمس ؛ وأما سعيد فقتلت أباي يوم بدر في الحرب - وكان تور قريش - وأما مروان فسحقت أباي عند عثمان إذ ضمه إليه ؛ ونحن إخوانك

ونظرواوك من بني عبد مناف ، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال في
أيام عثمان ، وأن تقتل قتله ؛ وإما إن خفناك تركناك ؛ فالتصقنا بالشام .

فقال : أما ما ذكرتم من وثري إليكم فالحق وتركم ، وأما وضعي حكم ما أصبتم
فليس لي أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم ، وأما قتل قتله عثمان فلو لم يمتي قتلهم اليوم
لقتلتهم أمس ؛ ولكن لكم على أن خفتوني أن أؤمّنكم وإن خفتكم أن أسيركم .

فقام الوليد إلى أصحابه فحدثهم ، وافترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف ؛ فلما
ظهر ذلك من أمرهم ، قال عمار بن ياسر لأصحابه : قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم
فإنه قد بلغنا عنهم ورأيتهم مانكره من الخلاف ، والطمع على إيمانهم ؛ وقد دخل أهل
النجاء بينهم وبين الزبير والأعرس العاقبة - بنى طلحة .

فقام أبو الهيثم وعمار وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة معهم ، فدخلوا على علي عليه
السلام ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، انظر في أمرنا ، وإني قومك ، هذا الحق من قريش فإنهم
قد قَضَوْا عهدك ، وأخلفوا وعْدَكَ ، وقد دهمونا في السر إلى رفضك ، هداك الله رشدا
وذلك لأنهم كرهوا الأسوة ، وفقدوا الأثرة ، ولما آسبت بينهم وبين الأعاجم أنسكروا
واستشاروا عدوك وعظموه ، وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقة للجماعة ، وتآلفا لأهل
الضلالة . فرأيتك !

فخرج علي عليه السلام ، فدخل للسعد ، وصعد للنبر مرتديا بطنق ، مؤثرا ببرؤ
قطري ، متعلدا سيفاً ، متوكفا على قوس ، فقال :

أما بعد ، فإنا نحمد الله ربنا وإلهنا وولينا ، وولى النعم علينا ، الذي أصبحت معه علينا
ظاهرة وباطنة ، امتناناً منه بغير حول منا ولا قوة ، ليلو ما أشكر أم مكفر ؛ فنشكر زاده
ومن كفر عذبه ؛ فأفضل الناس عند الله منزلة ، وأقربهم من الله وسيلة ، أطلعهم لأمره ،

وأعلمهم بطاعته ؛ وأتبعهم لسنة رسوله ، وأحبهم بكتابه ؛ ليس لأحد عندنا فضل إلا بطاعة الله وطاعة الرسول . هذا كتاب الله بين أظهرنا ، وعهد رسول الله وسيرته فينا ، لا يجهل ذلك إلا جاهلٌ عاند عن الحق منكر ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ (١) . ثم صاح بأعلى صوته : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين .

ثم قال : يا معشر المهاجرين والأنصار : آخذون على الله ورسوله بإسلامكم ، بل الله بمن هليكم أن هذا لكم للإيمان إن كنتم صادقين .

ثم قال : أما أبو الحسن - وكان يقولها إذا عصب - ثم قال : ألا إن هذه الدنيا التي أصحتم تمتثلونها وترعون فيها ، وأصبحت أنفسكم وترضونكم ، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له ؛ فلا امرئكم فقد حذر تكوها ، واستقيموا بعم الله عاينكم بالصبر لأنفسكم على طاعة الله ، والدن لحكمه حل ثنائه ، فأنا هذا الذي فليس لأحد على أحد فيه اثره ، وقد فرغ الله من قسمته ، فهو مال الله ، وأنتم عباد الله المسلمون ، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا ، وعهد بيننا بين أظهرنا ، فمن لم يرض به فليقول كيف شاء ، فإن الدامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه .

ثم نزل عن المنبر ، فصلى ركعتين ، ثم بعث بهار بن ياسر ، وعبد الرحمن بن حنبل القرظي إلى طلحة والزبير ، وهما في ناحية المسجد ، فأتياهما فدعواهما ، فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام ، فقال لهما : شديكما الله ، هل حثمتاني طائعين للبيعة ، ودعوتاني إليها ، وأنا كلمة لها أقالا : نعم ، فقال : غير محترين ولا مقسورين ، فأسلمتاني بيعتكما وأعطيتاني عهدكما

قالا : نعم ، قال : فادعكما بعدُ إلى ما أرى ؟ قالا : أعطيناك يَمِينًا على ألا تقضى الأمور ولا تقطعها دوننا ؛ وأن نستشيرنا في كل أمر ولا تستبدّ بذلك علينا ، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت ؛ قالت تنقسم القسّم وتقطع الأمر ، وتمضى الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا .

فقال : لقد هَمَمْتُ بِإِيراءِ وأرجائنا كثيرا ؛ فاستغفرا الله بغير لُكْما . ألا تخبراني ، أَدَفَعْتُمَا عن حقٍّ وجب لُكْما فظلمتُمَا إِيَّاهُ ؟ قالا : معاذ الله ! قال : فهل استأثرتُمَا من هذا المال لنفسي بشيء ؟ قالا : معاذ الله ! قال : أفوقع حُكْمًا أو حقًّا لأحد من المسلمين فجعله أَرْضَعْتَ عنه ؟ قالا : معاذ الله ! قال : فما الذي كرهنا من أمرى حقًّا رأيتُمَا خلاي ؟ قالا : خلافك عمر بن الخطاب في القسّم ؛ أنك جعلتَ حقنا في القسّم كحق غيرنا ، وسويتَ بيننا وبين من لا يماناناهما أطاه الله تعالى علينا بأسيافنا ورمحنا ، وأَوْجَعْنَا^(١) عليه محيلاً وأَوْجَلْنَا ، وظهرت عليه دعوتنا ، وأخذناه قسراً قهراً ، يَمِينٌ لَا يَرَى الْإِسْلَامَ إِلَّا كَرهاً . فقال : فأمّا ما ذكرتموه من الاستشارة بكافؤ الله ما كانت لي في الولاية رغبة ؛ وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا ، وَجَعَلْتُمُونِي عَلَيْهَا ؛ تَخَفْتُمْ أَنْ أَرُدَّكُمْ فَتَحْتَلِفُ الْأُمّةُ ، فَمَا أَصْبَحْتُ إِلَى نَظَرْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُتِرَ رُسُولُهُ فَأَمْضَيْتُمَا دَلَالِي عَلَيْهِ وَأَنْبَعْتُمْ ، وَلَمْ أَحْتِجْ إِلَى آرائِكُمْ فِيهِ ؛ وَلَا رَأْيَ عَيْدِكُمْ ، وَلَوْ وَقَعَ حُكْمٌ أَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ بَيَّانُهُ وَلَا فِي السِّمَةِ بَرهانه ، واحتجج إلى المشاورة فيه لشاررتُكمَا فيه ؛ وأما القسّم والأسوة ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكَمْ فِيهِ بِأَدْيٍ بَدَأَ بِهِ أَقْدٌ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِحُكْمٍ بِذَلِكَ ، وَكِتَابُ اللَّهِ مُطَبَّقٌ بِهِ ، وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْبِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : حَمَلَتْ فَيْثُنَا وَمَا أَفَاءَتْهُ سَيُوفُنَا وَرَمَحُنَا ، سِوَاهُ بَيْنِنَا وَبَيْنَ عَيْرِنَا ، صَدِيقًا سَبَقَ إِلَى الْإِسْلَامِ قَوْمٌ وَبَصْرُوهُ بِسَيُوفِهِمْ وَرَمَحِهِمْ ، فَلَمْ يَعْضُلْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي الْقِسْمِ ، وَلَا آثَرَهُمُ بِالسِّنْقِ ، وَلِلَّهِ

(١) مَا أَوْجَعْنَا : مَا أَلَمْنَا .

سبعائه مرفي السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا نفير كما إلا هذا.
أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألمنا وإياكم الصبر. ثم قال : رحم الله امرأ رأى
حقاً فأعان عليه، ورأى جوراً فردّه، وكان عوناً للحق على من خالفه.



قال شيخنا أبو جعفر : وقد روى أسهما قلا له وقت البيعة : نُبأ بك على أنا شركاؤك
في هذا الأمر، فقال لها : لا، ولكنكما شريكاي في الفنى، لا أستأثر عليكما ولا على
عبد حبشي مجذع بدم فادونه، لا أنا ولا ولداي هذان، فإن أيتنا إلا لفظ الشركة،
فأتيا عوثان لي عند السجز والنفقة، لا عند القوة والاستقامة.

قال أبو جعفر : فاشترطاً مالا يجوز في عقد الأمانة، وشرط عليه السلام لها ما يجب
في الدين والشريعة.

قال رحمه الله تعالى : وقد روي أيضاً أن التزيير قال في ملأ من الناس : هذا جزاؤنا من
على أقتنا في أمر عثمان حتى قُتِل، فلما بلغ ما أراد خجل فوقنا من كنا فوقه.
وقال طلحة : ما اللوم إلا علينا، كناسمه أهل الشورى ثلاثة، فسكره أحدنا - يعني
سمدا - وباعناه، فأعطيناه مافي أيدينا، ومنتعنا مافي يده، فأصبحنا قد أخطأنا اليوم
مارجونا ما أمس، ولا مرجو خداماً أخطأنا اليوم.



فإن قلت : فإن أبا بكر قَسَمَ بالسواء، كما قَسَمَ أمير المؤمنين عليه السلام، ولم ينكروا
ذلك، كما أنكروه أيام أمير المؤمنين عليه السلام، فما الفرق بين الحالتين ؟

قلت : إن أبا بكر قَسَمَ محتذياً لقَسَمِ رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما وليَ عمر
الخليفة، وفضل قوماً على قوم ألفوا ذلك، وسُوا تلك القسمة الأولى، وطالت أيام عمر،
(١) د : د محتذياً بالقسم رسول الله .

وأشربت قلوبهم حُبَّ لئال ، وكثرة المعد . وأما الذين اعتصموا قنصوا ومرنوا على القناعة ، ولم يخطر لأحد من القريبين له أن هذه الحال تنقض أو تتميز بوجه ما ، فلما ولي عثمان أجري الأمر على ما كان عمر يجربه ، فارداد وثوق القوم بذلك ، ومن ألف أمراً أشق عليه فراقه ، وتغيير العادة فيه ، فلما ولي أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يرد الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر ، وقد نسي ذلك ورفض وتخلل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة ، فشق ذلك عليهم ، وأنكروه وأكبروه ، حتى حدث ما حدث من نقض البيعة ، ومفارقة الطاعة ، والله أمر هو باله !



(٩٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أما بعد حمد الله ، والثناء عليه ؛ أيها الناس ، فإني فمات عَيْنَ الْفِتْنَةِ ، وَلَمْ
يَسْكُنْ لِيَجْتَرِي عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْبُهَا ، وَاشْتَدَّ كَلْبُهَا .
فَأَسْأَلُوكَ قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَوَالَّذِي مَقَى بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونَنِي عَنْ شَيْءٍ فِيهَا
تَبَيَّنَ لَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ ، وَلَا عَنْ فِتْنَةٍ تَهْدِي بِأَثَرِهَا وَتُضِلُّ بِأَثَرِهَا إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ^(١) بِمَا عَمِلَ
وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا ، وَمُنَاجِ رُكَّابِهَا ، وَتَحَوُّطِ رِجَالِهَا ، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلًا ، وَمَنْ
يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتًا .

وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَفَزَلْتُمْ بِكُمْ كَرَاهِيَةُ الْأُمُورِ ، وَحَوَازِبُ الْغُلُوبِ ، لَا طَرَقَ
كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ ، وَفُتِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْتَوَلِينَ ؛ وَذَلِكَ إِذَا قَلَصَتْ حَزْبُكُمْ ،
وَشَمَرَتْ عَنْ سَاقٍ ؛ وَكَانَتْ الدُّنْيَا عَنْكُمْ صِيفًا ، تَسْتَطِيعُونَ أَيَّامَ الْبَلَاءِ عَلَيْكُمْ ،
حَقٌّ يَفْتَحُ اللَّهُ لِبَقِيَّةِ الْأَبْرَارِ مِنْكُمْ

إِنَّ الْعَيْنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبِهَتْ ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَهَتْ ؛ يُنْكَرُنَ مُقْبِلَاتٍ ، وَيُعرفُنَ
مُذْبِرَاتٍ ، يَحْمُنُ حَوْمَ الرِّيَاحِ بَصِيرَتُهَا ، وَيُخْطِئُ نَدَا .
أَلَا وَإِنْ أَخَوْفَ الْعَيْنِ مِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَيْ أُمَّيَّةَ ؛ فَإِنَّهَا فِتْنَةُ عَمِيَاءَ مُطَالِيَةٍ
عَمَتْ خُطْبَتُهَا ، وَخَصَّتْ بِلَيْثِهَا ، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَنْصَرَ فِيهَا ، وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ
عَمِيَ عَنْهَا .

وَأَنْتُمْ أَهْلُ لَتَجِدُنَّ بَيْ أُمَّيَّةَ لَكُمْ أَرْيَابَ سُوهِ بَعْدِي كَالثَّابِ الْأَصْرُوسِ ، تَعْدِمُ

يُخَيِّبُهَا ، وَتَخْطِطُ يَدَيْهَا ، وَتَزِينُ بِرِجَالِهَا ، وَتَمْتَعُ دَرَّهَا ، لَا يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّى لَا يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلَّا نَافِعًا لَهُمْ ؛ أَوْ غَيْرَ مَآثِرٍ مِنْهُمْ .

وَلَا يَزَالُ بَلَاؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ أَنْصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلَ أَنْصَارِ الْمُبْدِيِّينَ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَالصَّاحِبِ مِنْ مُنْتَضِعِيهِ ، تَرِدُ عَلَيْهِمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاً غَشِيَةً ، وَقِطْعًا جَاهِلِيَّةً ، لَيْسَ فِيهَا مَنَارٌ هُدًى ، وَلَا عِلْمٌ يُرَى ، تَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بِدَعَاةٍ ، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللَّهُ عَنْكُمْ كَفَرِيجِ الْأَدِيمِ ، يَمُنُّ بِسُوءِهِمْ خَسْفًا ، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفًا ، وَبَسَاقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لَا يُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ ، وَلَا يُخْلِسُهُمْ إِلَّا الْخُلُوفَ ، فَمِنْ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ بِالْهَيْبَةِ مَا فِيهَا لَوْ بَرَوْنِي مَقَامًا وَاحِدًا ، وَلَوْ قَدَرُ جَزْرِ جُزُورٍ ؛ لِأَقْلٍ مِنْهُمْ مَا أُطْلِبُ الْيَوْمَ بَقِيَّةُ فَلَا يُعْطُونَكَ .



الْبَيْتُ

فَقَاتُ عَيْتِهِ ، أَيْ عَقَبَتُهَا ، وَتَدَقَّاتِ السَّحَابَةِ عَنْ مَائِهَا : تَشَقَّقَتْ ، وَتَدَقَّاتِ الدَّمَلِ وَالْقُرْحِ ، وَمَعْنَى فَقَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ ، بِإِقْدَامِهِ عَلَيْهَا حَتَّى أَطْلَعَ بَارَهَا ، كَأَنَّهُ جَعَلَ لِفِتْنَةٍ عَيْنًا مَحْدُودَةً يَهَيِّئُهَا النَّاسُ ، فَأَقْدَمَ هُوَ عَلَيْهَا ، فَفَقَاتُ عَيْتِهَا ، فَسَكَتَ دَمْدَمُ حُرُوكِهَا وَهَيْبَتِهَا . وَهَذَا مِنْ بَابِ الْاسْتِمَارَةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : « وَلَمْ يَكُنْ لِيَحْتَرِي » عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ كَانُوا يَهَيِّئُونَ قِتَالَ أَهْلِ الْقُبْلَةِ ، وَلَا يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَفَاتُلُوهُمْ ، هَلْ يَقْبَلُونَ مَوْلَاهُمْ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ يُحْزِرُونَ عَلَى جَرِيحِهِمْ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ يَقْبَلُونَ فِيهِمْ أَمْ لَا ؟ وَكَمَا وَاسْتَعْمَلُوا أَيْضًا حُرْبَ عَائِشَةَ وَحُرْبَ طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرَ ، لِمَسْكَنِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ ، وَتَوَقَّفَ جَمَاعَتُهُمْ عَنِ الدَّخُولِ فِي تِلْكَ الْحَرْبِ ، كَالْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ وَغَيْرِهِ ، فَلَوْلَا أَنَّ عَلِيًّا اجْتَرَأَ عَلَى سَلِّ السَّيْفِ فِيهَا مَا أَقْدَمَ أَحَدٌ عَلَيْهَا ، حَقٌّ

الحسن عليه السلام ابته ، أشار عليه ألا يبرح عَرَصَةَ المدينة ، ونهاه عن السير إلى البصرة ، حتى قال له منكراً عليه إنكاره : « ولا تزال نخين خنين الأمة ! » وقد روى ابن هلال صاحب كتاب " العارات " أنه كلم أباه في قتال أهل البصرة بكلام أغضبه ، فرماه بببضة حديد عقرت ساقه ، فموج منها شهرين .

والغيب : الظلة ، والجمع غياهب . وإني قال : « بعد ما ماج غيبها » ، لأنه أراد : بعد ما عمّ ضلالها فشمّل ، فكنى عن الضلال بالغيب ، وكنى عن التعموم والشمول بالتموج ، لأن الظلة إذا تموجت شملت أما كن كثيرة غير الأما كن التي تملأها لو كانت ساكنة . واشتدّ كذبها ، أي شرّها وأذاها . ويقال لقطع الشريد : كلب ، وكذلك لقر الشريد .

ثم قال عليه السلام : « سكوني قبل أن تنقلوني » ، روى صاحب كتاب " الاستيعاب " وهو أبو عمر محمد بن عبد الله عن جماعة من الرواة والمحدثين ، قالوا : لم يقل أحد من الصحابة رضي الله عنهم : « سكوني » إلا علي بن أبي طالب . وروى شيخنا أبو جعفر الإسكافي في كتاب " قصص العنانية " عن علي بن الجعد ، عن ابن شبرمة ، قال : ليس لأحد من الناس أن يقول علي المنبر : « سكوني » إلا علي بن أبي طالب عليه السلام . والفتنة : الطائفة ؛ والماء عوض من « الباء » التي نقصت من وسطه ، وأصله « في » مثال « فيع » لأنه من فاء ، ويجمع على فتات ؛ مثل شيات وهبات وليدات .

وناعقها : الداعي إليها ، من نعى للرأي بضمه ، وهو صوته نعى يعق بالكسر نعيقا ونعاقا ، أي صاح بها وزجرها . قال الأخطل :

فانقُ بضأنك يا جبرير فإني متتكَ نفسك في الخلاء ضلالاً^(١)

فأما الغراب ، فيقال : نَفَقَ ، بالنين للمعجمة ينفق بالكسر أيضا ، وحكى ابن جيسان « نَفَقَ الغراب » أيضا بعين غير معجمة .

والركاب : الإبل ، واحداً راحلة ، ولا واحداً لها من لفظها ، وجمعها رُكَبٌ ، مثل كَقَاب وكتب . ويقال : زَيْتُ رَكَابِي ، لأنه يحمل من الشام عليها .

والمَنَاح ، نضم الميم ، وتَحَطَّ بفتحها ، يجوز أن يكونا مصدرين ، وأن يكونا مكانين ، أما كونُ المَنَاح مصدراً ، فلا لأنه كالمقام الذي معنى الإقامة ، وأما كون المَحَطَّ مصدراً فلا لأنه كالرد في قوله سبحانه : ﴿ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ (١) ، وأما كونها موضعين فلا لأن المَنَاح من انحط الجبل ، لا من ناخ الجبل ، لأنه لم يأت ، والفعل إذا جاوز الثلاثة فالوضع منه يأتي مضموم الميم ، لأنه مشبه بينات الأربعة ، نحو دحرج ، وهذا مُدَحرجنا ، ومن قال : هذا مُقام بنى فلان ، أى موضع مقامهم جَمَعَهُ كما جعلناه نحن ، من أقام بقيم ، لا من قام يقوم ، وأما الحَطَّ ، فإنه كالمقتل موضع القتل ، يقال : مَقَتَلَ الرَّجُلُ بَيْنَ فُكَيْهِ ، ويقال للأعضاء التي إذا أصيب الإنسان فيها هلك : مَقَاتِلٌ ، ووجه اللفظة كونها مضمومة العين .



[فصل في ذكر أمور غيبية ؛ أخبر بها الإمام ثم تحققت]

واعلم أنه عليه السلام قد أقسم في هذا الفصل بألفه الذي نفسه بيده ، أنهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلا أخبرهم به ، وأنه ما صحَّ من طائفة من الناس يهتدى بها مائة وتصل بها مائة ، إلا وهو مخبرٌ لهم - إن سألوه - برعاتها وقائدها وسائطها ومواضع نزول ركابها وخيولها ، ومن يقتل منها قتلاً ، ومن يموت منها موتاً ، وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادعاء الرئوسية ، ولا ادعاء النبوة ، واسكنه كان يقول : إن رسول الله صلى

الله عليه وآله أخبره بذلك ، ولقد امتحننا إخباره فوجدناه موافقا ، فاستدلنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة ، وإخباره عن الصلبة يُصرب بها في رأسه فتخضب لحيته ، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام ، وما قاله في كربلاء حيث مرت بها ، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده ، وإخباره عن الحجاج ، وعن يوسف بن عمر ، وما أخبر به من أمر الخوارج بالسهرجان ، وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم ، وصُلب من يُصَلَّب ، وإخباره بقتل الناكثين والقاسطين والمارقين ، وإخباره بمدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شحّص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها ، وإخباره عن عبدالله بن الزبير ، وقوله فيه : « حبّ صبي ، يروم أمرا ولا يدركه ، ينصب حباله الدين لاصطياد الدنيا ، وهو مدمن مصلوب قريش » . وإخباره عن هلاك البصرة بالفرق ، وهلاكها نارة أخرى بالريح ، وهو الذي صحّبه قوم فقالوا : بالريح ، وإخباره عن ظهور الرايات السوداء من خراسان ، ونصيبه على قوم من أهلها يعرفون سبي رزيق - بتقديم المهمة - وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين ووالدهما إسحاق بن إبراهيم ، وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية ، وإخباره عن الأئمة فُتِّدِين ظهوروا من ولده تطهيرستان ، كالناصر والدايم وغيرها ، في قوله عليه السلام : « وإن لآل محمد بالطائفتين لكرا سيظهره الله إذا شاء دعاؤه حق يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله » ، وإخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة ، وقوله : « إنه يقتل عند أحجار الرب » ، وكفوله عن أخيه إبراهيم القتل بباب حمزة : « يقتل بعد أن يظهر ويظهر بعد أن يظهر » ، وقوله فيه أيضا : « يأتيه سهم عرب ^(١) يكون فيه منيته فيأثر سائر أعيان شلت يده ، ووهن عضده » ، وإخباره عن قتل وُجّ ، وقوله فيهم : « هم خير أهل الأرض » . وإخباره عن الملكة الأموية بالعرب ، ونصريحه بذكر كتامة ، وهم الذين نصرروا أبا عبد الله الداعي الملقب . وكفوله وهو يشير إلى أبي عبد الله المهدي : وهو أولهم ثم يظهر

(١) سهم عرب ؛ أي لا يدري رايه

صاحب القيروان النضر البض ، ذو النسب المحض ، المتعجب من سلافة ذي الهداء ، المسجى بالرداء ، وكان عبيد الله لهدي أبيض^(١) مرقاً مشرباً بحمرة ، رخمس البدن ، تار^(٢) الأطراف .
وفو الهداء إسماعيل بن جعفر بن محمد عليهما السلام ، وهو المسجى بالرداء ، لأن أباه أبا عبد الله جعفر أَسْبَاهُ بردائه لما مات ، وأدخل إليه وجوه الشيعة يشاهدونه ، ليمدوا موته ، وتزول عنهم الشبهة في أمره .

وكأخباره عن بني بويه وقوله فيهم : « ويخرج من ديلمان بنو الصياد » ، إشارة إليهم .
وكان أبوم صياد السمك يصيد منه يده ما يتقوت هو وعياله بشئ ، فأخرج الله تعالى من ولده لصنمه ملوكاً ثلاثة ، ونشر ذريتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم . وكقوله عليه السلام فيهم : « ثم يستشري أمرهم حتى يملكوا الروراء » ، ويحملوا الخلفاء . فقال له قائل : فكيف مدتهم يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « مائة أو تزيد قليلاً » . وكقوله فيهم : « والذرف أن الأجدم ، يقتله ابن عمه على دجلة » ، وهو إشارة إلى عز الدولة بمختيار بن معز الدولة أبي الحسين ، وكان معز الدولة أقطع ألب ، قطعت يده لفسكوس في الحرب ، وكان ابنه عز الدولة بمختيار مترقياً ، صاحب لمو وشرب ، وقتله عمه الدولة فناخسرو ، ابن عمه بقصر الجبل على دجلة في الحرب ، وسلبه ملكه . فأما خلعهم للخلفاء فإن معز الدولة خلع المسكني ، ورتب عوضه للطبع ، وبهاء الدولة أبا نصر بن عمدة الدولة خلع الطائع ورتب عوضه القادر ، وكانت مدة ملكهم كما أخبره عليه السلام .

وكأخباره عليه السلام لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الأمر إلى أولاده ، فإن علي بن عبد الله لما ولد ، أخرجه أبوه عبد الله إلى علي عليه السلام ، فأخذه وتقل في فيه

(١) ساقطة من ب .

(٢) التار : الدتلى جسمه ومطيه رها .

وَحَتَكَ بِحِصَّةٍ قَدْ لَا كُفَا، وَدَفَعَهُ إِلَيْهِ، وَقَالَ : خُذْ إِلَيْكَ أَمَا الْأَمْلَكَ . هَكَذَا الرَّوَايَةُ
الصَّحِيحَةُ ، وَهِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو الْعَبَّاسِ لِلْبَزْدِ فِي كِتَابِ " الْكَامِلِ " (١) ، وَلَيْسَتْ
الرَّوَايَةُ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا الْمَدَدُ بِصَحِيحَةٍ وَلَا مُنْقُولَةً مِنْ كِتَابٍ مُعْتَمَدٍ عَلَيْهِ .

وَكَمْ لَهُ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنِ النُّيُوبِ الْجَارِيَةِ هَذَا الْجُرَى ، بِنِهَا لَوْ أَرَدْنَا اسْتِقْصَاءَهُ لَكُسِرْنَا لَهُ
كَرَارِيسَ كَثِيرَةً ، وَكُتِبَ الْبَرُّ نَشْتَمِلُ عَلَيْهَا مُشْرُوحَةً .

فَإِنْ قُلْتُ : لِمَاذَا غَلَا النَّاسُ فِي أَمْرِ التَّوَمُّنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَادَّعَوْا فِيهِ الْإِلَهِيَّةَ الْإِخْبَارَهُ
عَنِ النُّيُوبِ الَّتِي شَهِدُوا صِدْقَهَا عَيْنَانًا ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَيَدَّعَوْا لَهُ
الْإِلَهِيَّةَ ، وَأَخْبَارَهُ عَنِ النُّيُوبِ الصَّادِقَةِ قَدْ سَمِعُوهَا وَعَلِمُوهَا بِقِينَا ، وَهُوَ كَانَ أَوَّلَى بِفَلَكَ ، لِأَنَّهُ
الْأَصْلُ الْمُنْبُوعُ ، وَمُعْجَزَاتُهُ أَعْظَمُ ، وَأَخْبَارُهُ عَنِ النُّيُوبِ أَكْثَرُ ؟

قُلْتُ : إِنَّ الَّذِينَ صَعَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَشَهِدُوا بِمُعْجَزَاتِهِ ، وَسَمِعُوا
إِخْبَارَهُ عَنِ النُّيُوبِ الصَّادِقَةِ عَيْنَانًا ، كَانُوا أَشَدَّ آرَاءَ ، وَأَعْظَمَ أَحْلَامًا ، وَأَوْفَرَ عَقُولًا مِنْ
تِلْكَ الطَّائِفَةِ الضَّعِيفَةِ الْعَقُولِ ، الضَّعِيفَةِ الْأَحْلَامِ ، الَّذِينَ رَأَوْا أَمِيرَ التَّوَمُّنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ
أَيَّامِهِ ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ وَأَصْعَابِهِ ، فَزَاهِمَ كَانُوا مِنْ رَكَاكَةِ الْبَصَائِرِ وَضَعْفِهَا عَلَى حَالِ
مَشْهُورَةٍ ، فَلَا عَجَبَ عَنْ مِثْلِهِمْ أَنْ تَنْخَفِضَ الْمُعْجَزَاتُ ، فَيَتَقَدَّرُوا فِي صَاحِبِهَا أَنَّ الْجَوْهَرَ
الْإِلَهِيَّ قَدْ حَلَّ ، لَا عِتْقَادَ لَهُمْ أَنَّهُ لَا يَصْحَحُ مِنَ الْبَشَرِ هَذَا إِلَّا بِالْخُلُولِ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ جَمَاعَةً
مِنْ هَؤُلَاءِ كَانُوا مِنْ نَسْلِ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ ، وَقَدْ كَانُوا سَمِعُوا مِنْ آبَائِهِمْ وَسَلَفِهِمْ الْقَوْلَ
بِالْخُلُولِ فِي أَنْبِيَائِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ ، فَاعْتَقَدُوا فِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِثْلَ ذَلِكَ . وَبِمُحُورَانِ يَكُونُ أَصْلُ
هَذِهِ الْمَقَالَةِ مِنْ قَوْمٍ مُنْعَدِّينَ أَرَادُوا إِدْخَالَ الْإِلْحَادِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ، فَذَهَبُوا إِلَى ذَلِكَ ،
وَلَوْ كَانُوا فِي أَيَّامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالُوا فِيهِ مِثْلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ ، إِضْلَالًا لِأَهْلِ

الإسلام ، وقصداً لإيقاع الشبهة في قلوبهم ، ولم يكن في الصعابة^(١) مثل هؤلاء ، ولكن قد كان فيهم مناقون وزنادقة ، ولم يهتدوا إلى هذه الفتنة ، ولا خطر لهم مثل هذه المكيدة .

ومما يفتدح لي من الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين حاصروا رسول الله صلى الله عليه وآله ، أن هؤلاء من العراق وسكنى الكوفة ، وطينة العراق مازالت تنبت أرباباً الأهواء وأصحاب النحل المعجبية والمذاهب البديعة ، وأهل هذا الإقليم أهل بصيرة وتدقيق ونظر ، ويبحث عن الآراء والمقائيد ، وشبه معترضة في المذاهب ، وقد كان منهم في أيام الأكلاسة مثل ماني وديسان ومزدكثوغيرم ، وليست طينة الحجاز هذه الطينة ، ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان ، والغالب على أهل الحجاز الجفاء والتجرفية وخشونة الطبع ، ومن سكن المدن منهم كأهل مكة والمدينة والطائف حكماءهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة ، ولم يكن فيهم من قبل حكيم ولا فيلسوف ولا صاحب نظر وجدل ، ولا موقع شبهة ، ولا مبتدع بحيلة ، ولهذا نجد مقالة الملاء طارئة وناشئة من حيث سكن على عليه السلام بالعراق والكوفة ، لافي أيام مقامه بالمدينة ، وهي أكثر حمرة .
فهذا ملاح لي من الفرق بين الرجلين في المعنى المتقدم ذكره .



فإن قلت : لماذا قال من فئة تهدي مائة ؟ وما فائدة التقييد بهذا العدد ؟ قلت : لأن مادون المائة حقير تافه لا يستدبره ليذكر ويخبر عنه ، فكأنه قال : مائة فصاعداً .

قوله عليه السلام : « كراهة الأمور » جمع كراهية وهي الشدة في الحرب . وحوازب الخطوب : جمع حازب ، وحزبه الأمر ، أي دمه .

(١) كذا في أ ، ب ، ج ، و « أصعابه » .

وفشل : جبن ؛ فإن قلت : أما فشل المستول فمعلوم ، فما الوجه في إطراق السائل ؟
قلت : لشدة الأمر وصعوبته ، حتى إن السائل ليبت ويذهش فيطرق ،
ولا يستطيع السؤال .

قوله عليه السلام : « إذا قلّصت حربكم » يروى بالتشديد وبالتخفيف ، ويروى : « عن حربكم » ، فمن رواه مشدداً أراد انضمت واجتمعت ، وذلك لأنه يكون أشد لها وأصعب من أن تفرق في مواطن متباعدة ، ألا ترى أن الجيوش إذا اجتمعت كلها واصطدم الفيلقان ، كان الأمر أصعب وأظلم من أن تكون كل كتيبة من تلك الجيوش تحارب ككتيبة أخرى في بلاد متفرقة متباعدة ، وذلك لأن اصطدام الفيلقين بأجمعها هو الاستئصال الذي لا شوى ^(١) له ولا بقياً بعده . ومن رواها بالتخفيف أراد كثرت وتزايدت ، من قولهم : قلّصت البئر ، أي ارتفع ماؤها إلى رأسها ^(٢) ، وهو ما قاله قليس ، ومن روى : « إذا قلّصت من حربكم » أراد إذا قلّصت كراته الأمور وحوارب المطوب عن حربكم ، أي اسكفت عنها ، والمصارع من قلّص بغير ، بالكسر .

قوله : « وشمرت عن ساق » ، استعارة وكناية ، يقال لهجاذ في أمره : قد شمر عن ساق ، وذلك لأن سبوع الذيل منقّرة ويمكن أن يجرى اللفظ على حقيقته ، وذلك أن قوله تعالى : « ^(٣) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » ^(٤) فسروه فقالوا : الساق : الشدة ، فيكون قد أراد بقوله : « وشمرت عن ساق » ، أي كشفت عن شدة ومشقة .

ثم قال : « تستطيلون أيام البلاء » ، وذلك لأن أيام البؤس طويلة ، قال الشاعر :

(١) لا شوى له ؛ أي لا إغا له ؛ قال الفحيت :

أَجِيبُوا رُقَى الْأَمْسِ النَّطَائِيَّ وَأَحْذَرُوا مَطْلَعَةَ الرَّضَمِ الَّتِي لَا شَوَى لَهَا

(٢) سورة القلم ٤٧ .

فأيام المموم مقصصات وأيام السرور تطير طيرا
وقال أبو تمام :

ثم انتبرت أيام هجر أردفت بحوى أسي فكأنها أعوام^(١)
قوله عليه السلام : « إن الفتن إذا أقبلت شبهت » ، معناه أن الفتن عند إقبالها واجتداء
حدوثها ، يلتبس أمرها ولا يعلم الحق منها من الباطل ، إلى أن تنقضي وتدبر ، حينئذ
يكشف حالها ، ويعلم ما كان مشتبها منها ثم أكد عليه السلام هذا المعنى بقوله :
« ينكرن مقبلات ، ويعرفن مدرات » ، ومثال ذلك فتنة الجمل ، وفتنة الخوارج ، كان
كثير من الناس فيها في مبدأ الأمر متوقفين ، واشتبه عليهم الحال ، ولم يملوا موضع الحق
إلى أن انقضت الفتنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وإن لم صاحب الضلالة من
صاحب الهداية .

ثم وصف الفتن ، فقال : إنها تموم حوم الرياح ، بصين بلاد ، ويخطئن بلاد . حام
الطائر وغيره حول الشيء ، يحوم حوماً وحوماً ، أى دار .

ثم ذكر أن أخوف ما يحف عليهم فتنة نبي أمية . ومعنى قوله « عمت حطبا ،
وحصت بليتها » ، أنها عمت الناس كافين حيث كانت رئاسة شاملة لكل أحد ، ولكن
حظ أهل البيت عليهم السلام وشيئهم من بليتها أعظم ، وصيبهم فيها أوفر .

ومعنى قوله : « وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطأ البلاء من عى عنها » ، أن
العالم بارتكابهم المنكر مأثوم إذ لم ينكر ، والجاهل بالإثم عليه إذا لم ينههم عن
المنكر ، لأن من لا يعلم المنكر منكرا لا يدره إنكاره ، ولا يعنى بالمنكر هاهنا

ما كان منكرا من الاعتقادات ، ولا ما يتعلق بالأمانة ، بل الزنا وشرب الخمر ونحوهما من
الأفعال القبيحة .

فإن قلت : أى فرق بين الأمرين ؟

قلت : لأن تلك يلحق الإثم من لا يعلما إذا كان متمكنا من العلم بها ، وهذه لا يجب
إنكارها إلا مع العلم بها ، ومن لا يعلما لا يلحقه الإثم إذا كان متمكنا من العلم بها ،
فافترق للموضوعان .

ثم أقسم عليه السلام فقال : « وإيم الله » ، وأصله هو إيمان الله ، واحتلف النحويون
في هذه الكلمة فشد الأكثرين منهم أن ألفها ألف وصل ، وأن « إيمان » اسم وضع
للقسم هكذا بألف وصل ، وبضم الليم والنون ، قالوا : ولم يأت في الأسماء ألف وصل مفتوحة
غيرها ، وتدحل عليها اللام لتأكيدهم الابتداء ، فتقول : لِيَمِّنَ الله فتذهب الألف ؛
قال الشاعر :

قال فريق القوم لما شددتهم ^(١) اسم ، وفريق لِيَمِّنَ الله مانديري

وهذا الاسم مرفوع بالابتداء وخبره محذوف ، والتقدير لِيَمِّنَ الله قسى ؛ فإذا خاطبت
قلت « لِيَمِّنَكَ » ؛ وفي حديث عروة بن الزبير : « لِيَمِّنُكَ إِنْ كُنْتَ ابْتَلَيْتَ » ، لقد طافيت ،
والن كنت أخذت لقد بقيت ^(٢) . ونحذف نونه فيصير « إيم الله » بألف وصل مفتوحة
وقد تكسر ، وربما حذفوا الياء ، فقالوا : « ام الله » ؛ وربما أبجوا الليم وحدها مضومة ،
فقالوا : « م الله » ، وقد يكسرونها لما صارت حرفا شبهوها بالياء ؛ وربما قالوا « مَن الله »
بضم الليم والنون : « ومن الله » بكسرها : « ومن الله » بفتحها ، وذهب أبو عبيد
وابن كيسان وابن درستويه إلى أن « إيمان » جمع إيمان ، والألف حمزة قطع ، وإنما خفت

(١) اللسان ٧ : ٣٥٤ ؛ وله إلى نصيب من ١٧٨ .

(٢) النهاية لابن الأثير ٤ : ٢٦٨ .

وطرحت في الوصل لكثرة الاستعمال ، قالوا : وكانت العرب تحلف باليمين فتقول : يمين الله لا أفضل ، قال امرؤ القيس :

فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحُ فَاعْلَمُوا
وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي^(١)

قالوا : واليمين تجمع على « أيمين » ، قال زهير :

فَتَجْتَعُ أَيْمُنٌ مِنَّا وَمِنْكُمْ بِمَقَسَةٍ تَمُورُ بِهَا الدُّمَاءُ^(٢)

ثم حلفوا به ، فقالوا : أيمين الله ؛ ثم كثرت في كلامهم وخف على ألسنتهم ؛ حتى حذفوا منه النون كما حذفوا في قوله « لم يكن » فقالوا « لم بك » . فاقسم عليه السلام لأصحابه أنهم سيجدون بنى أمية بعده لم أرباب سوء ، وصدق صلوات الله عليه فيما قال ، فلما هم سامعون سوء العذاب قتلاً وصلباً ، وحسباً ونشيداً في البلاد .

ثم شبه بنى أمية بالناب الضروس ، والناب : الناقة للثقة ، والجمع نيب ؛ تقول : لا أصله ما حثت النيب ، والضروس : البيئة الخلق بمعنى حالها .

وتعذر فيها : تكدم ، والمكدم : الأكل بجفاء ، وفرس عذوم : بعض بأسفانه . والزبن : الدفع ؛ زبنت الناقة تزبن ، إذا ضربت بثفتها عند الخلب ، تدفع الخالب عنها . والدر : اللبن ، وفي اللؤلؤ : « لا حذر دَرُه » الأصل « لبته » ، ثم قيل لكل خير ، وناقلة درور ، أى كثيرة اللبن .

ثم قال : لا يزالون بكم قتلاً وإفناء لكم حتى لا يتركوا منكم إلا من ينفعهم إبقاؤه ، أولا يضرهم ولا ينفعهم ، قال : حتى يكون انتصار أحدكم منهم كانتصار العبد من مولاه ، أى لا انتصار لكم منهم ، لأن العبد لا ينتصر من مولاه أبداً . وقد جاء في كلامه عليه

(١) ديوانه ٣٥ .

(٢) ديوانه ٧٨ مقسة : موضع الحلف عند الأسماء ؛ وقال بعضهم : مكة ؛ لأنها تنصر بها اليمن وتمور بها الحماء . وتمور : تليل (من شرح الديوان) .

السلام في غير هذا الوضع تمة هذا للمنى : « إن حضر أطاعه ، وإن غاب سبّعه » ، أى
تلبه وشتمه ، وهذه أمانة القل ، كما قال أبو الطيب :

أبذر فيسجد من بالسوء بذكرنى ولا أمانيه صفحا وإهوانا^(١)
وهكذا كنت في أهلى وفي وطنى إن النفيس نفيس أينما كانا

قال عليه السلام : « والصاحب من مستصحبه » ، أى والتابع من متبوعه .

والشوة : جمع شوها ، وهى القبيحة الوجه ، شامت الوجوه شوه شوها^(٢) ، قُبِحت ،
وشوته الله فهو مشوه ، وهى شوها ، ولا يقال للذكر : أشوه . ومخشية : مخوفة .

وقطعا جاهلية ، شبهها بقطع السحاب لثرا كها على الناس ، وجعلها جاهلية لأنها
كأفعال الجاهلية الذين لم يكن لهم دين يردعهم ، ويروى : « شوها » و « قطعا » ، أى
نكراء ، كالقطوعة اليد .

قوله : « نحن أهل البيت منها بمنجاة » ، أى بمنزل ، والنجاة والنجوة : المكان المرتفع
الذى تظن أنه نجاك ، ولا يملوه السيل . ولنا فيها بدعة ، أى لنا من أنصار تلك
الدعوة . وه أهل البيت « منصوب على الاختصاص ، كقولهم : نحن معشر العرب فعل
كذا ، ونحن آل فلان كرماء .

قوله : « كتفريج الأديم » : الأديم الجلد ، وجهه أديم مثل أفق وأفق ؛ ويجمع أيضا
على « أدمة » ، كرخيف وأرغفه ، وجه التشبيه أن الجلد يتكشف عما تحته ، فوعدهم
عليه السلام بأن الله تعالى يكشف تلك النماء كانكشف الجلد عن اللحم ، بمن يسومهم
خسفا ، ويوليهم ذلا .

(١) ديوانه ٤ : ٢٢٣ .

(٢) ساطعة من ب .

والعنقب ، بالضم : ضد الرفق . وكأس مصبرة ممزوجة بالصبر لهذا المرء ؛ ويجوز أن يكون « مصبرة » مملوءة إلى أصبارها ؛ وهي جوانبها ، وفي الثلث : « أخذها بأصبارها » أى تامة ، الواحد صبر ، بالضم .
ومخدسهم : يلبسهم ، أحلست البعير أبسته الخيل ؛ وهو كساء رقيق يكون تحت البرذعة ، يقال : له مجلس وحلّس ؛ مثل شبه وشبهه .
والجزور من الإبل : يقع على الذكر والأنثى ، وحزرها : ذنبها .

وهذا الكلام إخبار عن ظهور السوداء ، وأعرض ملك بن أمية . ووقع الأمر بموجب إخباره صلوات الله عليه ؛ حتى لقد صدق قوله : « لقد تودّ قريش . . » الكلام إلى آخره ، فإن أرباب السير كلهم نقلوا أن مروان بن محمد قال يوم الزاب لما شاهد عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العباس بإزائه في صفّة خراسان : لوددت أن عليّ بن أبي طالب تحت هذه الراية بدلا من هذا الفق ؛ والقصة طويلة وهي مشهورة^(١) .
وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السير ، وهي متداولة منقولة مستفيضة ، خطب بها عليّ عليه السلام بعد انقضاء أمر التبريد ، وفيها ألفاظ لم يوردها الرضى رحمه الله ، من ذلك قوله عليه السلام : « ولم يكن ليجتري عليها غيري ، ولو لم أكن فيكم ما قوتل أصحاب الجمل والتبريد . وإيم الله لولا أن تشكّلوا فتدعوا العمل لحدّثتكم عما قضى الله عز وجلّ على لسان نبيكم صلى الله عليه وآله : لئن قاتلهم مبصرأ لفضلاتهم ، عارفا بالهدى الذي نحن عليه ، ملونى قبل أن تفقدوني ، فإنّ ميت عن قريب أو مقتول ، بل قتلا ما ينظر أشقاها أن يحنّس هذه بدم » . وضرب يده إلى خيته .

(١) تفصيل حوادثها في الكامل لابن الأثير ٤ : ٣٢٧ - ٣٣١ .

ومنها في ذكر بني أمية : « يظهر أهل باطلها على أهل حقها ، حتى تُغلب الأرض
عدوئها وظلما ويدعوا إلى أن يضع الله عز وجل جيروتها ، وبكسر عمدها ، وينزع
أوتادها . إلا وإنكم مدركوها فانصروا قومًا كانوا أصحاب رايات بدر وحنين ؛ تؤجروا ،
ولا تمأثروا عليهم عدوهم ، فتصرصكم البلية ، ونحل بكم النقرة » .

ومنها : « إلا مثل انحصار العبد من مولاه إذا رآه أطاعه ، وإن توارى عنه شتمه .
وأيُّ الله لو فرق قوكم تحت كل حجر ؛ لجمعكم الله لشر يوم لم » .

ومنها : « فانظروا أهل بيت نبيكم ، فإن تبدوا فالبسوا ، وإن استصروكم فانصروهم ،
فليفرجن الله العتنة برجل منا أهل البيت ، بأبي ابن خيرة الإمام ؛ لا يسطيهم إلا السيف ،
هزجًا هرجا ، موضوعا على عاتقه ثمانية أشهر ؛ حتى تقول قريش : لو كان هذا من ولد
فاطمة لرحمنا ، بفرية الله بيني أمية حتى يجعلهم حطاما ورفاتا ، ملعونين أيما تقفوا أخذوا
وقتلوا تقتيلا . سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن يجد لسنة الله تبديلا » .

فإن قيل : لماذا قال : « ولو لم أكن فيكم لما قوتل أهل الجبل وأهل النهروان » ؛ ولم
يذكر صفين ؟ قيل : لأن الشبهة كانت في أهل الجبل وأهل النهروان ظاهرة الالتباس ،
لأن الزبير وطلحة مؤعدان بالخفة ، وعائشة موعودة أن تكون زوجة رسول الله صلى الله
عليه وآله في الآخرة ؛ كما هي زوجته في الدنيا ، وحال طلحة والزبير في السبق والجهاد
والهجرة معلومة ، وحال عائشة في محبة الرسول صلى الله عليه وآله لها وثقائه عليها ونزول
القرآن فيها معلومة ؛ وأما أهل النهروان فكانوا أهل قرآن وعبادة واجتهاد ؛ وهزوف عن
الدنيا وإقبال على أمور الآخرة ، وهم كانوا قراء أهل العراق وزهادهم ؛ وأما معاوية
فكان فاسقا ، مشهورا بقلّة الدين والانحراف عن الإسلام ؛ وكذلك ناصره ومظاهره على
أمره عمرو بن العاص ؛ ومن اتبعهما من طعام أهل الشام وأجلافهم وجها الأعراب ، فلم
يكن أمرهم خافيا في جواز محاربتهم واستحلال قتالهم ؛ بخلاف حال من تقدم ذكره .

فإن قيل : ومن هذا الرجل للهود به الذي قال عليه السلام عنه : « بأبي ابن خيرة الإمام » ؟ قيل : أما الإمامية فيزعمون أنه إمامهم الثاني عشر ، وأنه ابن أمة اسمها نرجس ، وأما أصحابنا فيزعمون أنه فاطمي يولد في مستقبل الزمان ، لأمة ولد ، وليس بموجود الآن .

فإن قيل : فمن يكون من بني أمية في ذلك الوقت موجوداً ، حتى يقول عليه السلام في أمرهم ما قال من انتقام هذا الرجل منهم ، حتى يودوا لو أن علياً عليه السلام ، كان للتولي لأمرهم عوضاً عنه ؟

قيل : أما الإمامية فيقولون بالرجعة ، ويزعمون أنه سيهاد قوم بأعيانهم من بني أمية وغيرهم ، إذا ظهر إمامهم المنتظر ، وأنهم يقطع أيدي أقوام وأرجلهم ، ويسئل عيون بعضهم ، ويصلب قوماً آخرين ، وينتقم من أعداء آل محمد عليه السلام المتقدمين والمتأخرين . وأما أصحابنا فيزعمون أنه سيخلق الله تعالى في آخر الزمان رجلاً من ولد فاطمة عليها السلام ليس بموجود الآن ، وأنه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، وينتقم من الظالمين وينكّل بهم أشد النكال ، وأنه لأمة ولد ، كما قد ورد في هذا الأثر وفي غيره من الآثار ، وأن اسمه محمد ، كاسم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه إنما يظهر بعد أن يستولي على كثير من الإسلام ملك من أعقاب بني أمية ، وهو السفيناني الموعود به في الخبر الصحيح ، من ولد أبي سفیان بن حرب بن أمية ، وأن الإمام الفاطمي يقتله ويقتل أشياعه من بني أمية وغيرهم ، وحينئذ يزل للسيح عليه السلام من السماء ، وتبدو أشراف الساعة ، وتظهر دابة الأرض ، ويبطل التكليف ، ويتحقق قيام الأجساد عند فسخ الصور ، كما خلق به الكتاب العزيز .

فإن قيل : فإنكم قلتم فيما تقدم : إن الوعد إنما هو بالسفاح وبعمه عبد الله بن علي ،
والمسودة ، وما قلتموه الآن يخالف ذلك !

قيل : إن ذلك التفسير هو تفسير ما ذكره الرضي رحمه الله تعالى من كلام
أمير المؤمنين عليه السلام في " نهج البلاغة " وهذا التفسير هو تفسير الزيادة التي لم
يذكرها الرضي ، وهي قوله بأن ابن خيرة الإمام . وقوله : « لو كان هذا من ولد فاطمة
لرحمنا » ، فلا مناقضة بين التفسيرين .

(٩٣)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

فَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ بَعْدُ الْهَيْمُ ، وَلَا يَسْأَلُهُ حَدْسُ الْفِطَنِ ؛ الْأَوَّلُ الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِي ، وَلَا آخِرَ لَهُ فَيَنْقُضُ .

• • •

الشرح :

البركة : كثرة الخير وزادته ، وتبارك الله منه ، وبركت ، أى دعوت بالبركة ، وطعام بريك أى مبارك . ويقال : مبارك الله لزيد وفى زيد وعلى زيد ؛ وبارك الله زيدا ، يتمدى بنفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ ^(١) . ويحتمل « تبارك الله » معنيين : أحدهما أن يُراد : تبارك خيره وزادت نعمته وإحسانه ، وهذا دعاء . وثانيهما أن يُراد ^(٢) به : تزايد وتعالى فى ذاته وصفاته عن أن يقاس به غيره ، وهذا تمجيد .

قوله عليه السلام : « لا يبلغه بعدُ الهيم » أى بعد الأفكار والأنظار ، عبر عنها بالهم لمشابتها لإياها . وحَدْسُ الْفِطَنِ : ظنّها وتعميمها ، حَدَسْتُ أَحَدِمَسَ ، بالكسر .

ويُسأل عن قوله : « لا غاية له فينتهى » ، ولا آخر له فينقضى ، فيقال : إنما تدخل الفاء فيها إذا كان الثانى غير الأول ، وكقولهم : ما نأتيناهم حديثنا ، وليس الثانى هاهنا غير الأول ، لأن الانقضاء هو الحرية بعينها ، فسكاه قال : لا آخر له ، فيكون له آخر ، وهذا لغو ، وكذلك القول المقتضى فى الأولى .

ويبين أن يقال فى الجواب : إن المراد : لا آخر له بالإمكان والقوة فينقضى بالفعل فيها

لا يزال : ولا هو أيضا ممكن الوجود فيما مضى ، فيلزم أن يكون وجوده مسبوقا بالعدم ، وهو معنى قوله : « فينتهى » بل هو واجب الوجود في حالين : فيما مضى وفي المستقبل ، وهذان مفهومان متضايان ، وهما العدم وإمكان العدم ، فاندفع الإشكال .

• • •

منها :

الأصل :

فَأَسْتَوْدَعُهُمْ فِي أَفْضَلِ مَسْتَوْدِعٍ ، وَأَقْرَبُهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَعَرٍ ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَامِيهِمُ
الْأَصْلَابِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ الْأَرْحَامِ ؛ كَلِمَا مَضَى مِنْهُمْ خَلْفٌ ، قَامَ مِنْهُمْ بَدِيلٌ أَلِلهِ خَلْفٌ ،
سَقَى أَفْضَلُ كَرَامَةٍ أَفْضَلِ مُبْعَاةٍ وَتَعَالَى إِلَهُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ فَأَخْرَجَهُ مِنْ
أَفْضَلِ الْمَعَادِينَ مَنِيْعًا ، وَأَعَزَّ الْأُرُومَاتِ مَفْرَسًا ؛ بَيْنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءُ ؛
وَأَنْتَجَبَ مِنْهَا أَمْثَاءُ ، حِذْرُهُ خَيْرُ الْمَعْرِ ، وَأَسْرَرُهُ خَيْرُ الْأَسْرِ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ
الشَّجَرِ ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ ؛ لَهَا فُرُوعٌ طِلْوَالٌ ، وَثَمَرٌ لَا يُدَالُ ؛ فَهُوَ
إِمَامٌ مِّنْ أَنْبِيَاءِ ، وَبَصِيرَةٌ مِّنْ أَهْتَدَى .

سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ ؛ حِذْرَتُهُ الْقَصْدُ ،
وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ ، وَكَلَامُهُ الْفَصْلُ ، وَحُكْمُهُ الْمَدْلُ ؛ أَرْسَلَهُ عَلَى حَبْنِ فَرْقَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ؛
وَهَفْوَةٍ مِنَ الْعَمَلِ ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ الْأُمَمِ .

• • •

الشرح :

تناسخهم ، أى تناقلهم ، والتناسخ فى الميراث : أن يموت ورثة بمذوثة ، وأصل للوراث

قام لم يقسم ، كان ذلك تناقل من واحد إلى آخر ، ومنه : نسخت الكتاب وانسخته واستنسخته ، أى نقلت ما فيه . وروى : « ناسلهم » .

والسلف : المتقدمون ، والخلف : الباقون ، ويقال : خلف صدق بالتحريك ، وخلف سوء بالتسكين .

وأصبت كرامة الله إلى محمد صلى الله عليه ، أى انتهت . والأرومات : جمع أرومة وهى الأصل ، ويقال أروم بنير هاء : وصدع : شق ، وانتهجب : اصطفى . والأسرة : رط الرجل .

وقوله : « نبتت فى حرم » يجوز أن يعنى به مكة ، ويجوز أن يعنى به المنعة والمز . وسفت : طالت . ومعنى قوله : « ونعم لا ينال » ليس على أن يريد به أن ثمرها لا ينتفع به ، لأن ذلك ليس بمدح بل يريد به أن ثمرها لا ينال قهرا ، ولا يحى غصبا . ويجوز أن يريد بثمرها نفسه عليه السلام ، ومن يجزى بحوله من أهل البيت عليهم السلام ، لأنهم ثمرة تلك الشجرة .

ولا ينال ، أى لا ينال مساعيهم ومآثرهم ولا يباريهم أحد ، وقد روى فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله فى فصل قريش وبنى هاشم الكثير المستفيض ، نحو قوله عليه السلام : « قدموا قريشا ولا تقدموها » ، وقوله : « الأئمة من قريش » ، وقوله : « إن الله اصطفى من العرب معدا ، واصطفى من معد بنى النضر بن كنانة ، واصطفى هاشما من بنى النضر ، واصطفانى من بنى هاشم » ، وقوله : « إن جبرائيل عليه السلام قال لى : يا محمد قد طعت الأرض شرقا وغربا فلم أجذ فيها أكرم منك ، ولا بيتا أكرم من بنى هاشم » ، وقوله : « قلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية » ، وقوله عليه السلام : « إن الله تعالى لم يمسنى بسفاح فى أرومتى منذ إسماعيل بن إبراهيم إلى عبد الله

ابن عبد المطلب ، وقوله صلى الله عليه وآله : « سادة أهل عترة ، سادة أهل الدنيا : أنا وعلى وحسن وحسين وحمزة وجعفر » ، وقوله وقد سمع رجلاً ينشد :
يا أيها الرجلُ المحوّلُ رحمةً هَلَا نَزَلَتْ بِآلِ عِيسَى الدارُ ؟
هكذا قال يا أبا بكر؟ منكرأ لما سمع ، فقال أبو بكر : لا يا رسول الله ، إنه لم يقل هكذا ولكنه قال :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُحَوَّلُ رَحْمَةً هَلَا نَزَلَتْ بِآلِ عَبْدِ مَنَافٍ (١) ؟
تَعْمُرُوا أَمْثَلًا هَاشِمٍ لِلرَّيْدِ لِقْوِيهِ وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْتَنْتَوْنَ مَخَافُ
فسرّ صلى الله عليه وآله بذلك ، وقوله : « أذلّ الله من أذلّ قريشاً » ، قالها ثلاثاً ، وكفوله : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » وكفوله : « للناس تبع لقريش ، برّهم لبرهم ، وما جرّم لفاجرهم » ، وكفوله : « أنا ابن الأكرمين » ، وقوله لعنني هاشم : « والله لا يُنْفَضُكُمْ أَحَدٌ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ عَلَى مَنَحْرِيهِ فِي النَّارِ » ، وقوله : « ما بال رجال يزعمون أن قرايتي غير نافعة عليّ وإني لا أبيض أحدٌ أهل إلا حرّته الله الجنة » .

والأخبار الواردة في فضائل قريش وبنى هاشم وشرفهم كثيرة جداً ، ولا يرى الإطالة ها هنا باستقصائها .

وسطع الصبح يسطع سطوعاً ، أي ارتفع ، والسّطيع : الصبح . والزّند : العمود تقدح به النار ، وهو الأعلى ، والزّندة : السفلى فيها ثقب ، وهي الأتني ، فإذا اجتمعاقيل : زندان ولم يقل : « زندان » ، تعليلها للتذكير ، واجمع زناد وأزند وأزناد .

والقصد : الاحتدال . وكلامه المعصّل ، أي الفاضل ، والفارق بين الحق والباطل وهو مصدر بمعنى للفاعل ، كفولك : رجل عدل ، أي عادل .

والحفوة : الزّلة ، هفا يهفو . والعباوة : الجمل وقفة العطنة ، يقال : غيّبت عن الشيء وغيبته

الشيء أيضا، أغنى عبارة إذا لم يظن له ، وفهى على الشيء كذلك ، إذا لم تعرفه ، وفلان ففى على « فمبل » ، أى قليل القطنة .

الأصل :

اتعملوا - ربحكم الله - على أعلام بيئة ، فالطريق نهج يدعو إلى دار السلام ، وأنتم فى دار مستعقب على مهل وفراخ ؛ وألصحت مشورة ، والأقلام جارية ، والأبدان صحيحة ، والألن مطلق ، والثوة مسموعة ، والأعمال مقبولة .

النهج :

الطريق : يذكر ويؤث ، يقال : هذا الطريق الأعظم ؛ وهذه الطريق المغلى ، والجمع أطرقة وطرق .

وأعلام بيئة ، أى مدار واضح . ونهج ، أى واضح . ودار السلام : الجنة ، ويروى : « الطريق نهج » بالواو ، واو الحال .

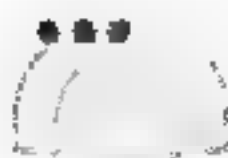
وأنتم فى دار مستعقب ، أى فى دار يتركب فيها استرضاء الخالق سبحانه ، واستعباده . ثم شرح ذلك فقال : أنتم بمهلون متفرغون ، وصحت أعمالكم لم تطو بعد ، وأقلام الحفظة عليكم لم تحب بعد ، وأبدانكم صحيحة ، وأنتم ما اعتقلت كانهتقل السفة المحتضرين عند الموت ، وتوبكم مسموعة وأعمالكم مقبولة ، لأنكم فى دار التكليف لم تخرجوا منها .

(٩٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

نَمَتْهُ وَالنَّاسُ ضَلَالٌ فِي حَبْرَةٍ ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ ، قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ
وَأَسْتَرَلَتْهُمْ الْكِبَرِيَاءُ ، وَاسْتَعَفَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ ؛ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأُمْرِ ،
وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ ، فَبَالَغَ عَلَى اللَّهِ عَنِّي فِي السَّيِّئَةِ ، وَمَصَى عَلَى الطَّرِيقَةِ ، وَدَعَا
إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ^(١) .



التبنيح :

حاطبون في فتنة : جمع حاطب ؛ وهو الذي يجمع الخطب ، ويقال لمن يجمع بين
الصواب والخطأ ، أو يشكك بالثابت والسمين : حاطب ليل ، لأنه لا يبصر ما يجمع في حبله .
وروى : « خاطون » .

واستهوتهم الأهواء : دعاهم إلى فسادها .

واسترلتهم الكبرياء : جعلتهم ذوي زلل وخطأ . واستعفتهم الجاهلية : جعلتهم ذوي
خفة وخطيئ وخرق .

والزلال ، بالفتح : الاسم ، وبالكسر : المصدر ، والزلال : الشدائد ، ومثله في
الكسر عند الاسمية والفتح عند المصدر « التفتال »

(١) ساقطة من مخطوطة التهج .

(٩٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ فَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَالْآخِرِ فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ ، وَالظَّاهِرِ فَلَا شَيْءَ فَوْقَهُ ، وَالْبَاطِنِ فَلَا شَيْءَ دُونَهُ .

الشرح

تقدير الكلام : والظاهر فلا شيء أجلى منه ، والباطن فلا شيء أخفى منه ؛ فلما كان الجلاء يستلزم العلو والقوية ، والخفاء يستلزم الانخفاض والضعف ، عير بينهما بما يلزمهما ، وقد تقدم الكلام في معنى الأول والآخِر والظاهر والباطن .

وذهب أكثر المتكلمين إلى أن الله تعالى يعدم أجزاء العالم ثم يبيدها ؛ وذهب قوم منهم إلى أن الإعادة إنما هي جمع الأجزاء بعد تفريقها لا غير .

واحتج الأولون بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ ^(١) ، قالوا : لما كان أولا بمعنى أنه للوجود ولا موجود معه ، وجب أن يكون آخرا بمعنى أنه سيؤول الأمر إلى عدم كل شيء إلا ذاته تعالى ، كما كان أولا ، والبحث للضعف في هذا الباب مشروح في كتبنا الكلامية .

• • •

الأصل :

ومنها في ذكر الرسول صلى الله عليه وآله :

مُسْتَقَرُّهُ خَيْرٌ مُسْتَقَرٍّ ، وَمَنْبُتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ ؛ فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ ، وَمَمَاهِدِ
السَّلَامَةِ ؛ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوُهُ أَفْنِدَةُ الْأَبْرَارِ بِمَوْتِهِ إِلَيْهِ أَرْزَةُ الْأَنْصَارِ ؛ دَفَنَ اللَّهُ بِهِ
الضَّمَانَيْنِ ، وَأَطْلَقَ بِهِ الْوَوَائِرَ ؛ أَلَّفَ بِهِ إِخْوَانًا ، وَفَرَّقَ بِهِ أَفْرَانًا ، وَأَعْرَضَ بِهِ الدُّلَّةَ ،
وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ ؛ كَلَامُهُ بَيَانٌ ، وَصَنْعُهُ بَيَانٌ .

الشرح

المهاد : العِراش ، ولما قال : « في معادن » ، وهي جمع معدن ، قال بحكم القرينة
والإردواج : « وتمهد » وإن لم يكن الواحد منها « تمهداً » ، كما قالوا : الهدايا والعشايا .
ومأجورات ومأزوات ، ونحو ذلك . وبمعنى السلامة هاهنا البراءة من العيوب ، أي في
نسب طاهر غير مأفون ولا معيب .

ثم قال : « قد صُرِفَتْ نَحْوُهُ » أي نحو الرسول صلى الله عليه وآله ، ولم يقل مَنْ صُرِفَتْ ،
بل جعله فعلاً لم يسم فاعله ، فإن شئت قلت : العارف لها هو الله تعالى لا بالخير كما يقوله
الأشعرية ، بل بالتوفيق والمطاف ، كما يقوله أصحابنا ، وإن شئت قلت : صرفها أربابها .

والضمان : جمع ضمنية ، وهي الخفد . صِيت على فلان بالكسر صِيئنا والصن
الاسم ، كالضمنية ، وقد تصاعنوا واصطلموا انطأوا على الاحتقاد ودفعها : أكسها وأحنها .
وألف به إخواناً ، لأن الإسلام قد أُنْف بين التباعدين ، وفرق بين المنفارين ، وقال

تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِبَيْعَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ ^(١) ، قطع ما بين حمزة وأبي طرب مع تقاربهما ،
وأنف بين على عليه السلام وعمار مع تباعدهما .

قوله عليه السلام : « وَصَمْتُهُ لِسَانًا » ، لا يبنى باللسان هاهنا الجارحة نفسها ، بل الكلام
الصادر عنها ، كقول الأعشى ^(٢) :

• إِنِّي أَتَنَفِّي لِسَانًا لَا أَسْرَبُ بِهَا •

قالوا في تفسيره : أراد الكلمة ، وجمعه على هذا السن ، لأنه مؤنث ، كقولك : ذراع وأذرع ،
فأما جمع لسان للجارحة فالسنة ، لأنه مذكر ، كقولك : حمار وأحمرة ، بقول عليه السلام :
إِنْ كَلَامَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَيَانٌ ، والبيان إخراج الشيء من حيز الخفاء
إلى حيز الوضوح ، وصمته صلى الله عليه وآله كلام وقول مفيد ، أي أن صمته لا يخلو
من فائده ، فسكاته كلام ، وهذا من باب التشبيه المخذوف الأداة ، كقولهم : بده نحر ،
ووجهه بدر .

(١) سورة آل عمران ١٠٣

(٢) هو أعشى جاهلة ؟ وخفيه :

• مِنْ عُلُوٍّ لَا كَذِبُ فِيهَا وَلَا سَحَرُ •

(٩٦)

ومن كلام له عليه السلام :

الأصل :

وَلَيْنَ أَهْلَ أَهْلِ الظَّالِمِ فَلَنْ يَذُوتَ أَحَدُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْبِرِّ صَادٍ، عَلَى نَحَارِ طَرِيقِهِ،
وَيَعْمُوضُ (١) الشَّجَا مِنْ مَسَايِغِ رِيقِهِ .

أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَيُظْهَرَنَّ هُوَ لَادِ الْقَوْمِ عَنَيْكُمْ ؛ لَيْسَ لِأَهْلِهِمْ أَوْلَى
بِالْحَقِّ مِنْكُمْ ؛ وَلَكِنْ لِيُسْرِعِيهِمْ إِلَى مَا طَلِبْتُمْ (٢) ، وَإِنِّ لَأُطَائِكُكُمْ عَنْ حَقِّ ، وَلَقَدْ أَصْحَبْتُ
الْأُمَّةَ تُخَافُ ظُلْمَ رُعَايَاهَا ، وَأَصْحَبْتُ أَحَادَ ظُلْمِ رَعِيَّتِي .

اسْتَغْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَغْرُوبُوا ، وَاسْتَمْسَكْتُمْ فَلَمْ تَتَّعِبُوا ، وَدَعَوْتُكُمْ مِرًّا وَاحِدَةً
فَلَمْ تَتَجَبَّعُوا ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَقْبَلُوا .

شُهُودٌ (٣) كَغِيَابِ ، وَهَيْدَرٌ كَأَرْبَابِ ؛ انْفَرَّ عَنْكُمْ إِلْحَاكُمُ فَتَغْفِرُونَ مِنْهَا ،
وَأَعْظَلَكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَغْفِرُ قَوْمَ هَمَاهِمَا ، وَأَحْضَلَكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَيْتِ فَمَا آتَى
عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَقِّي أَرَأَيْتُمْ مُتَغَرِّفِينَ أَيْدِي سَبَابِ تَرْجُمُونَ إِلَى تَحَالِيكُمْ ، وَتَقْعَادَعُونَ
عَنْ مَوَاقِعِكُمْ . أَقَوْمُكُمْ عُدُوَّةٌ وَتَرْجُمُونَ إِلَى عَشِيَّةٍ ؛ كَظْهَرِ الْحَنِيئَةِ عَجَرَ الْقَوْمِ
وَأَعْضَلَ الْقَوْمِ .

أَيُّهَا الْقَوْمُ ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ ، الْعَائِيَةُ عَنْهُمْ غُفُولُهُمْ ؛ الْمُحْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ ، الْمُسْتَلَى بِهِمْ
أَمْرَاؤُهُمْ ؛ صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَنْصُونَهُ ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَتَّبِعُ اللَّهَ
وَهُمْ يُطِيعُونَهُ الْوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ مُعَاوِيَةَ صَدَقَنِي بِكُمْ مَرَفَ الدُّبَارِ بِاللَّذَرِمْ ؛ فَأَخَذَ
مِنِّي عَشْرَةَ مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ !

(٢) مخطوطة التهجد : « بإمل صاحبهم » .

(١) مخطوطة التهجد : « وموضع » .

(٣) مخطوطة التهجد : « أشهود » .

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، مَنِيَتْ مِنْكُمْ بِلَالَتِي وَأَنْتَعَيْنِ : مُمْ ذَوُو أَسْمَاجٍ ، وَبُكُمْ
ذَوُو كَلَامٍ ، وَنَعْنَى ذَوُو أَبْصَارٍ ؛ لَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ الْفَقَاءِ ، وَلَا إِخْوَانُ نِقَّةٍ
عِنْدَ الْبَلَاءِ .

تَرَبَّتْ أَيْدِيكُمْ يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ قَهَارُهَا كَلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ
مِنْ آخَرٍ .

وَاللَّهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فَيَا إِخَالِكُمْ أَنْ لَوْ حَسِنَ الْوَفَى ، وَوَحِيَ الضَّرَابُ ، قَدْ أَنْفَرَجْتُمْ
عَنْ أَمْنٍ أَيْ طَلَابِ أَنْفِرَاجِ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبْلِهَا . وَإِنِّي لَعَلِّي بَيْنَهُ مِنْ رَبِّي ؛ وَمِنْهَا جِ
مِنْ نَبِيٍّ ، وَإِنِّي لَعَلِّي الطَّرِيقَ الْوَاضِعِ الْقُطْعُ لَقَطًا .



الْمِنْخُ

أَمَلُهُ : آخِرُهُ ، وَأَخَذَهُ فَاعِلٌ ، وَالْمَعْمُولُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : « فُلْنُ يَفُوتُهُ » . وَالْمُرْسَادُ ^(١) :
الطَّرِيقُ ، وَهِيَ مِنْ أَتَقَاظِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ .

وَبَجَازُ طَرِيقُهُ : مَسْلُكُهُ وَمَوْضِعُ جَوَازِهِ . وَالشَّعَا : مَا يَنْشَبُ فِي الْخَلْقِ مِنْ عَظَمٍ
أَوْ غَيْرِهِ ، وَمَوْضِعُ الشَّعَا : هُوَ الْخَلْقُ نَفْسُهُ . وَمَسَاغُ رَبِّهِ : مَوْضِعُ الْإِسَاقَةِ ، أَسْفَتْ
الشَّرَابِ : أَوْ صُلَّتُهُ إِلَى الْمَدَةِ . وَبَحُورُ : سَمِعْتُ الشَّرَابَ أَسُوفَهُ وَأَسِيعَهُ ، وَمَسَاغُ الشَّرَابِ
نَفْسُهُ بِسُوءِ سَوْغَا ، أَيْ سَهْلٌ مَدْخَلُهُ فِي الْخَلْقِ ، بِتَعَدَّى وَلَا بِتَعَدَّى . وَهَذَا الْكَلَامُ مِنْ
بَابِ التَّوَسُّعِ وَالْجَارِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَحُورُ عَلَيْهِ الْحُصُولُ فِي الْجِهَاتِ ، وَلَكِنَّهُ كَقَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ ^(٢) . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
الْجَوَارِدِ ﴾ ^(٣) .

(١) وهو من قوله تعالى في سورة الفجر ٨٩ : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَبِالْبَرِّ صَادِقٌ ﴾ .

(٢) سورة الحديد ١٦ .

(٣) سورة الحديد ٤ .

ثم أقسم عليه السلام أن أهل الشام لابد أن يظهروا على أهل العراق ، وأن ذلك ليس لأنهم على الحق وأهل العراق على الباطل ، بل لأنهم أطوعٌ لأمرهم ، ومدار النصر في الحرب إنما هو على طاعة الجيش وانتظام أمره ، لا على اعتقاد الحق ، فإنه ليس يُفنى في الحرب أن يكون العيش محققا في العقيدة إذا كان مختلف الآراء ، غير مطيع لأمر المدير له ، ولهذا تجد أهل الشرك كثيرا ما ينتصرون على أهل التوحيد .

ثم ذكر عليه السلام نكتة لطيفة في هذا المعنى ، فقال : السادة أن الرعية تخاف ظلم الوالي ، وأنا أخاف ظلم رعيتي ، ومن تأمل أحواله عليه السلام في خلافته ، علم أنه كان كالمحصور عليه ، لا يتمكن من بلوغ ما في نفسه ، وذلك لأن العارفين بحقيقة حاله كانوا قليلين ، وكان السواد الأعظم ، لا يعتقدون فيه الأمر الذي يحب اعتقاده فيه ، ويرون تفضيل من تقدمه من الخلفاء عليه ، ويظنون أن الأفضلية إنما هي للخلافة ، وبشأن ذلك أحلافهم أسلافهم ، ويقولون : لولا أن الأوائل علوا فصل المتقدمين عليه لما قدموا ، ولا يرونه إلا بعين التبعية لمن سبقه ، وأنه كان رعية لهم ، وأكثرهم إنما يحارب معه بالحمية وينتخوه العربية لا بالدين والعقيدة ، وكان عليه السلام مدفوعا إلى مداراتهم ومقارنتهم ؛ ولم يكن قادرا على إظهار ما عنده ، ألا ترى إلى كتابه إلى قصاته في الأمصار . وقوله : « فاقصوا كما كنتم تقصون ، حتى تكون للناس حجة ، وأموت كما مات أصحابي » ؛ وهذا الكلام لا يحتاج إلى تفسير ، ومعناه واضح ، وهو أنه قال لهم : أتنبؤوا عادتكم الآن تعاجل الحال في الأحكام والقضايا التي كنتم تفصون بها إلى أن يكون للناس حجة ؛ أي إلى أن تُنشر هذه الأمور والخطوب عن الاجتماع وزوال الفرقة وسكون الفتنة ، وحينئذ أعرفكم ما عندي في هذه القضايا والأحكام التي قد استمررت عليها .

ثم قال : « أو أموت كما مات أصحابي » ، فمن قائل بقول : عني بأصحابه الخلفاء المتقدمين

ومن قائل بقول: عني بأصحابه شيعة كسلطان، وأبي فخر، والمقداد، ومختار، ونحوم، الأثرى إلى قوله على المنبر في أمهات الأولاد: «كان رأي ورأي عمر ألا يُبَيِّنَ، وأنا أرى الآن يبعث»؛ فقام عليه عبدة السلطان فقال له: رأيك مع الجماعة أحب إلينا من رأيك وحده، فما أمد عليه حرقاً، فهل يدل هذا على القوة والقهر، أم على الضعف في السلطان والرخاوة! وهل كانت المصلحة والحكمة تقتضي في ذلك الوقت غير السكوت والإسكاة الأثرى أنه كان يقرأ في صلاة الصبح وخُفِّفَ جماعة من أصحابه، فقرأ واحد منهم رافعاً صوته، معارضا قراءة أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ فلم يضطرب عليه السلام، ولم يقطع صلاته ولم يلتفت وراءه، ولكنه قرأ معارضا له على البديهة: ﴿قَاصِرٌ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الْدِّينَ لَا يُؤْقِنُونَ﴾^(١) وهذا صرع عظيم وألم مجيد وتوفيق بين، وبهذا ونحوه استدلل أصحابنا المكلمون على حسن سياسته وصحة تدبيره لأنَّ مَنْ مَنَّى بهذه الرحمة المختلفة الأهواء، وهذا الجيش العاصي له، التبرّد عليه ثم كسب بهم الأهداء، وقتل بهم الرؤساء، فليس يبلغ أحد في حسن السياسة وصحة التدبير مبعته، ولا يقدر أحدٌ قدره، وقد قال بعض المتكلمين من أصحابنا: إن سياسة علي عليه السلام إذا تأملها المنصف متديرا لها بالإضافة إلى أحواله التي دفع إليها مع أصحابه، جرت تجرّى المعجزات، لصعوبة الأمر وتعذّره فإن أصحابه كانوا فرقتين: إحداهما تذهب إلى أن عثمان قتل مظلوماً وتقولاه وتدرأ من أعدائه، والأخرى - وهم جمهور أصحاب الحرب وأهل النساء والبأس - يعتقدون أن عثمان قُتِلَ لأحداث أوجبت عليه القتل، وقد كان منهم مَنْ يصرح بتكفيره، وكلٌّ من هاتين الفرقتين يزعم أن عليا عليه السلام موافق لها على رأيها، ونطالبه في كل وقت بأن يبدى مذهبه في عثمان، ونسأله أن يجيب بحواب واضح في أمره، وكان عليه السلام،

(١) سورة الروم ٦٠، وهذه قراءة علي، وقراءة المصنف: ﴿يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾، وانظر تفسير

يعلم أنه متى وافق إحدى الطائفتين بايئته الأخرى ، وأسلمته وتولت عنه وخذلقته ، فأخذ عليه السلام يستند في جوابه ويستعمل في كلامه ما تظن به كل واحدة من الفرقتين أنه يوافق رأيهما ويمثل اعتقادها ، فتارة يقول : الله فله وأمامه ، وتذهب الطائفة الموالية لعثمان إلى أنه أراد أن الله أماته وسيبتي كما أماته ؛ وتذهب الطائفة الأخرى إلى أنه أراد أنه قتل عثمان مع قتل الله له أيضا ، وكذلك قوله تارة أخرى : « ما أمرت به ولا نهيت عنه » ، وقوله : « لو أمرت به لكنت قاتلا » ، ولو نهيت عنه لكنت ناصرا » ، وأشياء من هذا الجنس مذكورة مروية عنه ، فلم يزل على هذه التورية حتى قُبِض عليه السلام ، وكل من الطائفتين موالية له معتقدة أن رأيه في عثمان كرايها ، فلم يكن له من السياسة إلا هذا القدر - مع كثرة خوض الناس حينئذ في أمر عثمان والحاجة إلى ذكره في كل مقام - لسكناه في الدلالة على أنه أعرف الناس بها ، وأحذقهم فيها ، وأعلمهم بوجوه مخارج الكلام ، وتدير أحول الرجال .

ثم نعود إلى الشرح :

قوله عليه السلام : « ونصحت لكم » ، هو الأنصح ، وعليه ، ورد لفظ القرآن ^(١) ، وقول العامة : « نصحتك » ليس بالأنصح .

قوله : « وعبيد كأرباب » يصفهم بالكبر والتعنه .

فإن قلت : كيف قال عنهم إنهم عبيد وكانوا عربا صليبة ؟ قلت : يريد أن أخلاقهم كأخلاق العبيد ؛ من العذر والخلاف ودناءة الأنفس ؛ وفيهم مع ذلك كبار السادات والأرباب وتبهم ؛ فقد جموا خصال السوء كلها .

وأما سبأ ؛ مثل يضرب للمخرفين ، وأصله قوله تعالى من أهل سبأ : ﴿ وَمَزَقْنَاهُمْ ﴾

(١) من قوله تعالى في سورة الأعراف ٧٩ : ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ اقْعَدُوا بِالنُّصُوحِ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ .

كُلُّ مُزَيٍّ^(١) وسبأ مهوز ؛ وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ؛ ويقال : ذهبوا أبدي سبأ وأبدي سبأ ، الياء ساكنة ؛ وكذلك الألف ؛ وهكذا قل للثل ، أى ذهبوا متفرقين ، وهما اسمان جعلا واحدا ؛ مثل معدى كرب .

قوله : « تصفادعون عن مواضعكم » ، أن تمسكون عن الاتعاض والاتجار ، وتسلمون عن ذلك ؛ من قولهم : كان فلان يعطى ثم خدع ، أى أسك وأقلع . ويجوز أن يريد : تلتونون وتختلفون في قبول للوعظة ؛ من قولهم : خلق فلان خلق خادع ، أى متلون ، وسوق خادعة أى مختلفة متلونة ، ولا يجوز أن يريد باللفظة المعنى المشهور منها ؛ لأنه إنما يقال : فلان يتخادع لفلان ؛ إذا كان يُرِيه أنه متخدع له وليس بمنخدع في الحقيقة ؛ وهذا لا يطابق معنى الكلام .

والحنية : القوس . وقوله : « كظهر الحنية » يريد ابو جاجهم ؛ كما أن ظهر القوس معوج . وأعضل القوم ، أى أعضل دأزه ، أى أحمأ . وروى : « آيتها الشاهدة أبدأهم » بحذف الوصف .

ثم أقسم أنه يود أن معاوية صارفه بهم ، فأعطاه من أهل الشام واحدا ، وأخذ منه عشرة ، سرف الدينار بالهراهم ؛ أخذ هذا اللفظ عبد الله بن الزبير لما وفد إليه أهل البصرة ، وفيهم الأحنف ، فكلّم منهم أبو حاضِر الأسدي ، وكان خطيبا جعلا ، فقال له عبد الله بن الزبير : اسكت ؛ فوافقه فوددت أن لي بكل عشرة من أهل العراق واحدا من أهل الشام سرف الدينار بالهراهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لنا ولك مثلا ، أفأذنت في ذكره ؟ قال : نعم . قال : مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام قول الأعمش :

عَلَّقْتُهَا عَرَضًا وَعُلِّقْتَ رَجُلًا
عَرِي ، وَطَلَّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ^(٢)

أحبك أهل العراق وأحببت أهل الشام وأحب أهل الشام عبد الملك فما تصنع ؟
ثم ذكر عليه السلام أنه مني ، أي بُلي منهم بثلاث واثنين ، إنما لم يقل بحس ، لأن
الثلاث إجمالية ، الاثنين سلبية ، فأحب أن يفرق بين الإثبات والسلب .

ويروى : « لا أحرار صدق عند افتقار » جمع صادق . ولا إخوان ثقة عند البلاء ،
أي موثوق بهم .

تربت أيديكم ، كلمة بدعي على الإنسان بها ، أي لا أصبتم حبرا ، وأصل « ترب »
أصابه التراب ، فكأنه يدعو عليه بأن يفتخر حتى يلتصق بالتراب

قوله : « ما إخالكم » أي فما أظنكم ؛ والأفصح كسر الألف وهو السماع ؛
ويروى أسد يفتعنونها وهو القياس .

قوله : « آو » أصله « أرو » ثم أدمت الهمزة في الألف فصارت كلمة واحدة .
وحس الوفى ، بكسر الهمزة ، اشتد وعظم ، فهو حس وأحس ؛ بين الحس والحاسة .

والوفى في الأصل : الأصوات والجلابة ، وصميت الحروب نفسها وفى لما فيها من ذلك

وقوله : « انزعاج المرأة من قبلها » ، أي وقت الولادة .

قوله : « أقطه لقطا » يريد أن الصلال غالب على الهدى ؛ فأما النقط طريق الهدى
من بين طريق الصلال لقطا من هاهنا وهاهنا كما يسلك الإنسان طريقا دقيقة ، قد
اكتنفها الشوك والعوسج من جانبيها كليهما ، فهو يلقط السهمج التقاطا .

الأصل :

أَنْظَرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالزَّسُّوا عَنْهُمْ ، وَأَتَّعُوا أَثَرَهُمْ ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ
هُدًى ، وَلَنْ يَبْعِدُوكُمْ فِي رَدًى ، فَإِنْ لَبَدُوا فَلَبَدُوا ، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا ، وَلَا
تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا ، وَلَا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتُهَيِّكُوا .

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَرَى أَحَدًا بَشَرُهُمْ مِنْكُمْ ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شَمَاتًا غَيْرًا ؛ وَقَدْ بَانُوا سُحُودًا وَ قِيَامًا ، يُرَاحُونَ بَيْنَ حِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ وَرُكْبَ الْغَزَا ، مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ ؛ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ هَمَّتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبْلُ جُيُوسُهُمْ ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ ، خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ ، وَرَجَاءَ لِلثَّوَابِ .

الْبَيْتُ

السُّنَّتُ : الطريق ، وَلَبَدُ الشَّيْءِ : بالأرض ، يَلْبُدُ بِالضَّمِّ لُبُودًا : التصق بها . ويصبحون شَمَاتًا غَيْرًا ، من قَشَفِ الْعَمَادَةِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَصُومِ النَّهَارِ وَهَرَمِ الْمَلَاذِ ، فَيُرَاحُونَ بَيْنَ حِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ ، تَارَةً يَسْعَدُونَ عَلَى الْعِبَادَةِ ، وَتَارَةً يَصْمُونَ خُدُودَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ سِدَّ الصَّلَاةِ ؛ تَذَلُّلاً وَحَصَوصًا . وَالرَّاحَةُ بَيْنَ الْعَمَلِ : أَنْ يَسَلَّ هَذَا مَرَّةً وَهَذَا مَرَّةً ، وَيُرَاحُ بَيْنَ رَحْلَيْهِ ؛ إِذَا قَامَ عَلَى هَذِهِ تَارَةً وَعَلَى هَذِهِ أُخْرَى .

وَيُقَالُ مَعْرَى لِهَذَا الْجَنَسِ مِنَ اللَّغَمِ وَتَمِيزٍ وَمَعِيرٍ وَأَمُوزٍ وَمَمَزٍ ، بِالتَّسْكِينِ ، وَوَاحِدُ اللَّغَزِ مَامَزٌ ، كَصَحْبٍ وَصَاحِبٍ ، وَالْأُنْثَى مَاعِزَةٌ وَالْجَمْعُ مَوَاعِزُ . وَهَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ : سَالَتْ ، تَهْمَلُ وَتَهِيلُ .

وَيُرْوَى « حَتَّى تَبْلُ جِبَاهِهِمْ » ، أَيْ يَبْلُ مَوْصِعَ السُّجُودِ فَيَبْتَلُ الْجَبْهَةَ بِمَلَاظَمَتِهِ . وَمَادُوا : تَمَرَّكُوا وَاضْطَرَبُوا ، إِمَّا خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ كَمَا يَتَحَرَّكُ لِرَجْلِ وَيَضْطَرِبُ ، أَوْ رَجَاءً لِلثَّوَابِ كَمَا يَتَحَرَّكُ النَّشْوَانُ مِنَ الطُّوبَى ، وَكَمَا يَتَحَرَّكُ الْحَذِيلُ الْمَسْرُورُ مِنَ الْفَرَحِ .

(٩٧)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام :

وَأَفِي لَا يَزَالُونَ حَقًّا لَا يَدَّخِرُونَ فِيهِ مَحْرَمًا إِلَّا اسْتَحَلُّوهُ ، وَلَا عَقْدًا إِلَّا حَلَّوهُ ،
وَحَقًّا لَا يَبْقَى بَيْنَهُ مَذَرٌ وَلَا وَبَرٌ إِلَّا دَحَلَهُ ظُلْمُهُمْ ، وَبَنَاءٌ بِهِ سُوءٌ رِغَتِهِمْ^(١) ، وَحَقًّا
يَقُومُ أَلْبَا كَيْهَانٍ يَبْكِيَانِ بِبَاكِ يَبْكِي لِيَدِيهِ ، وَبَاكِ يَبْكِي لِدُثْيَاهُ ، وَحَقًّا تَكُونُ
نُصْرَةٌ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ ، وَإِذَا غَابَ
أَعْتَابَهُ ، وَحَقًّا يَكُونُ أَهْطَمُكُمْ فِيهَا عَنْهُ أَحْسَنُكُمْ بِإِلَهِ ظَنًّا ، فَإِنْ أَتَاكُمْ اللَّهُ
بِمَعَايِفٍ فَاقْبَلُوا ، وَإِنْ أَبْتَلَيْتُمْ فَاصْبِرُوا ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .



الشرح

تقدير الكلام : لا يزالون ظالمين ؛ لحذف الخبر وهو مراد ، وسدت « حق »
وما بعدها سد الخبر ؛ ولا يصح ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن « زال » بمعنى تحرك
وانتقل ؛ فلا تكون محتاجة إلى خبر ، بل تكون تامة في نفسها ، لأن تلك مستقلة بها يزول
بالواو ، وما هنا بالالف لا يزالون ؛ فهي الناقصة التي لم تأت تامة قط ؛ ومثلها في أنها لا تزال
ناقصة : ظل وما فقى ، وليس .

والحرم : ما لا يحل انتهاكه وكذلك المحرمة بفتح الراء وضمها .

ويوت اللذر : هي البيوت البنية في القرى ، ويوت الور : ما يتخذ في البادية من وبر

الإبل والوبر لها كالصوف للضأن ، وكالشعر للبعير .

(١) زاد في مخطوطة التهج بعدها : « ويزل به فيهم » . (٢) مخطوطة التهج : « فإذا » .

وقد وُيِّرَ البعيرُ بالكسر ، فهو وَّيْرٌ ، وأوْبِرٌ ، إذا كثر وُيْرُهُ . ونبا به منزله : إذا خُصِرَ ولم يوافقهُ ، وكذلك نبا به فِرَاشُهُ ، فالتعلُّلُ لازم ، فإذا أردتَ تعديته بالهمزة قلتَ : قد أنبى فلان على منزلي ، أى جعله نايباً ، وإن عُدَّ به بحرف الجر قلتَ : قد نبا بمنزلي فلان ، أى أنباه على ، وهو في هذا اللوح مدغى بحرف الجر .

وسوء رِعَيتهم أى سوء ورعهم ، أى تقوُّم . والورع بكسر الراء : الرَجُلُ التَّقِيُّ ، ورع يروع بالكسر فيهما ورعا ورِعَةً ، ويروى : « سوء رِعَيتهم » ، أى سوء سياستهم وإمْرَتِهِمْ . ونصرة أحدكم من أحدم : أى انتصاره منه وانتقامه ، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل ؛ وقد تقدم شرح هذا المعنى ؛ وقد حل قوم هذا المصدر على الإضافة إلى المفعول وكذلك نصرة السيد وتقدير الكلام : حتى يكون نصرة أحد هؤلاء الولاة لأحدكم كنصرة سيد العبد السيِّء الطريقة إياه ، « ومن » في اللوحين مضافة إلى المحذوف تقديره من جانب أحدم ومن جانب سيده ؛ وهذا ضيف لما فيه من الفصل بين السيد وبين قوله : « إذا شهد أطاعه » ؛ وهو الكلام الذى إذا استمر للمعنى جعل حالاً من العبد بقوله : « من سيده » . والضمير في قوله : « فيها » يرجع إلى غير مذكور لفظاً ؛ ولكنه كالمذكور ؛ بمنى الفتنة ، أى حتى يكون أعظمكم في الفتنة غناء .

ويروى برفع : « أعظمكم » ونصب « أحسنكم » ، والأول أليق ؛ وهذا الكلام كله إشارة إلى بنى أمية .

(٩٨)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

تَحَدُّهُ عَلَى مَا كَانَ ، وَتَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرٍ أَوْ عَلَى مَا يَكُونُ ، وَنَسْأَلُهُ الْمَعَاذَ فِي
الْأَذْيَانِ ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمَعَاذَ فِي الْأَبْدَانِ .

أَوْصِيَكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِهِ الدُّنْيَا أَلْتَارِكَةَ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُخِيُّوا تَرَكَهَا ،
وَالْمُنْبِلِيَةَ لِأَجْسَائِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحْيُونَ تَحْدِيدَهَا ؛ فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفَرٍ
سَلَكَوا سَبِيلًا فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ ، وَأَمَّا عَلَيْهَا فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوهُ ؛ وَكَمْ عَسَى
الْمُجْرِي إِلَى الْعَايَةِ أَنْ يَحْرِيَ إِلَيْهَا حَقٌّ يَنْفُلُهَا أَوْ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ
لَا يَمُدُّهُ ، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ الْمَوْتِ يَمُدُّهُ ، وَمُرْهَجٌ فِي الدُّنْيَا عَنْ الدُّنْيَا حَقٌّ
يُبَارِقُهَا رَغْمًا !

فَلَا تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا ، وَلَا تَسْتَجْبُوا بِزِينَتِهَا وَتَعِيْبِهَا ، وَلَا تَجَزَّعُوا
مِنْ ضَرَائِبِهَا وَبُؤْسِهَا ، فَإِنَّ هِرَّهَا وَفَحْرَهَا إِلَى أَقْطَاعِ ، وَزِينَتَهَا وَتَعِيْبَتَهَا إِلَى رَوَالٍ ،
وَضَرَاءِهَا وَبُؤْسَتَهَا إِلَى نَفَادٍ ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْسِيَاءٍ ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ .
أَوَلَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُرَدَّ جَرٍّ مَرَى آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ تَبْصِيرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ ؛
إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ !

أَوَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُونَ ، وَإِلَى الْخَلَفِ الْبَاقِينَ لَا يَنْقُضُونَ !
أَوَلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُمَسُّونَ وَيُصْبِحُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى ؛ فَمَيِّتٌ يُبْكَى ،
وَأَخَرٌ يُمَزَّى ، وَصَرِيحٌ مُبْتَلَى ، وَهَائِدٌ يَمُودُ ، وَآخَرٌ يَنْفِيهِ يَجُودُ ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا

وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَنْعُولٍ عَنْهُ ؛ وَفَلَى أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي !
أَلَا فَادُّوهُمُ هَازِمَ الْذَّاتِ ، وَتَمْنَعُوا الشَّهَوَاتِ ، وَقَاطِعِ الْأُمْنِيَّاتِ ، حِينَ
الْمَسَاوِرَةِ لِلْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ ، وَاسْتَعِينُوا أَفْهَ قَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ ، وَمَا لَا يُخَصُّ مِنْ
أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ .

• • •

الْبَيِّنَاتُ :

لَمَّا كَانَ الْمَاضِي مَعْلُومًا جَمَلَ الْحَدِّ بِإِزَاتِهِ ؛ لِأَنَّ الْجَهْلَ لَا يَحْمَدُ عَلَيْهِ ؛ وَلَمَّا كَانَ الْمُسْتَقْبَلُ
غَيْرَ مَعْلُومٍ جَمَلَ الْاسْتِعَانَةَ بِإِزَاتِهِ ؛ لِأَنَّ لِلْمَاضِي لَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ ، وَلَقَدْ ظَرُفَ وَأَبْدَعَ عَلَيْهِ
الْإِسْلَامُ فِي قَوْلِهِ : « وَنَسَأَلُهُ الْمَعَافَاةَ فِي الْأَدْيَانِ ، كَمَا نَسَأَلُ الْمَعَافَاةَ فِي الْأَبْدَانِ » ، وَذَلِكَ أَنَّ
لِلْأَدْيَانِ سُمًّا وَطَبًّا وَشِفَاءً ؛ كَمَا أَنَّ لِلْأَدْيَانِ سُفًّا وَطَبًّا وَشِفَاءً ، قَالَ عَمُودُ الْوَرَقِ :
وَإِذَا مَرَضْتَ مِنَ الدُّبُوبِ قَدْ دَوَّاهَا اللَّهُ شَرِيًّا إِنَّ الدُّكْرَ خَيْرُ دَوَاءِ
وَالسُّقْمِ فِي الْأَدْيَانِ لَيْسَ بِصَافِرٍ وَالسُّقْمُ فِي الْأَدْيَانِ شَرُّ بَلَاءِ
وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَا تُشْكِي ؟ قَالَ : دُمُوعِي ، قِيلَ : فَمَا تُشْفِي ؟ قَالَ : الْجَنَّةُ ، قِيلَ :
أَمَّا نَدْعُوكَ طَبِيبًا ؟ قَالَ : الطَّبِيبُ أَمْرُصِي

سَمِعْتُ عَفِيرَةَ بِنْتَ الْوَلِيدِ الْبَصْرِيَّةَ الْعَابِدَةَ رَجُلًا يَقُولُ : مَا أَشَدَّ الْعَمَى عَلَى مَنْ كَانَ
بَصِيرًا ! فَقَالَتْ : عَبْدَ اللَّهِ ! غَفَلْتُ عَنْ مَرَضِ الدُّبُوبِ ، وَاهْتَمَمْتُ بِمَرْضَى الْأَجْسَادِ ؛ نَعَى
الْقُلُوبِ عَنْ اللَّهِ أَشَدُّ مِنْ عَمَى الْعَيْنِ عَنِ الدُّنْيَا ، وَدِدْتُ أَنْ اللَّهُ وَهَبَ لِي كُنْهَ حَقِّهِ ، وَلَمْ يُبَيِّقْ
مَعِيَ جَارِحَةً إِلَّا تَبَكَّلَهَا ^(١) .

قِيلَ لِحَسَّانَ بْنِ أَبِي سَنَانٍ فِي مَرَضِهِ : مَا مَرَّحُوكَ ؟ قَالَ : مَرَضِي لَا يَفْهَمُهُ الْأَطْبَاءُ ؛ قِيلَ :

(١) تَبَكَّلَهَا : أَسْقَمَهَا .

وما هو ؟ قال : مرض الذنوب ؛ فقيل : كيف تجدك الآن ؟ قال : بخير إن نجوت من النار ، قيل : فما تشتهي ؟ قال : ليلة طويلة بعيدة ما بين الطرفين أحبيها بذكر الله .

ابن شبرمة : عجبت ممن يحس من الطعام مخافة الداء ، كيف لا يحس من الذنوب مخافة النار ؟

قوله عليه السلام : « الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبوا تركها » معنى حسن ؛ ومنه قول أبي الطيب :

كل دمع يسيل منها علينا وبفك الدين منها نخلى^(١)

والرفض : الترك ؛ وإيل رفض : متروكة ترى حيث شئت ، وقوم سفر ، أي مسافرون . وأموا : قصدوا ، واللم : الجمل أو النار في الطريق يهتدى به .

وكان في هذه المواضع كهي في قوله : « كانت الدنيا لم تسكن » ، وكانت بالآخر لم تزل ، ما أقرب ذلك وأسرعه ، وتقدير الكلام هاهنا : كانت في حال كونهم غير قاطنين له قاطنون له ، وكانت في حال كونهم غير بالين له بالنون له ، لأنه لا قرب زمان إحدى الحالتين من زمان الأخرى شئوا وهم في الحال الأولى بهم أنفسهم وهم على الحال الثانية . قوله عليه السلام : « وكم عسى الحري » أجرى فلان فرسه إلى العاية ، إذا أرسلها ؛ ثم قل ذلك إلى كل من يقصد بكلامه معنى أو ضمه غرضاً ، فقيل : فلان يجري بقوله إلى كذا ، أو يجري محركه الفلانية إلى كذا ، أي يقصد وينتهي بإرادته وأغراضه ولا يحدوه ولا يتجاوزوه .

والخنيث : السريع . ومحدوه : بسوقه . والمنافسة : المحاسدة ، ونفت عليه بكذا ، أي ضنفت . والبؤس : الشدة . والعباد : الفناء .

وما في قوله : « على أثر لماضي ما يمضي الباقى » إنا زائدة أو مصدرية ، وقد أخذ هذا اللفظ الوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم مات مسلمة بن عبد الملك ؛ قيل : لما مات مسلمة بن عبد الملك ، واجتمع بنو أمية ورؤساء العرب ينظرون جنازته ، خرج الوليد بن يزيد على الناس وهو نشوان جميل يحمرُّ مطرف خمر ، وهو يندب مسلمة ومواليه حوله ، فوقف على هشام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن عقي من بقى لحوق من مضى ؛ وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى ، واختل الثغر فرعى ، وارتج الطود فهوى ؛ وعلى أثر من سلف ما يمضى من خلف ، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى .

قوله عليه السلام : « عند مساورة الأعمال القيعة » العامل في « عند » قوله : « اذكروا » أى ليكن ذكركم للوث وقت مساورتكم ، والمساورة : اللواتية ، وسار إليه يسود سورا ؛ وثب ، قال الأخطل يصف خراجه :
 لما أتوها بمصباحٍ وميزانٍ سارت إليهم سؤور الأبلح العارى^(١)
 أى كوثوب المرق الذى قد قصِد أو قطع فلا يكاد ينقطع دمه ؛ ويقال : إن لمضيه لسؤرة ، وهو سوار ، أى وثاب مريد .

(١) ديوانه ١١٨ . البرل : الذهب و جانب الحاية تجري من البحر مائية . والأبجل : مرق يكون في الدواب . وانظر اللسان (سور) .

(٩٩)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَصْلَهُ ، وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ . نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ
أُمُورِهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعًا ، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقًا ، فَأَدَّى أَمِينًا ، وَمَفْضُولًا رَشِيدًا ،
وَخَلَّفَ فِيهَا رَايَةَ الْخَلْقِ ؛ مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَّقَ ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ .
ذَلِيلًا مَكِثًا لِكَلَامِهِ ، بَطِيءًا لِقِيَامِ مَصْرِيعِهِ إِذَا قَامَ ، فَإِذَا أُنْتُمْ أَلَسْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ ،
وَأَشْرَنْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ ؛ جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ ؛ فَلَيْسَتْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ ؛ حَقٌّ
يُطْلِعُ اللَّهُ نَسَكًا مِنْ يَحْمَعُكُمْ وَيَغْمُ تَشْرِكُمْ ، فَلَا تَطْمَئِنُّوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ ، وَلَا تَيْشُّوا
مِنْ مُذِيرٍ ، فَإِنَّ الْمَذِيرَ عَمَى أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَى قَائِمَتِيهِ ، وَتَنْبُتَ الْآخَرَى فَتَرْجِعَا
حَتَّى تَنْبُتَا جَمِيعًا .

أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ كَمَثَلِ بُحُورِ السَّمَاءِ ؛ إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ
نَجْمٌ ؛ فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنْ اللَّهِ فِيكُمْ الصَّنَائِعُ ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمَلُونَ .

الْبَيْتُ :

يده هاهنا : نعمته ؛ يقال : لفلان عندي يد : أى نعمة وإحسان ، قال الشاعر :

فإن ترجع الأيامُ بيني وبينها فإن لها عندي بدءاً لا أضيعها

وصادما ، أى مظهرا ومجاهرا للشركين ، قال تعالى : ﴿ فَأَصْدَحُّهُمَا تَوْأَمَّرُ ﴾ ^(١) .
وراية الحق : الثقلان الخلفان بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وهما الكتاب
والعبرة .

ومَرَق : خرج ، أى فارق الحق ، ومرق السهم عن الرمية : خرج من جانبها الآخر ؛
وبه سُمِّيت الخوارق مارقة .

وزَهَقَتْ نفسه ، بالفتح زُهوفا ، أى خرجت ، قال تعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ ﴾ ^(٢) . وزَهَقَتْ الناقة ؛ إذا سبقت وتقدمت أمام الركب ، وزهق الباطل :
اضمحل ، يقول عليه السلام : مَنْ خالفها مضد ما لها أو متأخرا عنها فقد خرج عن الحق ،
ومن لازمها فقد أصاب الحق .

ثم قال : « دليلها مَكِيت الكلام » ، يعنى كَمِيت عليه السلام ، لأنه المَشارُ إليمن
العبرة ، وأعلم الناس بالكتاب . وَمَكِيت الكلام : بطيته ، ورجل مَكِيت ؛ أى عزيز ،
والمَكْث : الثبوت والانتظار ، مَكْثَ ومَكْثَ بالفتح والضم ، والاسم المَكْث والمِكْثنة
بالضم وكسرهما ، يعنى أنه ذو أمانة وتؤدة ، ثم أكد ذلك بقوله : « بطل . القيام » .

ثم قال : « سريع إذا قام » ، أى هو متأنٍ مثبتٌ في أحواله ؛ فإذا نهض جَدَّ وبالغ ؛
وهذا المعنى كثير جدا ؛ قال أبو الطيب :

وما قلتُ للبدرِ أنتَ العَجِينُ ولا قلتُ للشمسِ أنتِ الذهبُ ^(٣)
فَيَقْنَقُ مِنْهُ البعيدُ الأمانَ وَيَعْصَبُ مِنْهُ البطلُ العصبُ

يعنى سيف الدولة .

(١) سورة الحجر ٩٤

(٢) سورة التوبة ٨٥

(٣) ديوانه ١ : ٩٧ .

[أقوال مأثورة في مدح الأناة وذم العجلة]

ومن أمثالهم : « يريك الهوينى والأمور نظير » ؛ يصرب لمن ظاهره الأناة وباطنه إبرام الأمور وتنفيذها والحاضرون لا يشعرون ؛ ويقولون لمن هو كذلك : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَائِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ »^(١) .

ووقع ذو الرِّبَاسَتين إلى عامل له : إن أسرع النار التهاباً أسرَّها خودا ، فتأن في أمرك . ويقال : إن آدم عليه السلام أوصى ولده عند موته فقال : كل عمل تريدون أن تسلموه فتوقفوا فيه ساعة ، فإن لو توقفت لم يصبنى ما أصابني .

بعض الأعراب يوصى ولده : إياكم والعجلة ، فإن أبي كان يكتسبها : أمّ الدم . وكان يقال : مَنْ وَرَدَ عَجَلًا هَلَسَ خَيْلًا [] وقال ابن هاني المروزي :

وكلُّ أناة في المواطنِ سَوْدَدٌ ولا كَأَنَاءٌ من قَدِيرٍ مُحْكِمٌ^(٢)
ومن يَتَبَيَّنْ أنْ لَصَفْحٍ مَوْضِعًا من السيفِ يَصْفَحُ عن كثيرٍ ويَحْلُمُ
وما الرأى إلا بعد طولِ تَثَبُّتٍ ولا الحرمُ إلا بعد طولِ تَلَوُّمٍ^(٣)

وقوله عليه السلام : « بطيء القيام ، سريع إذا قام » فيه شبهة من قول الشنفرى :
مسبل في الحى أخوى رِقْلٌ وإذا يمزو فسيغ أزلٌ
ومن أمثالهم في مدح الأناة وذم العجلة : أخطأ مستعجل أو كاد ، وأصاب متثبت أو كاد .

(١) سورة النمل ٨٨ .

(٢) ديوانه ٦٧٠ .

(٣) تلوؤم في الأمر : تمسكت فيه واعتصر .

ومنها :

• وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعِيلِ الرَّئُلُ^(١) •

ومنها : ربّ مجلّة تهب ربّثا^(٢) :

وقال البعترى :

حَلِيمٌ إِذَا الْقِسْمُ اسْتَحْفَتْ حُلُومُهُمْ وَقَوْرٌ إِذَا مَا حَادَثُ الدَّهْرِ أَجْلَبَا^(٣)

قال الأحنف لرجل سبه فأفرط : يا هذا، إنك منذ اليوم تعدو بحمل ثقال .

وقال الشاعر :

أَحْلَامُنَا تَرِنُ الْجِبَالِ رَجَاعَةً وَنَحَالِسَا جِنًا إِذَا مَا نَحْمَلُ

[فصل في مدح قلة الكلام ودم كثرته]

فأما قوله عليه السلام : « مكثت بالكلام » ، فإن قلة الكلام من صفات المدح وكثرته من صفات الذم . قالت جارية ابن السماك : ما أحسن كلامك لولا أنك تكثر ترداده ! فقال : أرددّه حتى يفهمه من لم يفهمه ، قالت : فإلى أن يفهمه من لم يفهمه قد ملّه من فهمه .

بعث عبد العزيز بن مروان بن الحكم إلى ابن أخيه الوليد بن عبد الملك قطيفة حمراء ، وكتب إليه : أما بعد ، فقد بعثت إليك بقطيفة حمراء ، حمراء ، حمراء ؛ فكتب إليه الوليد : أما بعد ، فقد وصلت القطيفة ، وأنت يا عم أحق ، أحق ، أحق .

(١) لفظان وسدره :

• قَدْ يُدْرِكُ الثَّانِي بَعْضَ حَاجَتِهِ •

وبعد :

وَرَبَّمَا قَاتَ قَوْمًا جَلَّ أَمْرُهُمْ إِذَا تَوَانَوْا وَكَانَ الرَّأْيُ لَوْ عَجِلُوا

وانظر جهرة أشعار العرب ٣١٣ (الطبعة الرحمانية) .

(٢) أول من قاله مالك بن عوف النخعي . مع الأمثال ١ : ٢٩٤ .

(٣) ديوانه ١ : ٥٥ .

وقال للعتيد لأحمد بن الطيب السرخسي : طول لسانك دليل على قصر عقلك .
 قيل للعتابي : ما البلاغة ؟ قال : كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا خلسة
 ولا استعانة فهو بليغ . قيل له : ما الاستعانة ؟ قال : ألا ترى الرجل إذا حدث قال :
 يا هناه ، واستمع إلى ، وافهم ، وألست تفهم ؟ . . هذا كله عي وفساد .

دحل على المأمون جماعة من بني القباس ؛ فاستنطقهم فوجدهم لكفاء مع يسار وهينة ،
 ومن تكلم منهم أكثر وهذر ، فكانت حاله الخش من حال الساكتين ، فقال :
 ما أبين الخلة في هؤلاء إلا خلة الأبلهى بل خلة الألسنة والأحلام .

وسئل علي عليه السلام عن اللسان فقال : سيار أطايش الجاهل ، وأرجعه العقل .
 سمع خالد بن صفوان مكثراً بفكلم ، فقال له : يا هذا ، ليست البلاغة بمحنة اللسان ،
 ولا بكثرة الهذيان ، ولكنها إصابة للعق والتقص إلى الحقيقة .

قال أبو سفيان بن حرب لعبد الله بن الزبير : مالك لا تسهب في شعرك ؟ قال :
 حسبك من الشعر غرة لأمة ، أو وصمة فاضحة .

وفي خطبة كتاب « البيان والتبيين » (١) : لشيخنا أبي عثمان : « وتعود بك من شر
 السلاطة والهذر ، كما تعود بك من اللين والحصر » ، قال أحيعة بن الجلاح :

والصمت أجمل بالفتى ما لم يكن هي بشيئه
 والقول ذو خطل إذا ما لم يكن لب يمينه

وقال الشاعر يرثي رجلاً :

لقد وارى القابر من شربك كثير تحم وقليل طاب (٢)

(١) البيان والتبيين ١ : ٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٦ ، ولهما إلى عمر بن علقمة .

صحتنا في المجالس غير هي جديراً حين ينطق بالصواب

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله بكره النشأق والإطالة والمهتر ، وقال : « إياك والنشأق » ، وقال صلى الله عليه وآله : « أبنضكم إلى الثرثارون المضيهقون » .
وروى عمرو بن عبيد رحمه الله تعالى ، عن النبي صلى الله عليه وآله : « إنا معاشر الأنبياء بكادون قليلو الكلام » ، رجل بكى ، على « فعمل » .

قال : وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله .
وقيل للخليل ، وقد اجتمع ابن المقفع : كيف رأيت ؟ فقال : لسانه أرجح من عقله ،
وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ قل : عقله أرجح من لسانه . فكان عاقبتهم
أن عاش الخليل مصوناً مكرماً ، وقتل ابن المقفع تلك القتلة .

وسأل حفص بن سالم عمرو بن عبيد عن السلاعة ؛ فقال : ما يلدك الحنة ، وباعدك
عن النار ، وبصرك مواقع رشدك ، وعواقب غيئك . قال : ليس عن هذا أسأل ، فقال :
كانوا يحافون من فتنة القول ، ومن سقطات الكلام ، ولا يحافون من فتنة السكوت
وسقطات الصمت .

قال أبو عمار الجاحظ : وكان عمرو بن عبيد رحمه الله تعالى : لا يكاد يتكلم ،
فإن تكلم لم يكذب طيل ، وكان يقول : لا خير في التكلم إذا كان كلامه لمن شهده
دون نفسه ، وإذا أطال التكلم الكلام عرضت له أسباب التكلف ، ولا خير في
شيء يأتيك بالتكلف .

وقال بعض الشعراء :

وإذا خطبت على الرجال فلا تكن خيلاً الكلام تقوله مخفلاً

واعلم بأن من الكوت إبانة^(١) ومن التكلف ما يكوت خبالاً^(٢)
 وكان يقال : لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام تفكر ، فإن كان له قال ،
 وإن كان عليه سكت ، وقلبُ الجاهل من وراء لسانه ، فإن همّ بالكلام تكلم به .
 وقال سعد بن أبي وقاص لمرو ابنه حين نطق مع القوم فبذّم ، وقد كان غضب
 عليه ، فكلّموه في الرضا عنه : هذا الذي أغضبني عليه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله
 يقول : « يكون قوم يأكلون الدنيا بالسنتهم كما تلحس الأرض البقر بالسنتها » .
 وقال معاوية لمرو بن العاص في أبي موسى : قد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير
 الرأي فأجد الحز ، وطبق الفصل ، ولا تلق برأيك كله .

وكان يقال : لو كان الكلام من فضة لكان الكوت من ذهب .

وكان يقال : مقتل الرجل بين فكّيه ، وقيل : بين لحييه .

وكان يقال : ماشى بأحق يسير من لسان .

وقالوا : اللسان سبع عقور .

وأخذ أبو بكر بطرف لسانه ، وقال : هذا الذي أوردني للوارد .

لما أنكح ضرار بن عمرو ابنته من سعيد بن زرارة ، أوصاها حين أخرجها إليه فقال :

أمسكي عليك ألفصتين ، قالت : وما هما ؟ قال : فضل المنة ، وفضل الكلام .

وسئل أهرابي كان يجالس الشعبي عن طول صمته ، فقال : أسمع فأهم ، وأسكت

فأسلم .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « وهل يكب الناس في النار على مناخيرهم إلا حصائدُ

السنتهم ! »^(٣) .

(١) البيان والتبيين ١ : ١٣٥ ، ونسبها إل بسر الكلبيين .

(٢) النهاية لابن الأثير ١ : ٧٣٣ ، قال في شرحه : « أي ما يتكلمونه من الكلام الذي لا خير فيه ،
 واحتبها حبيدة ، أشبهاً بما يحمد من الريح ، ونسبها باللسان وما يتكلم به بعد النجول الذي يحمد به » .

تكلّم رجل في مجلس النبي صلى الله عليه وآله فخطب في كلامه ، فقال عليه السلام :
« ما أعطى العبد شراً من ذلاقة لسان »

قال عمر بن عبد العزيز يوم يبيع بالخلافة خالد بن عبد الله القسري ، وقد أنشده ميمثلاً :

وإذا الدّرّ زانٌ حسنٌ نُحورٍ كان للدرّ حسنٌ نُحركَ زيناً
إن صاحبكم أعطى مَقُولاً ، وحُرِّمَ مَقُولاً .

وقيل للإمام بن عمر : ادعُ لنا ، فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا ، فقالوا : زدنا
يا أبا الرحمن ، فقال : أعوذ بالله من الإسهاب .

وكان القُبَاع - وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن الميرة الخزومي - مستهائباً ،
سريع الحديث كثيره ، فقال فيه أبو الأسود الدؤلي :

أميرَ المؤمنين جُزيتَ خيراً أرحمنا من قُبَاع بن الميرة ^(١)
بلوناهُ ولنساء فافياً علينا ما يمرّ لنا صيرة
عل أن الفتى يكعُ أكرولٍ ومسهاب ، مذاهبه كنيرة
وقال أبو العتاهية :

كلّ امرئٍ في نفسه أهل وأشراف من قريّة ^(٢)
والصنّتُ أجلُ بالقسّ من منطق في غير حيلة
وقال الشاعر :

وإياك وإياك المرء فاته إلى الشرّ دعاء وللشرّ جالب
وكان يقال : المجلة قيّد الكلام .

(١) ملحق ديوانه ٤٧ .

(٢) ديوانه ٢٨٢ .

أطال خطيب بين يدي الإسكندر فزبره ، قال : ليس حُسن الخطابة على حَسَبِ طاقته الخطيب ؛ ولكن على حسب طاقته السامع .

محمد الباقر عليه السلام : إني لأكره أن يكون مقدارُ لسان الرجل قاصلاً على مقدار علمه ؛ كما أكره أن يكون مقدارُ علمه قاصلاً على مقدار عقله .

أطال ربيعة الرأي الكلام ، وعنده أعرابي ، فلما فرغ من كلامه ، قال للأعرابي : ماتعدون النبي والنهضة فيكم ؟ قال : ما كنت فيه أصلحك الله منذ اليوم ! ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام : إذا تمَّ للعقلُ فهمُ الكلام .

واصل بن عطاء : لأن يقولَ الله لي يوم القيامة : هَلَّا قلتُ ! أحبُّ إلى ، من أن يقول لي : لم قلتُ ؟ إني إذا قلتُ طالبي بالبرهان ؛ وإذا سكتَ لم يطالبي بشيء .

نزل السمان من المنذر رابية ، فقال له رجل من أصحابه : أبيت اللعن ! لو ذُبح رجلٌ على رأس هذه الرابية ، إلى أين كان يبلغ دمه ؟ فقال السمان : للدبوح والله أمت ، ولأنظرن إلى أين يبلغ دمك ! فذبحه . فقال رجل : رب كلمة تقول : دَغْنِي .

أعرابي : رب منطلق صدع جعاً ، ورب سكوت شغب صدفاً .

قالت امرأة لبعائها : مالك إذا حرحت نطقت وتحدثت ، وإذا دخلت قصدت وسكت ؟ قال : لأني أدقّ عن جليلك ، وتحلّين عن دقيقي .

الشيخ : كانوا يعملون السكوت كما يعملون الكلام .

علي بن هشام :

لمعرك إن الحلم زينٌ لأهله وما الحلم إلا عادة وتحلمُ

إذا لم يكن صمتُ الفتى من بلادةٍ وعيٍ ، فإن الصمت أهدى وأسلمُ

وهيب بن الورد : إن الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت ، والباشرة العزلة

من الناس .

مكث الربيع بن خثيم عشرين سنة لا يتكلم إلى أن قُتل الحسين عليه السلام ،
فُسِّمَتْ منه كلمة واحدة ، قال لما بلغه ذلك : أوقد فعلوها ! ثم قال : « اللهم طهر السموات
والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أمت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » . ثم عاد
إلى السكوت حتى مات .

الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لب :

زعم ابن سلمى أن حلي ضربي ما ضرَّ قَبْلِي أهلة الجِلمِ
إنَّا أناس من محبيهم صدق الحديث ورأيهم حتم
لبسوا الحياء فإن نظرت حببتهم صفوا ولم يمتسهم سقم
إني وجدت القدم أكبر عذم القول وذلك القدم
والمرء أكثر عيبه ضراً خطب اللسان وصنته حكم
جاء في الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم المؤمن صموتا فادنوا
منه ، فإنه يلقى الحكمة » .

سفيان بن عيينة : من حُرِّم العلم فليصمت ، فإن حُرِّمَها ظلمت خير له .
وكان يقال : إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك .



واعلم أن هذه الخطبة خطبها أمير المؤمنين عليه السلام في الجمعة الثالثة من خلافته ،
وكنى فيها عن حال نفسه ، وأعلمهم فيها أنهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه ،
وطاعنهم له ؛ وهكذا وقع الأمر ، فإنه قيل أن أهل العراق لم يكونوا أشدَّ اجتماعاً عليه
من الشهر الذي قُتل فيه عليه السلام .

وجاء في الأخبار أنه عقَّد للحسن ابنه عليه السلام على عشرة آلاف ، ولأبي أيوب

الأصاري على عشرة آلاف ، ولفلان وفلان ؛ حتى اجتمع له مائة ألف سيف ، وأخرج مقدمته أمامه يريد الشام فضربه الأمينُ ابنِ منعم ؛ وكان من أمره ما كان ، وانقضت تلك الجوع ، وكانت كالقنم قد راعبها .

ومعنى قوله : « ألقم له رقابكم » اطمئنه ؛ ومعنى « أشرتم إليه بأصابعكم » أعظمتوه وأحلتوه ، كالمك الذي يشار إليه بالإصبع ، ولا يخاطب باللسان . ثم أخبرهم أنهم يلبثون بعده ما شاء الله ؛ ولم يحدد ذلك بوقت معين ؛ ثم بطلع الله لهم من يجمعهم ويصمهم ، يعني من أهل البيت عليه السلام ؛ وهذا إشارة إلى المهدي الذي يظهر في آخر الوقت . وعند أصحابنا أنه غير موجود الآن وسيوجد ، وعند الإمامية أنه موجود الآن .

قوله عليه السلام : « فلا تطمعوا في غير مقبل ، ولا تياسوا من مدبر » ؛ طاهر هذا الكلام متناقض ؛ وتأويله أنه نهى عن أن تطمعوا في صلاح أمورهم على يد رئيس غير مستأنف الرئاسة ؛ وهو معنى مقبل ، أي قدم ؛ تقول : سوف أفعل كذا في الشهر المقبل ، وفي السنة المقبلة ، أي القادمة ؛ يقول : كل الرياسات التي تشاهدونها فلا تطمعوا في صلاح أموركم بشيء منها ، وإنما تنصلح أموركم على يد رئيس يقدم عليكم ، مستأنف الرئاسة خامل الذكر ، ليس أبوه بحليفة ، ولا كان هو ولا أبوه مشهورين بينكم برئاسة ، بل يتبع ويعطو أمره ؛ ولم يكن قبل معروفًا هو ولا أهله الأدبون ، وهذه حفة للمهدي الموعود به .

ومعنى قوله : « ولا تياسوا من مدبر » ، أي وإذا مات هذا المهدي وخلفه بنوه بعده ، فاضطرب أمر أحدهم فلا تياسوا وتشككوا وتقولوا : لمنا أخطأنا في اتباع هؤلاء ؛ فإن للضطرب الأمر منا مستتب دعائمه وتنظم أموره ، وإذا زلت إحدى رجليه ثبتت

الأخرى فثبتت الأولى أيضا . ويرى : « فلا تطعنوا في عين مقبل » ، أى لا تحاربوا أحدا منا ولا تياسوا من إقبال من يدبر أمره منا .

ثم ذكر عليه السلام أنهم كنعوم السماء ، كلما خوى نجم طلع نجم . خوى : مال للمغيب .

ثم وعدم بقرب الفرج ، فقال : إن تكامل صنائع الله عندكم ، ورؤية ما تأملونه أمر قد قُرب وقته ، وكأنكم به وقد حضر وكان ، وهذا على نمط اللوايحيد الإلهية بقيام الساعة ، فإن المكتب المذلة كلها صرحت بقربها ، وإن كانت بعيدة عندنا ، لأن البعيد في معلوم الله قريب ، وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ .

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام ، وهي من الخطب التي تشتمل على ذكر الملاحم
 اتخذه في الأول قبل كل أول ، والآخير بعد كل آخير ، وبأوليته وجب
 أن لا أول له ، وبآخريته وجب أن لا آخير له .

الشرح :

يقول : الباري تعالى موجود قبل كل شيء ، يشير العقل إليه ويفرضه أول
 الموجودات ؛ وكذلك هو موجود بعد كل شيء ، يشير العقل إليه ويفرضه آخر ما يبقى
 من جميع الموجودات ؛ فإن الباري سبحانه بالاعتبار الأول يكون أولا قبل كل
 ما يفرض أولا ، وبالاعتبار الثاني يكون آخر ما يفرض آخر .

فأما قوله : « بأوليته وجب أن لا أول له . . . » ، إلى آخر الكلام ، فيمكن أن
 يفسر على وجهين :

أحدهما أنه تعالى لما فرضناه أولا مطلقا ، تبع هذا الفرض أن يكون قديما أزليا ،
 وهو المعنى بقوله : « وجب أن لا أول » وإنما تبعه ذلك ، لأنه لو لم يكن أزليا لكان محدثا
 فكان له محدث ؛ والمحدث متقدم على المحدث ؛ لكننا فرضناه أولا مطلقا ، أي لا يتقدم
 عليه شيء ، فيلزم المحال والخلف . وهكذا القول في آخريته ، لأننا إذا فرضناه آخر مطلقا ؛
 تبع هذا الفرض أن يكون مستحيل للمدم ، وهو المعنى بقوله : « وجب أن لا آخر له »

وانما تبعه ذلك ؛ لأنه لو لم يستعمل عدمه لصح علمه ؛ لكن كل صحيح ويمكن فليفرض وقوعه ، لأنه لا يلزم من فرض وقوعه محال ، مع فرضنا إياه صحيحا وممكنا ؛ لكن فرض تحقق عدمه محال ، لأنه لو عدم لما عدم بعد استمرار الوجودية إلا بضد ، لكن الضد المعدم يبقى بعد تحقق عدم الضد المعلوم لاستحالة أن يعدمه ، ويعدم معه في وقت واحد ؛ لأنه لو كان وقت عدم الطارى هو وقت عدم الصد للطروء عليه ، لامتنع عدم الضد الطروء عليه ؛ لأن حال عدمه الذى هو الأثر المتجدد تكون الملة الموجبة للأثر معدومة ، والمعلوم يستحيل أن يكون مؤثرا أبنة ؛ فثبت أن الضد الطارى لا بد أن يبقى بعد عدم الطروء عليه ولو وقتا واحدا ، لكن بقاء عدمه ولو وقتا واحدا يناقض فرضنا كون الطروء عليه آخر مطلقا ، لأن الضد الطارى قد بقى بعده ، فيلزم من الخلف والمحال ما لزم في المسألة الأولى .

والتفسير الثانى : ألا تكون الضائر الأربع موصولة إلى البارى سبحانه ، بل يكون منها ضميران راجعين إلى غيره ، ويكون تقدير الكلام بأولية الأول الذى فرضنا كون البارى سابقا عليه ، علمنا أن البارى لا أول له ، وبآخريه الآخر الذى فرضنا أن البارى متأخر عنه ؛ علمنا أن البارى لا آخر له ، وإنما علمنا ذلك لأنه لو كان سبحانه أولا لأول الموجودات وله مع ذلك أول لزم التسلسل ، وإثبات محدثين ومحدثين إلى غير نهاية ، وهذا محال .

ولو كان سبحانه آخر الآخر للموجودات وله مع ذلك آخر لزم التسلسل ، وإثبات أعداد تعدد ويمد منها غيرها إلى غير نهاية ، وهذا أيضا محال .

الأصل :

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً يُؤْتَقِنُ فِيهَا الشَّرُّ الْإِعْلَانُ ، وَالْقَلْبُ الْإِسْلَامُ .

أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ، وَلَا يَسْتَوِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنِي ، وَلَا تَتَرَامَوْا
بِالْأَبْصَارِ عِندَ مَا تَسْمَعُونَ مِنِّي ؛ فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّفْسَةَ ، إِنْ الَّذِي
أَنْبَتُكُمْ بِهِ هُوَ الَّذِي الْأُمِّيُّ ^(١) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ وَاللَّهُ ^(٢) مَا كَذَبَ الْبَلْعُ ، وَلَا جَهْلَ
السَّامِعُ .

لَكَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَى ضَيْلٍ قَدْ نَمَقَ بِالشَّامِ ، وَفَحَصَ بِرِايَاتِهِ فِي صَوَاحِي كَوْفَانِ ،
فَإِذَا فَعَرَّتْ فَاغْرِسُهُ ، وَأَشْعَدَّتْ شَكِيبَتُهُ ، وَتَهَاتَتْ فِي الْأَرْضِ وَطَائُهُ ، عَضَّتِ الْفِتْنَةُ
أَبْنَاءَهَا بِأَنْبِيَاءِهَا ، وَمَاجَتْ الْحَرْبُ بِأُمُومِهَا ، وَبَدَأَ مِنَ الْيَوْمِ كُلُّوْحُهَا ، وَمِنْ اللَّيَالِي
كُدُّوْحُهَا ، فَإِذَا أَبْنَعَ زَرْعُهُ ، وَقَامَ عَلَى بَنِيهِ ^(٣) ، وَهَدَرَتْ شَقَاقِفُهُ ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ ،
عُقِدَتْ رَايَاتُ الْعَيْنِ الْمُصَلَّةِ ، وَأَفْتَلَنَ كَالْثَبَلِ الْمُظْلِمِ ، وَالْبَحْرِ الْمَلْتَعِلِ .
هَذَا وَكَمْ يَحْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ يَوْمَرُ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ أَوْ عَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُ
الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ ، وَيُخَصِّدُ الْقَائِمُ ، وَيُخْطِمُ الْمُخْصُودُ .

الْبَرْخُ :

في الكلام محذوف ، وتقديره : « لا يجرمكم شِقَاقِي على أن تكذبوني » ، والمفعول
فصلة وحذفه كثير ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرُّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ^(١) ،
محذوف العائد إلى الموصول ؛ ومنها قوله سبحانه : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ
رَحِمَ ﴾ ^(٢) ، أي مَنْ رَحِمَهُ ، ولا بد من تقدير المائد إلى الموصول ؛ وقد قرئ قوله : ﴿ وَمَا تَحِلُّهُ
أَبْدِيهِمْ ﴾ ، و ﴿ مَا تَحِلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ^(٣) محذوف المفعول .

لا يجرمكم : لا يجرمكم ، وقيل : لا يكسبكم . وهو من الألفاظ القرآنية ^(٤) .

(١) في مخطوطة التهج بعد هذه الكلمة « الفرش » (٢) مخطوطة من مخطوطة التهج .

(٣) مخطوطة التهج : « سافه » (٤) سورة العنكبوت ٦٢ .

(٥) سورة هود ١٢٣ . (٦) سورة يس ٣٥ .

(٧) من قوله تعالى في سورة هود ٨٩ : ﴿ وَبِأَنفُسِكُمْ لَا يَجْرِى مَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ
مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ... ﴾

ولا يستهويتمكم ، أى لا يستهينتمكم بحملكم هائمين .

ولا تتراموا بالأبصار ، أى لا يلحظوا بعضكم بعضاً ؛ فقل المكر المكذب .

ثم أقسم بالذى قلن الحبة ، وبرأ النسمة ، قلن الحبة من البر ، أى شقها وأخرج منها الورق الأخضر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَفْهَقَ قَالِقُ الْكُذِّبِ وَالنَّوْىِٕ ﴾ (١) .

وبرأ النسمة ؛ أى خلق الإنسان ، وهذا القسم لا يزال أمير المؤمنين يقيم به ، وهو من مكراته ومبعضاته .

والمبلغ والسامع هو نفسه عليه السلام ، يقول : ما كذبت على الرسول نعمدا ، ولا جهلت ما قاله فأقل منه غلطا .

والضليل : الكثير الضلال ، كالشريب والفتيق ونحوهما .

وهذا كناية عن عبد الملك بن مروان ، لأن هذه الصفات والأمارات فيه أنم منها في غيره ، لأنه قام بالشام حين دعا إلى نفسه ، وهو معنى نفيته ، وفحصت رايته بالكوفة ، تارة حين شخص بنفسه إلى العراق ، وقتل مصعبا ، وتارة لما استخلف الأمراء على الكوفة كبشر بن مروان أخيه وغيره ، حتى انتهى الأمر إلى الحجاج ، وهو زمان اشتداد شكينة عبد الملك وثقل وطأته ، وحينئذ صبب الأمر جددا ، وتفاقت الفتن مع الخوارج وعبد الرحمن بن الأشعث ، فلما كمل أمر عبد الملك - وهو معنى « أبيع زرعه » هلك ، وعقدت رايات الفتن المضلة من بعده ، كعروب أولاده مع بني المهلب ، وكعروبهم مع زيد بن علي عليه السلام ، وكالفتن الكائنة بالكوفة أيام يوسف بن عمر وخالد القسري وعمر بن هبيرة وغيرهم ، وما جرى فيها من الظلم واستئصال الأموال ، وذهاب النفوس .

وقد قيل : إنه كفى عن معاوية وما حدث في أيامه من الفتن ، وما حدث بعده من فتنة يزيد وعبيد الله بن زياد ، وواقعة الحسين عليه السلام ، والأول أرجح ، لأن معاوية في أيام أمير المؤمنين عليه السلام كان قد تَمَقَّقَ بالشام ، ودعاهم إلى نفسه ، والكلام يدل على إنسان يتعمق فيما بعد ، ألا تراه يقول : لكأنني أنظر إلى ضليل قد تَمَقَّقَ بالشام !

• • •

ثم نعود إلى تفسير الألفاظ والعريب .

التميق : صوت الراعي منعه . وفحص راياته . من قولهم : ماله مفحص قطاة ، أى مجتمها ، كأنهم جعلوا ضواحي الكوفة مفحصاً ومجماً لراياتهم .

وكوفان : اسم الكوفة ، والكوفة في الأصل اسم الرملة الحمراء ؛ وسما سميت الكوفة . وضواحيها : بواحيها القريبة منها البارزة عنها كما يريد رُسْتاقها .

وفمرت فاغرت : فتح فاه ، وهذا من باب الاستعارة ، أى إذا فتك فتح فاه وقتل ؛ كما يفتح الأسد فاه عند الافتراس والتأيب للفتنة .

والشكيمة في الأصل : حديدة منقرصة في العظام في فم الدابة ، ثم قالوا : فلان شديد الشكيمة ، إذا كان شديد المراس شديد النفس غير الانقياد .

وثقلت وطأته : عظم حَوْره وطمه . وكلوح الأيام : عبوسها ؛ والكدوح : الآثار من الجراحات .

والقروح ، الواحد الكدح ، أى الخدش .

والمراد من قوله : « من الأيام » ، ثم قال : « ومن الهيا » أن هذه الفتنة مستمرة الزمان كله ؛ لأن الزمان ليس إلا النهار والليل .

وأبنع الزرع : أدرك ونضج ؛ وهو البنع والبنع ، بالفتح والميم ؛ مثل النضج والتضج ؛

ويحوز ينح الزرع بغير همز ، ينح ينوعا ، ولم تسقط الياء في الضارع لأنها تقوت بأختها ،
وزرع ينح ويانع ؛ مثل نصيح وناضج . وقد روى أيضا هذا الوضع بمحذف الهمز .
وقوله عليه السلام : « وقام على بنه » لأحسن أن يكون « بنح » هائنا جمع هانع كصاحب
وصحْب ، ذكر ذلك ابن كيسان ؛ ويحوز أن يكون أراد المصدر ، أي وقام على صفة وحالة
هي نصجه وإدراكه .

وهدرت شفايقه ، قد مرّ تفسيره في الشَّقْشِقِيَّة وِرْقَت بوارقه : سيوفه ورماحه .
والمضلة : المسرة العلاج داء ممصل .

وبخرق الكوفة : يقطعها . والقاصف : الريح القوية تكسر كل ما يمر عليه وتقصفه .
ثم وعد عليه السلام بظهور دولة أخرى ، فقال : « وعن قليل تلتف القرون بالقرون » ؛
وهذا كناية عن الدولة العباسية التي ظهرت على دولة بني أمية . والقرون : الأجيال من
الناس ، واحدها قرن ، بالفتح .

ويحصد القائم ، ويحطّم المحصود : كناية عن قتل الأمراء من بني أمية في الحرب ،
ثم قتل للأسودين منهم صبرا ، فحصد القائم قتل المحاربة ، وحطّم الحصيد : القتل صبرا ؛ وهكذا
وقعت الحال مع عهد الله بن علي ، وأبي العباس السفاح .

(١٠١)

ومن خطبة له عليه السلام تجرى هذا الجرى :

الأصل :

وَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِنَقَاشِ الْحِسَابِ وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ ،
خُسُوعًا قِيَامًا قَدْ أَجْلَسَهُمُ الْعَرَقُ ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ ، فَأَحْسَنَهُمْ حَالًا مَنْ وَدَّ
لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعًا ، وَانْتَفَى مِنْهَا .

• • •

الشرح :

هذا شرح حال يوم القيامة ؛ والنقاش : مَنَعَرٌ نقش ؛ أى استقصى فى الحساب ؛
وفى الحديث : « من نقش الحساب عذب » .

والجهم العرق : سال منهم حتى بلغ إلى موضع اللجام من الدابة ؛ وهو الفم .
ورجفت بهم : تمزكت واضطربت ، رجف برجف بالهم ؛ والرجفة : الزلزلة
والرجاف من أماء البحر ؛ سمي بذلك لاضطرابه .

ثم وصف الزحام الشديد الذى يكون هناك ، فقال : أحسن الناس حالا هناك مَنْ
وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعًا ، وَمَنْ وَجَدَ مَكَانًا يَسَعُهُ .

• • •

الأصل :

ومنها :

فَتَنَّا كَفِيلَ الْمُظْلِمِ ، لَا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ ، وَلَا تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ ، تَأْتِيكُمْ
مَرْمُومَةٌ مَرْحُومَةٌ يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا ، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا ؛ أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَذِبُهُمْ ، قَلِيلٌ

سَلْبُهُمْ ، يُحَايِدُهُمْ فِي أَفْئِ قَوْمٍ أَذِلَّةٌ حِنْدَ الْمَتَكْبِرِينَ ، فِي الْأَرْضِ يَجْهَوْنَ لَوْ أَنَّ أَوَّلِي الْأَمَاءِ
مَمْرُوفُونَ ، فَوَيْلٌ لَكَ يَا بَصْرَةَ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ جَيْشٍ مِنْ يَنْقَمُ أَفْئِ إِلَّا رَهَجَ لَهُ وَلَا حِسَ ،
وَسَيُبْتَلَى أَهْلُكَ بِالْمَوْتِ الْأَحْمَرِ ، وَالْجُوعِ الْأَعْبَرِ !

البَيْعُ

قطع الليل : جمع قِطْع ؛ وهو الظلمة ، قال تعالى : ﴿ قَاسِرٍ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ
الَّيْلِ ﴾ ^(١) .

قوله : « لا تقوم لها قائمة » ، أى لا تنهض محرسها فئة ناهضة ، أو لا تقوم لتلك الفتن
قائمة من قوائم الخيل ؛ يعنى لا سبيل إلى قتال أهلها ، ولا يقوم لها قلمة قائمة أو بنتية قائمة
بل تنهدم .

قوله : « ولا يرد لها راية » ، أى لا ينهزم ولا تغر ، لأنها إذا غرت فقد ردت
على أسقامها .

قوله : « مزمومة مرحوة » ، أى تامة الأدوات كاملة الآلات ، كالبناقه التى عليها
رحلها وزمامها قد استعدت لأن تُركب .

يحفرها : يدفعها . ويجهدها : يحمل عليها فى السير فوق طاقتها ؛ جهدت دابتي ؛
بالتعب ، ويحوز : أجهدت ؛ والمراد أن أرباب تلك الفتن يجتهدون ويجهدون فى إضرار
فارها ، رجلا وفرسانا ، فالرجل كفى عنهم بالقائد ، والفرسان كفى عنهم بالراكب .
والكلب : الشدة من البرد وغيره ، ومثله الكلبة ؛ وقد كلب الشتاء ، وكلب
القمح ، وكلب العدو ، والكلب أيضا : الشر ، دفعت عنك كلب فلان ، أى
شره وأذاه .

وقوله : « قَلِيلٌ سَلِيبُهُمْ » ، أى همهم القتل لا السلب ، كما قال أبو تمام .

إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْعَابِ مِمَّنْ يَوْمَ الْكَرْبَةِ فِي الْمَلُوبِ لَا الْمَلْبِ (١)

ثم ذكر عليه السلام أن هؤلاء أرباب العن يجاهدون قوم أذلة ، كما قال الله تعالى :
« أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ » (٢) ، وذلك من صفات المؤمنين .

ثم قال : هم مجهولون عند أهل الأرض لحولهم قبل هذا الجهاد ؛ ولكنهم معروفون عند أهل السماء ، وهذا إنداز على حقيقة مجرى في آخر الزمان ؛ وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله بنعود ذلك ، وقد فسر هذا الفصل قوم وقالوا إياه أشار به إلى الملائكة لأنهم مجهولون في الأرض ، معروفون في السماء ، واعتذروا عن لفظة « قوم » ، فقالوا : يجوز أن يقال في الملائكة قوم كما قيل في الجن قوم ؛ قال سبحانه : « فَمَا قُصِيَ وَلَوْ أَنَّ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ » (٣) ؛ إلا أن لفظ « أذلة عند الشكركين » يحدد هذا التفسير .

ثم أخبر بهلاك البصرة بجيش من يقم الله لأرهمج له ولا حسن ، الرهمج : العبار ، وكفى بهذا الجيش عن جذب وطأون يصيب أهلها حتى يبيدتم والموت الأحمر ، كناية عن الوباء والجوع .

الأعبر : كناية عن المحل ، وسُمي الموت الأحمر لشدة ، ومنه الحدث : « كما إذا احمرَّ الهأس اتفينا رسول الله » ووصف الجوع بأنه أعبر ، لأن الجائع يرى الآفاق كأن عليها غبرة وظلاما ؛ وفسر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الرهمج ؛ وهو بعيد ، لأن جيشه كان ذا حسن ورهمج ، ولأنه أئبر البصرة بهد الجيش عند حدوث تلك الفتن ؛ ألا تراه قال : « فويل لك بالبصرة عند ذلك » ، ولم يكن قبل خروج صاحب الرهمج فتنة شديدة على الصفات التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام .

(١) ديوانه ١ : ٧٩ .

(٢) سورة المائدة ٥٤ .

(٣) سورة الأحقاف ٩٩ .

(١٠٢)

الْأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَنْظُرُوا إِلَى اللَّهِ نِيًّا فَظَرَّ الرَّاهِدِينَ فِيهَا ؛ الصَّادِقِينَ عَنْهَا ؛ فَالِهَا وَاللَّهُ عَمَّا قَلِيلٍ
تَزِيلُ النَّاوِي السَّاكِنِ ؛ وَتَفْجَعُ الْكُفْرَ الْآيِنَ ؛ لَا يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَأَذْبَرُ ،
وَلَا بُدْرَى مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيَنْتَظِرُ .

سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْخُرْنِ ، وَجَلْدُ الرِّجَالِ فِيهَا إِلَى الصَّنْفِ وَالْوَهْنِ ؛ فَلَا يَمُرُّكُمْ
كَثْرَةُ مَا يَمْحُصُكُمْ فِيهَا لِقَلَّةِ مَا يَنْصَحُكُمْ مِنْهَا .
رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا تَفَكَّرَ فَأَغْيَرَ ، وَأَعْتَدَ فَأَنْصَرَ ، فَكَانَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ اللَّهِ نِيًّا
عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ ؛ وَكَانَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ ، وَكُلُّ
مُعْدُودٍ مُنْقَضٍ ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ ذَابَ .

• • •

الْبَيِّنُ :

الصادقين عنها ، أى للمرصين ، واسراء صدوق : التى تعرض وجهها عليك ثم

تصدف عنك .

وعما قليل : من قليل ، ومازائدة .

والناوى : للقيم ، ثوى بثوى ثواء وثوباً ، مثل مضى يمضى مضاء ومُصياً ؛ ويحوز :

ثويتُ بالبصرة وثويت البصرة ، وجاء « أنويتُ بالمكان » ، لسة في « ثويت ،

قال الأعشى :

أَتَوَى وَقَصَّر لَيْسَ لَهُ لِسِيرُودًا فَصَصَتْ وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْبَةٍ مَوْعِدًا^(١)

والمترَف : الذي قد أترفته النعمة ، أى أطمعته ؛ يقول عليه السلام : لا يعود على الناس ما أدبر وتولى عنهم من أحوالهم الماضية ، كالشباب والقوة ، ولا يعلم حال المستقبل من صحة أو مرض ، أو حياة أو موت لينتظر ، وينظر إلى هذا المعنى قول الشاعر :

وَأَضْيَعَ الْعَمْرَ ، لَا لِلْمَاضِي انْتَهَمْتُ بِهِ وَلَا حَصَلْتُ عَلَى عِلْمٍ مِنَ الْبَاقِي

ومشوب : مخلوط ، شبهه أشوبه فهو مشوب ، وجاء « مشيب » في قول الشاعر :

• وماء قدور في القيصاع مشيب •

فبناء على « شيب » لم يسم فاعله ، وفي المثل : « هو يشوب ويروب » ، بضرب لمن يخلط في القول أو العمل .

والجلد : الصلابة والقوة . والوهن : الضعف بقية ، وإعماطف للتأكيد ، كقوله تعالى :
﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ لَا يَمَثُّهَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَثُّهَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾^(٣) .

ثم هى عن الاغترار بكثرة المعجب من الدنيا ، وعمل حسن هذا النهى ، وقبح الاغترار بما يشاهده عيانا من قلة ما يصعب مفارقتها منها . وقال الشاعر :

فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَتْ يَجْمَعُهُ إِلَّا حَفُوطًا غَدَاةَ الْبَيْنِ فِي خِرَاقٍ

وغدير نفعة أعواد شيب ، هـ . وقل ذلك من زاد لمنطقي

ثم جعل التفكير علة الاعتبار ، وجعل الاعتبار علة الإحصار ؛ وهذا حق ، لأن الفكر يوجب الانتعاض ، والانتعاض يوجب الكشف ، والمشاهدة بالبصيرة التى نورها الانتعاض .

(١) ديوانه ١٥٠ ، وروايته : • ومضى • .

(٢) سورة المائدة ٤٨ .

(٣) سورة طهر ٣٥ .

ثم ذكر أن ما هو كائن وموجود من الدنيا سيصير عن قليل - أي بعد زمان قصير معدوماء والزمان القصير هاهنا : انقضاء الأجل وحضور الموت .

ثم قال : إن الذي هو كائن وموجود من الآخرة سيصير عن قليل - أي بعد زمان قصير أيضا - كأنه لم يزل ؛ والزمان القصير هاهنا هو حضور القيامة ؛ وهي وإن كانت تأتي بعد زمان طويل ، إلا أن الميت لا يحس بطوله ، ولا فرق بين ألف سنة عنده إذا عاد حيا ، وبين يوم واحد ، لأن الشعور بالبطء في الزمان مشروط بالعلم بالحركة ، ويدل على ذلك حال النائم . ثم قال : كل معدود متقص ، وهذا تنبيه بطريق الاستدلال النظري على أن الدنيا زائلة ومنصرفة ، وقد استدلل المتكلمون بهذا على أن حركات الملك يستحيل ألا يكون لها أول ، فقالوا لأنها داخلة تحت القيد ، وكل معدود يستحيل أن يكون غير متناه ، والكلام في هذا مذكور في كتابنا المتفلي

ثم ذكر أن كل ما يتوقع لا يبد أن يأتي ، وكل ما سماني فهو قريب وكأنه قد أتى ، وهذا مثل قول قس بن ساعدة الإباضي : مالي أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون ! أَرْضُوا بِالْمَقَامِ فَأَقَامُوا ، أَمْ تَرَكُوا هَذَا فَنَامُوا ! أَقْسَمُ فُسُ قَسَا ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ نَخْرًا ، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لِعِبرًا ؛ سَقْفٌ مَرْقُوعٌ ، وَمِهَادٌ مَوْصُوحٌ ، وَبُحُورٌ تَمُورُ ، وَبَحَارٌ لَا تَمُورُ . اسْمِعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَهَوَا ! مَنْ عَاشَ مَاتَ ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٌ .

الأصل :

ومنها :

الْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قُدْرَهُ ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا إِلَّا يَغْرِقَ قُدْرَهُ ؛ وَإِنْ مِنْ أُنْقَضِ الرُّجَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَعَبْدًا وَكَذَلِكَ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ ، جَائِرًا عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ ، سَائِرًا بِغَيْرِ

دَلِيلٌ ؛ إِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثٍ أَلْهَيْتَا عَمَلٍ ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثٍ الْآخِرَةِ كَسِلَ ؛
كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ؛ وَكَأَنَّ مَا وَفَى بِهِ سَاقِطٌ عَنْهُ .

الْبَزْخُ

قوله عليه السلام : « العالم مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ » ، من الأمثال المشهورة عنه عليه السلام ،
وقد قال الناس بعده في ذلك ما كثروا ، نحو قولهم : إذا جهلت قدر نفسك فأنت تقدر غيرك
أجهل . ونحو قولهم : مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ بَيْتِهِ ، فَالنَّاسُ أَعْذَرُ مِنْهُ إِذَا لَمْ يَعْرِفُوهُ ، ونحو قول
الشاعر أبي الطيب :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى ^(١)

ثم عُبِّرَ عن هذا المعنى بعبارة أخرى ، فصارت مثلاً أيضاً ، وهي قوله : « كفى بالمرء
جهلاً ألا يعرف قدره » ، ومن الكلام المروى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام
مرفوعاً : « ما هلك امرؤ عرف قدره » ، رواه أبو العباس المبرد عنه في الكامل .

قال : ثم قال أبو عبد الله عليه السلام : وما إخالُ رجلاً يرفع نفسه فوق قدرها
إلا من خلل في عقله .

وروى صاحب " الكامل " أيضاً عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ، قال : لما
حضرت الوفاة علي بن الحسين عليه السلام أبي ضمني إلى صدره ، ثم قال : يا بني أوصيك
بما أوصاني به أبي يوم قُتِلَ ، وبما ذكر لي أن أباه علياً عليه السلام أوصاه به : يا بني
عليك ببذل نفسك ، فإنه لا يسر أباك بدُلٍّ منه حمر النعم .

وكان يقال : مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ اسْتَرَاعَ .

وفي الحديث المرفوع : « مازع امرؤ نفسه في الدنيا درجة إلا حطه الله تعالى في الآخرة درجات » .

وكان يقال : مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاحِطُونَ عَلَيْهِ . ثم ذكر عليه السلام أَرْبَعًا مِنْ أَمْضِ الْبَشَرِ إِلَى اللَّهِ عَبْدًا وَكَوَلَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ ، أَيْ لَمْ يَمُتْهُ بِمَوْتِهِ وَالطَّافَهُ ، لَعَلَّهُ أَنَّهُ لَا يَنْجِعُ ذَلِكَ فِيهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْحَذِرُ إِلَى الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ ، وَلَا يُؤَثِّرُ شَيْءٌ مَا فِي تَحْرِيكِ دَوَائِبِهِ إِلَيْهَا ، فَيَكِلُهُ اللَّهُ حِينَئِذٍ إِلَى نَفْسِهِ .

والخاتمة : العادل من السمات ، ولما كان هذا الشق خاطئاً فيما يستفاد ويذهب إليه مستنداً إلى الجهل وفساد النظر جعله كالسائر بغير دليل .

والحرث هاهنا : كل ما يعمل ليشر فائدة ، فحرث الدنيا كالتيجارة والزراعة ، وحرث الآخرة فعل الطاعات واجتناب المنقبعات والمعاصي ، ومسمى حرثنا على جهة المحاذ ، نشيدها حرث الأرض ، وهو من الألفاظ القرآنية .

وكَيْلُ الرَّجُلِ بِكَسْرِ السَّيْنِ ، يَكْسِلُ ، أَيْ يَنْتَقِلُ عَنِ الْأُمُورِ ، فَهُوَ كَسْلَانٌ ، وَقَوْمٌ كَسَالَى وَكَسَالَى بِالْفَتْحِ وَالْعَمَمِ .

قال عليه السلام : حَتَّى كَأَنَّ مَاعْمَلَهُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ ، لِحُرْمَةِ وَجَدِهِ فِيهِ ، وَكَأَنَّ مَا وَدَى عَنْهُ - أَيْ فَتَرَفَهُ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ - سَاقَطَ عَنْهُ ، وَغَيْرُ وَاجِبٍ عَلَيْهِ لِإِعْمَالِهِ وَتَقْصِيرِهِ فِيهِ .

• • •

الْأَمَلُ :

ومنها :

وَذَلِكَ زَمَانٌ لَا يَنْجُو فِيهِ إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ نَوَمَةٍ ، إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرِفْ ، وَإِنْ غَابَ

أَمْ يُفْتَحَدُّ؛ أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهَدْيِ وَأَعْلَامُ الشَّرِّ، لَيْسُوا بِالْمَصَابِيحِ وَلَا الْمَذَابِيحِ
الْبَذَرِ، أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللَّهُ لَهُمُ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضُرَاءَ نِقْمَتِهِ .
أَيُّهَا النَّاسُ ؛ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَى فِيهِ الْإِسْلَامُ كَمَا يُكْفَى الْإِنَاءُ
بِمَا فِيهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَادَ كُمْ مِنْ أَنْ يَحْجُورَ عَلَيْكُمْ ؛ وَلَمْ يُعِدْ كُمْ مِنْ أَنْ
يَبْتَلِيَكُمْ ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) (١) .

• • •

قال الرضى رحمه الله تعالى :

أَمَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « كُلُّ مُؤْمِنٍ نَوْمَةٌ » فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ الْخَامِلَ الَّذِي كَرَّ الْقَلِيلَ
الشَّرِّ ، وَالْمَصَابِيحُ : جَمْعُ مِصْبَاحٍ ؛ وَهُوَ الَّذِي يَبْسُجُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْفِئَادِ وَالْهَائِمِ ،
وَالْمَذَابِيحُ : جَمْعُ مِذْبَاحٍ ، وَهُوَ الَّذِي إِذَا تَجَمَّعَ لِعَبِيدِهِ بِفَاحِشَةٍ أَذَاعَهَا ، وَنَوَّاهَا .
وَالْبَذَرُ : جَمْعُ بَذُورٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَكْثُرُ سَفْهُهُ وَيَلْغُو مَنَظِقَهُ .

• • •

الْبَيْتُ :

شهد : حضر ، وكفأت الإمام أى قلبته وكبته . وقال ابن الأعرابي : يجوز أ كفاته
أيضا ، والْبَذَرُ : جَمْعُ بَذُورٍ مِثْلُ صَبُورٍ وَصُبْرٍ ؛ وَهُوَ الَّذِي يَذْبَعُ الْأَسْرَارَ ؛ وَلَيْسَ كَمَا قَالَ
الرَضَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ بَذُورًا وَإِنْ لَمْ يَكْثُرْ سَفْهُهُ وَلَمْ يَلْغُ مَنَظِقَهُ ؛ بَأَن
يَكُونُ حُلَّةً مَذِطًا مِنْ غَيْرِ سَفْهُ وَلَا لَغْوٍ . وَالضَّرَاءُ : الشَّدَّةُ ، وَمِثْلُهَا الْبَأْسَاءُ ؛ وَهِيَ إِسْحَابُ مَوْثِقَانِ
مِنْ غَيْرِ تَذْكِيرٍ ، وَأَجَازُ الْفَرَاءِ أَنْ يَجْمَعَ عَلَى آخِرٍ وَأَبْوَسَ ، كَمَا يَجْمَعُ النَّمَاءُ عَلَى أُنْمٍ .

• • •

واعلم أنه قد جاء في التواضع وهضم النفس شيء كثير ؛ ومن ذلك الحديث المرفوع :
« مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ وَضَعَهُ » .

ويقال : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى : إِنَّمَا كُنْتُكَ لَأَنْ فِي أَخْلَاقِكَ خُلُقًا أَحَبَّ
إِلَى اللَّهِ ، وَهُوَ التَّوَاضُعُ .

ورأى محمد بن واسع ابنه يمشي الخليلاء ، فتداه فقال : وَيْلَكَ أَلَمْ تَعْنِ هَذِهِ الشَّيْئَةَ ،
وَأَبُوكَ أَبُوكَ ، وَأُمُّكَ أُمُّكَ ! أَمَا أُمُّكَ فَاثِمَةٌ ، ابْنُهَا بِأَتَقِي دَرَمًا ؛ وَأَمَا أَبُوكَ فَلَا كَثْرَةَ اللَّهِ
فِي النَّاسِ مِثْلَهُ .

ومثل قوله عليه السلام : « كُلُّ مُؤْمِنٍ نُورَةٌ إِنْ شَهِدَ لَمْ يَسْرِفْ وَإِنْ طَابَ لَمْ يَفْتَقِدْ » ،
قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « رَبِّ أَشْمَتْ أَغْبَرُ ذِي طَيْرِينَ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ
عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ قَسَمَهُ » .

وقال عمر لابنه عبد الله : التمس الرفعة بالتواضع والشرف بالدين ، والعفو من الله بالعفو
عن الناس ، وإياك والخيلاء فتصع من نفسك ، وَلَا تَحْقِرَنَّ أَحَدًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّ
مَنْ تَزِدُّهُ عَيْنًا أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ وَسِيلَةً مِنْكَ .

وقال الأحنف : عجبت لمن جرى في تجرى البول مرتين ، من قرَّجين ، كيف يتكبر !
وقد جاء في كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَا يَنْاسِبُ كَلَامَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ هَذَا : « إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْأَحْفِيَاءَ الْأَتْقِيَاءَ الْأَبْرِيَاءَ ، الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يَفْتَقِدُوا ، وَإِذَا
حَضَرُوا لَمْ يَعْرِفُوا ، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى ؛ يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءٍ مُظْلَمَةٌ » .

وأما إفشاء السر وإذاعته ، فقد ورد فيه أيضا ما يكثر ، ولو لم يرد فيه إلا قوله سبحانه :
(وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَتَّافٍ مَسِينٍ * هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيهِمْ) ^(١) لكفى .

وفي الحديث الرفوع : « مَنْ أَكَلَ أَخُوهُ أَكَلَهُ اللَّهُ مِثْلَهَا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ »
 قيل في تفسيره : هو أن يسعى بأخيه ويحرقه نفعاً بسعيته .

الجنيد : ستر ما عابنت أحسن من إشاعة ما ظننت .

عبد الرحمن بن عوف : من سمع بفاحشة فأفشأها فهو كالقدي أناها .

قال رجل لعمر بن عبيد : إن علياً الأسواري لم يزل منذ اليوم يدركك بسوء
 ويقول : الضال . فقال عمرو : يا هذا ، ما رعبت حق بحالة الرجل حين نقلت إلينا
 حديثه ، ولا وقينتي حتى حين أملتني عن أحي ما أكرهه ! اعلم أن الموت بمننا ، والبعث
 بمحشرنا ، والقيامة تجممنا ، والله يحكم بيننا .

وكان يقال : مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ .

وظالوا في السعاة : يكفيك أن تصدق عمرو إلا منهم ، وإن أصدقهم أخبثهم .

وشى واش رجل إلى الإسكندر ، فقال له : أعجب أن أقبل منك ما قلت فيه ،
 هل أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال : فكف عن الشر يكف عنك .

قال رجل لقياسوف : عابك فلان بكذا ، قال : لتقيني اقبحك بما لم يلقني
 به لحياته .

حاب مصعب بن الزبير الأحنف عن شيء بلاءه عنه ، فأكرهه ، فقال : أخبرني بذلك
 الثقة ، فقال : كلاً أيها الأمير ، إن الثقة لا يميم .

عرض بمص عمال الفضل بن سهل عليه رقعة ساع في طي كتاب كتبه إليه ، فوقع
 الفضل : قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من
 دل على قبيح كمن أجازته وعمل به ، فاطردها الساعي عن عمله ، وأقبحه عن بابك ،
 فإنه لو لم يكن في سماعته كاذباً لسكان في صدقه ثنياً ، إذ لم يرفع الحرمة ، ولم يستر
 العورة ، والسلام .

صالح بن عبد القدوس :

مَنْ يَخْبِرُكَ بِشَمِّهِ عَنْ أَخِي فَهُوَ الشَّامُ ، لَأَمِنْ شَقَمِكَ
 ذَاكَ شَيْءٌ لَمْ يَوَاجِهْكَ بِهِ إِنَّمَا الْهُومُ عَلَى مَنْ أَغْلَسَكَ
 كَيْفَ لَمْ يَنْصُرْكَ إِنْ كَانَ أَخَا ذَا حِفَاطٍ عِنْدَ مَنْ قَدْ ظَلَمَكَ ؟
 طريح بن إسماعيل النخعي^(١) :

إِنْ يَمْلُؤُوا الْخَيْرَ يَخْفُوهُ وَإِنْ عَلِمُوا شَرًّا أَدَاعُوا ، وَإِنْ لَمْ يَمْلُؤُوا كَذَبُوا
 وَمَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَإِنْ غَابَ لَمْ يَفْتَقِدْ » ، أَيْ لَا يُقَالُ : مَا صَنَعَ فَلَانُ ، وَلَا أَيْنَ
 هُوَ ؟ أَيْ هُوَ خَامِلٌ لَا يَبْرَفُ .

وقوله : « أَوْلَئِكَ يَفْتَحُ اللَّهُ بِهِمْ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ » ، وَيَكْشِفُ بِهِمْ ضُرَاءَ النَّقَمَةِ » ؛ وَرَوَى :
 « أَوْلَئِكَ يَفْتَحُ اللَّهُ بِهِمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ » ، وَيَكْشِفُ بِهِمْ ضُرَاءَ نِقْمَتِهِ » ، أَيْ يَرُدُّ عَنْهُمْ يَكُونُ
 الْخَيْرُ وَيُشَدِّقُ الشَّرَّ .

ثُمَّ ذَكَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَنْقَلِبُ فِيهِ الْأُمُورُ الدِّينِيَّةُ إِلَى
 أَعْدَادِهَا وَخَائِضُهَا ، وَقَدْ شَهِدْنَا ذَلِكَ عَيَانًا .

ثُمَّ أَحْبَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ اللَّهُ لَا يَجُورُ عَلَى الْعِبَادِ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى عَادِلٌ^(٢) وَلَا يَظْلِمُ وَلَسْكَنْهُ
 يَبْتَلِي عِبَادَهُ أَيْ يَحْتَبِرُهُمْ ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا
 لَمُبْتَلِينَ ﴾^(٣) ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى ، إِذَا فَسَدَ النَّاسُ لَا يُلْحِثُهُمْ إِلَى الصَّلَاحِ ؛ لَكِنْ يَتْرَكُهُمْ
 وَاخْتِيَارَهُمْ امْتِحَانًا لَهُمْ ، فَمَنْ أَحْسَنَ أَثِيبَ ، وَمَنْ أَسَاءَ عَوْقِبَ .

(٢) م : ب : ع : ع .

(١) ساقطة من ب
 (٢) سورة المؤمن ٣٠

(١٠٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ
الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا ، وَلَا يَذِي نُبُوَّةَ وَلَا وَحْيًا ؛ فَقَاتَلَ بَيْنَ أَطَاعَةِ مَنْ عَصَاهُ ؛ وَوَقْفِهِمْ
إِلَى مَنَاجِيهِمْ ؛ وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ ؛ يَحْشِرُ الْحَسِيرُ ، وَيَقِفُ الْكَبِيرُ ؛
فَيَقِيمُ عَلَيْهِمْ حَقَّ يُلْحِقُهُ غَابِقُهُ ؛ إِلَّا هَالِكًا لَا خَيْرَ فِيهِ . حَقَّ أَرَاهُمْ مَنَاجِيَهُمْ ،
وَبَوَّاهُمْ مَحْشَرَهُمْ ، فَاسْتَدَارَتْ رِجَاهُمْ ، وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ . وَإِنَّهُمْ أَفْهَمُ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ
سَاقِيهَا حَقَّ تَوَلَّيْتُ بِحِذَائِهَا ، وَاسْتَوَسَّيْتُ فِي قِيَادِهَا ؛ مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبَنْتُ ، وَلَا
خُفْتُ وَلَا وَهَنْتُ . وَإِنَّهُمْ أَفْهَمُ لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْخَلْقَ مِنْ خَاصِرَتِهِ .

قال الرضى رحمه الله تعالى :

وقد تقدم مختار هذه الخطبة ؛ إلا أنى وجدتها فى هذه الرواية على خلاف ما سبق من
زيادة ونقصان ؛ فأوجب الحال إثباتها ثانية .

الشرح :

لقاتل أن يقول : ألم يكن فى العرب نبي قبل محمد ؛ وهو خالد بن ^(١) صفان الميسرى ؟
وأبضا فقد كان فيها هود وصالح وشعيب .

(١) هو خالد بن صفان بن غيث الميسرى ، ذكره الرسول عليه السلام ؛ وقال : « خلقه نبي أصامه قومه » .
وانظر أخباره فى مروج الذهب ١ : ١٣١ (طبع أوروبا) .

ونجيب هذا القائل بأن مراده عليه السلام أنه لم يكن في زمان محمد صلى الله عليه وآله وما قاربه من ادعى النبوة ، فأما هود وصالح وشعيب ، فكانوا في دهر قديم جدا ، وأما خالد بن سنان فلم يقرأ كتابا ، ولا بدعى شريعة وإنما كانت نبوة مشابهة لنبوة جماعة من أنبياء بني إسرائيل الذين لم يكن لهم كتب ولا شرائع ، وإنما يتهوّن عن الشرك ، ويأمرون ^(١) بالتوحيد .

ومنجاتهم : بجاتهم ، نجوت من كذا نجا ، محدود ، ونجا مقصور . ومنجاة على « مَنَّة » ، ومنه قولهم : « الصديق منجاة » .

قوله عليه السلام : « ويبادر بهم الساعة » ، كأنه كان يخاف أن تسبقه القيامة ، فهو يبادرها بهدائهم وإرشادهم قبل أن تقوم ، وهم على ضلالهم .

والحسير : الميأ ، حَسَرَ البعير بالفتح ، يحسِر بالسكر حُسورا ، واستعسر مثله ، وحسرتة أناة ، يتعدى ولا يتعدى ، حَسَرَهُمْ جَسْرُهُ ، ويموز أحسرتة ، بالهمزة ، والجمع حَسَرَى ، مثل قتيل وقَتْلَى ، ومنه حَسَرَ البصر ، أى كَلَّ ، يحسِر ، قال تعالى : ﴿ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ ^(٢) . وهذا الكلام من باب الاستعارة والجاز ، يقول عليه السلام : كان النبي صلى الله عليه وآله لِحَرْصِهِ على الإسلام وإشفاقه على المسلمين ، ورأفته بهم ، يلاحظ حال من ترزّل اعتقاده ، أو عرضته شبهة ، أو حدث عنه ريب ، ولا يزال يوضح له ويرشده حتى يزِيل ما خامر سرّه من وساوس الشيطان ، ويلعقه بالخلع من المؤمنين ، ولم يكن ليقصّر في مراعاة أحد من المكلفين في هذا المعنى إلا آمن كان يعلم أنه لا خير فيه أصلا ، لعناده وإصراره على الباطل ، ومكابرتة للحق .

ومعنى قوله : « حتى يلحقه غايته » ، حتى يوصله إلى العاية التي هي المرض بالتكليف ، يبنى اعتقاده الحق وسكون النفس إلى الإسلام ، وهو أيضا معنى قوله : « ربوأم محلّتهم » .

(١) - لعله من به .

(٢) - سورة الملك ٤ .

ومعنى قوله : « فاستدارت رسام » ، انتظم أمرهم ، لأن الرّحاً إماماً تدور إذا تكاملت أدواتها وآلاتها كلها ، وهو أيضاً معنى قوله : « واستقامت قفائهم » ، وكلّ هذا من باب الاستعارة .

ثم أقسم أنه عليه السلام كان من سابقها ، الساقية : جمع سائق ، كقيادة جمع قائد ، وحاكّة جمع حائك ، وهذا الصير الموث يرحع إلى غير مذكور لفظاً ، والمراد الجاهلية ، كأنه جعلها مثل كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام ، وجعل نفسه من الحمامين عليها بسيفه ، حتى فرّت وأدبرت ، واتبهما يسوقها سوقاً وهي مولية بين يديه .

حتى أدبرت بمخايفها ، أى كلها عن آخرها

ثم أتى بصير آخر إلى غير مذكور لفظاً ، وهو قوله : « واستوسقت في قيادها » ، يعنى الملة الإسلامية أو الدعوة ، أو ما يجري هذا الجري ، واستوسقت : اجتمعت ، بقول : لما ولّت تلك الدعوة الجاهلية استوسقت هذه في قيادها كما تستوسق الإبل المقودة إلى أعطانها . ويحوز أن يمودة هذا الصير الثانى إلى المذكور الأول وهو الجاهلية ، أى ولّت بمخايفها واجتمعت كلها تحت ذلّ المقادة .

ثم أقسم أنه ما ضعف يومئذ ولا وهن ولا حبن ولا خان ، وليقرن الباطل الآن حتى يخرج الحق من خاصرته ، كأنه جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحق عالماً عليه ، ومحيطاً به ، فإذا بقر ظهر الحق السكامن^(١) فيه ، وقد تقدم منا شرح ذلك .

(١٠٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

حَقَّ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَهِيدًا وَنَذِيرًا ، خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلًا ،
وَأَجَبَهَا كَهْلًا ، وَأَطَهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شَيْعَةً ، وَأَخْوَدَ الْمُسْتَظْطَرِّينَ دِيعةً ، فَمَا اسْتَوْلَتْ
لَكُمْ أَلْدُنْيَا فِي لَدُنِّيَا ^(١) ، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رِصَالِهَا ، إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ . صَادَقْتُمُوهَا
جَائِلًا خِطَامُهَا ، فَلَقَا وَضِيئَهَا ؛ قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السُّدْرِ الْمُغْصُودِ ،
وَحَلَالُهَا بَعِيدًا عَنِ مَوْحُودِ ، وَصَادَقْتُمُوهَا وَاللَّهُ خَالِمٌ تَمْدُودًا إِلَى أَجَلٍ مُتَدَوِّدٍ .
فَالْأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ ، وَأَبْدِيَّتُكُمْ فِيهَا مُسْطَوَّةٌ ؛ وَأَبْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ ،
وَسَيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ ، وَسَيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ .
أَلَا وَإِنْ لِكُلِّ دَمٍ نَارًا ، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِبًا ، وَإِنْ أَكْثَرُ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي
حَقِّ نَفْسِهِ ، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا يُنْحِرُهُ مَنْ طَلَبَ ؛ وَلَا يَقْوَتُهُ مَنْ هَرَبَ . فَاقْسِمُ بِاللَّهِ
بِأَبْنِي أُمِّيَّةَ مِمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَبْدِي عَيْبِكُمْ ، وَفِي دَارِ عَذَابِكُمْ .

الشرح :

معنى كون النبي صلى الله عليه وآله شهيداً ، أنه يشهد على الأمة بما فعلته من طاعة وعصيان .
أحبها : أكرمها ، ورجل محبب ؛ أى كريم بين المحابة ، والنجبة مثل الهرة ؛

(١) مخطوطة النهج : « لَدُنِّيَا »

ويقال: هو نُجْبة القوم؛ أى الذعيب منهم، وأنجب الرجل، أى ولد ولدان نجيبا، وامرأته نجبة
ومنتجاب، تلة الثجباء، ونسوة مناجيب.

والشيمة: الخلق. والديمة: مطر يدوم. والمستطرون: المستجدة بن والمستاحون.
واحلوت: حلت، وقد عذاه حيد بن ثور في قوله^(١):

قَلْنَا أَنَّى عَامَانٍ تَعْدُ انْفِصَالَهُ عَنْ الضَّرْعِ، وَاحْلَوْلَى دِمَائًا بِرُودِهَا^(٢)
ولم يحس «افمعل» متعديا إلا هذا الحرف وحرف آخر، وهو اعروذيت الفرس.
وهو الرضاع، بفتح الراء: رضيع الصبي أمه، بكسر الصاد يرصعها رضاعا، مثل ممع يسمع
سماعا؛ وأهل نجد يقولون: رَضَعَ بالفتح يرضع بالكسر، مثل ضَرَبَ يضرب ضربا.
وقال الأصمعي: أخبرني عيسى بن عمر أنه سمع العرب تُنشد هذا البيت:

وَذَمُّوا لَمَّا الذَّنْيَا وَهُمْ يَصِفُونَهَا أَقَابِقَ حَتَّى مَا يَبْرُ لَهَا تَعْلُ^(٣)

بكسر الصاد. والأحلاف للناقة عنزة الأطباء للكلبة، واحداها خِلْف بالكسر،
وهو حَلَّة الضرع. والخطام: زمام الناقة، خطمت البعير: زمته، وناقة محطومة،
ونوق مخطمة.

والوَضِين للهودج؛ عنزة السطان للقتب، والتصدير للرجل، والحزام للسرُج؛ وهو
سُور تنسج مضاعفة بعضها على بعض، يشد بها الهودج منه إلى بطن البعير، والجمع وُضُن.
والخضود: الذي خُصِد شوكة، أى قطع.

وشاعرة: خالية، شمر المسك، أى حلا، وبلدة^(٤) شاعرة. إذا لم تمتنع من
ظارة أحد. والثائر: طالب الثأر، لا يبقى على شيء حتى يدرك ثأره.

(١) ديوانه ٧٠٣.

(٢) احلولى: استحل واستنرا، والدمات: جمع دم؛ وهو السهل الذى الكثير النبات من الأرض،
ورودها: يأبىها فرعى.

(٣) اللسان ٩: ١٨٤، ونسب إلى ابن همام اللولى.

(٤) ساقطة من م.

يقول عليه السلام مخاطباً لمن في عصره من بقايا الصعابة واخيرهم من التابعين ، الذين لم يدركوا عصر رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله مث عمدا ، وهو أكرم الناس شيعة ، وأمدام يدا ، واخيرهم طفلا ، وأنجبهم كنهلا ، فصانه الله تعالى في أيام حياته عن أن يفتح عليه الدنيا ، وأكرمه عن ذلك فلم تفتح عليكم البلاد ، ولا درت عليكم الأموال ، ولا أقبلت الدنيا بحكم ، وما دلت الدرة لكم إلا بعمه ، فتمكنتم من أكلها والتمتع بها ، كما يتمكن الحالب من احطلاب الدقة فيحملها ، وحلت لذاتها لكم ، واستطعن الميشة ، ووجدتموها حلوة خضرة .

ثم ذكر أنهم صادفوها - يعني الدنيا - وقد صعبت على من يليها ولاية حق ، كما تعصب الناقة على راكبها إذا كانت جائنة الخطام ، ليس زمامها بممكن راكبها من نفسه ، قلقه الوصين ، لا يشت هودجها تحت المرام كعب ، حرامها سهل التناول على من يريده ، كالذئب الذي حصيد منه شوكه ، فصار ناعما أملس ، وحلالها غير موجود لعلبة الحرام عليه ، وكونه صار مصورا مستهلكا بالنسة إليه ، وهذا إشارة إلى ما كان يقوله دائما من استبداد الخلفاء قبله بدونه بالأمر ، وأنه كان الأولى والأحق .



فإن قلت : إذا كانت الدنيا قليفة الوصين ، جائنة الخطام ، فهي صعبة الركوب ، وهذا ضد قوله : « حرامها بمنزلة الدر المحضود » ، لأنه من الأمثال المضروبة للسهولة ! قلت : غوى كلامه أن الدنيا جمعت به عليه السلام ، فألقته عن ظهرها بعد أن كان راكبا لها أو كالراكب لما لاستحقاقه ركوبها ، وأنها صارت بعده كالناقة التي خلت زمامها ، أو أجالته فلا يتمكن راكبها من قبضه ، واسترحى وضيئها لشدة ما كان صدر عنها من اللعاز والتعقم ، حتى أدرت راكبها ، فصارت على حال لا يركبها إلا من هو موصوف بركوب غير طبيعي ، لأنه ركب مالا ينبغي أن يركب ، فالذين وثقوا أمرها وثقوا

على غير الوجه ، كما أن راكب هذه القافلة يركبها على غير الوجه ، ولهذا لم يقل : « فصار حرامها بمنزلة الصدر المحضود » بل قال « عند أقوام » ، فخصص .
وهذا الكلام كله محمول عند أصحابنا على التألم من كون المصدمين تركوا الأفضل ، كما قدمناه في أول الكتاب .

ثم ذكر عليه السلام أن الدنيا فانية ، وأنها ظلٌ ممدود إلى أجل ممدود . ثم ذكر أن الأرض بهؤلاء السكان فيها صورة خالية من معنى ، كما قال الشاعر :

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلهم الله يعلم أي لم أقل فنذا^(١)
إني لأفتح عيني ثم أغضها على كثير ، ولكن لا أرى أحداً



ثم أعاد الشكوى والتألم فقال : أيديكم في الدنيا مبسوطة ، وأيدي مستعنى الرئاسة ومستوجب الأمر مكبوفة ، وسيوفكم مسلطة على أهل البيت الذين هم القادة والرؤساء ، وسيوفهم مقبوضة عنكم ، وكأنه كان يرمز إلى ما سبق من قتل الحسين عليه السلام وأهله ، وكأنه يشاهد ذلك هياناً ، ويخطب عليه ويتكلم على الخاطر الذي سنع له ، والأمر الذي كان أخيراً به ، ثم قال : إن لكل دم ثائراً يطلب القود ، والثائر بدمائنا ليس إلا الله وحده ، الذي لا يُعجزه مطلوب ، ولا يفوته هارب .

ومعنى قوله عليه السلام : « كالحاكم في حق نفسه » ، أنه تعالى لا يقصر في طلب دعائنا كالحاكم الذي يحكم نفسه ، فيكون هو القاضي وهو الخصم ، فإنه إذا كان كذلك يكون مهالماً جداً في استيفاء حقوقه .

ثم أقسم وحاطب بنى أمية ، وصرح بذكرهم أنهم ليعرفن الدنيا عن قليل في أيدي خيرهم وفي دورهم ، وأن الملك سينزع منهم أعدائهم ، ووقع الأمر بموجب إخباره عليه

(١) البيتان للميل ، ديوانه ٥٧ ، وهما أيضاً في المقدم لابن عبد ربه ٢ : ٢٩٥ .

السلام ، فإن الأمر بقي في أيدي بني أمية قريبا من تسعين سنة ؛ ثم عاد إلى البيت الهاشمي ، وانتقم الله تعالى منهم على أيدي أشد الناس عداوة لهم .

• • •

[هزيمة مروان بن محمد في موقعة الزاب ، ثم مقتله بعد ذلك]

سار عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس في جمع عظيم لبقاء مروان بن محمد ابن مروان ، وهو آخر خلفاء الأمويين ، فالتقيا بالزاب^(١) من أرض الموصل ، ومروان في جموع عظيمة وأعداد كثيرة ، فهزم مروان ، واستولى عبد الله بن علي على عسكره ، وقتل من أصحابه خلقا عظيما ، وفر مروان هاربا حتى أتى الشام وعبد الله يتبعه ، فصار إلى مصر ، فاتبعه عبد الله بمجنوده ، فقتله ببوصير الأشمونين من صعيد مصر ، وقتل خواصه وطلاته كلها ، وقد كان عبد الله قتل من يوم أمية على نهر أبي فطرس^(٢) من بلاد فلسطين قريبا من ثمانين رجلا ، قتلهم مثله^(٣) واحتذى أخوه داود بن علي بالحجاز فعلة ، فقتل منهم قريبا من هذه المدة بأبواب المثل .

وكان مع مروان حين قتل اناء عبد الله وعبيد الله . وكانا ولّيا عهد . فهربا في خواصهما إلى أسوان من صعيد مصر ثم صارا إلى بلاد النوبة ونالهم جهد شديد وضرب عظيم ، فملك عبد الله بن مروان في جماعة ممن كان معه قتلا وعطشا وضرا ، وشاهد من بقي منهم أنواع الشدائد وضروب المكاره ، ووقع عبيد الله في عذبة ممن نجوا معه في أرض البجة^(٤) وقطعوا البحر إلى ساحل جدة ، وتمقل فيمن نجوا معه من أهله ومواليه في البلاد مستقرين راضين أن يمشوا سوقا بعد أن كانوا ملوكا فظفر بعبد الله أيام السفاح ، فحبس

(١) هو الزاب الأعلى ، بين الموصل واربيل .

(٢) فطرس ، صطحة صاحب مرصد الاخلاص بسم القاء وسكون الطاء وسم الراء وسين مبهمة ؛ وهذه موضع قرب الرملة من أرض فلسطين .

(٣) يقال : مثل فلان بالقتيل مثله ومثلا ، أي جفده وظهرت آثار ضربه عليه .

(٤) انظر تاريخ الضبى ٣ : ١٤٧٨ (طبع أوروبا) .

فلم يزل في السجن حتى أيام السَّفاح ، وأيام النصور ، وأيام المهدي ، وأيام المهدي وبعض أيام الرشيد ، وأخرجه الرشيد وهو شيخ ضريب ، فسأله عَنْ خبره ، فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، حُبِسْتُ غلاماً بصيراً ، وأُخْرِجْتُ شيخاً ضريباً ! فقيل : إِنَّهُ هَلَكَ فِي أَيَّامِ الرَّشِيدِ ، وَقِيلَ : عَاشَ إِلَى أَنْ أَدْرَكَ خِلَافَةَ الْأَمِينِ .

• • •

شهد يوم الزَّاب مع مَرْوَانَ فِي إِحْدَى الرَّوَاتِبِينَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْخَلَوَعِ ، الَّذِي خُطِبَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ أَخِيهِ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ قَتْلَ عَمِينَ قَتْلَ .
وَفِي الرَّوَايَةِ الثَّانِيَةِ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ قَتَلَ مَرْوَانَ الْحَارِ قَبْلَ ذَلِكَ .

• • •

لَمَّا انْهَزَمَ مَرْوَانُ يَوْمَ الزَّابِ مَضَى نَحْوَ الْمَوْصِلِ ، فَتَمَّ أَهْلُهَا مِنَ الدَّخُولِ ؛ فَأَتَى حَرَّانَ ، وَكَانَتْ دَارُهُ وَمَقَامُهُ ، وَكَانَ أَهْلُ حَرَّانَ حِينَ أُزِيلَ لِنَاسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ فِي أَيَّامِ الْجَمْعِ امْتَنَمُوا مِنْ إِزَالَتِهِ ، وَقَالُوا : لَا جِلَافَةَ إِلَّا بِأَمْرِ أَبِي تَرَابٍ ، فَاتَّبَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ بِمَجُودِهِ ، فَلَمَّا شَارَفَهُ خَرَجَ مَرْوَانُ مِنْ حَرَّانَ هَارِبًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهَبَرَ الْقُرَاتِ ، وَنَزَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى حَرَّانَ ، فَهَدَمَ قَصْرَ مَرْوَانَ بِهَا ، وَكَانَ قَدْ أَهَقَ عَلَى بَنَاتِهِ عَشْرَةَ آلَافِ أَلْفِ دَرَمٍ ، وَاحْتَوَى عَلَى خَزَائِنِ مَرْوَانَ وَأَمْوَالِهِ ، فَسَارَ مَرْوَانُ بِأَهْلِهِ وَعِثْرَتِهِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَخَوَاصِدِهِ ، حَتَّى نَزَلَ بِنَهْرِ أَبِي فُطُرْسَ ، وَسَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ حَتَّى نَزَلَ دِمَشْقَ ، فَعَاصَرَهَا وَعَلِيهَا مِنْ قَبْلِ مَرْوَانَ الْوَلِيدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي خَمْسِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ ، فَأَتَى اللَّهُ تَعَالَى يَنْهَمُ الْمُصِيبَةَ فِي قُصْلِ تَزَارَ عَلَى الْيَمِينِ ، وَفُصْلِ الْيَمِينِ عَلَى تَزَارَ ، فَقَتَلَ الْوَلِيدُ - وَقِيلَ بَلْ قُتِلَ فِي حَرْبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ - وَمَلَكَ عَبْدُ اللَّهِ دِمَشْقَ ، فَأَتَى يَزِيدَ ابْنَ مَعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَعَبْدَ الْجَبَّارِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَغَلَبَهُمَا مَأْسُورِينَ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَاحِ ، فَقَتَلَهُمَا وَصَلَبَهُمَا بِالْحَيْرَةِ ، وَقَتَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ بِدِمَشْقَ خَلْقًا كَثِيرًا مِنْ أَصْحَابِ مَرْوَانَ وَمَوَالِي بَنِي أُمَيَّةَ وَأَنْبَاعِهِمْ ، وَنَزَلَ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى نَهْرٍ

أبي فطرس ، قتل من بني أمية هناك بضعا وثمانين رجلا ، وذلك في ذي القعدة من سنة
ثنتين وثلاثين ومائة .

[شعر عبد الله بن عمرو العبلي في رثاء قومه]

وفي قتل نهر أبي فطرس و قتل الزاب يقول أبو عدي عبد الله بن عمرو العبلي ،
وكان أموي الرأي :

تقول أمانة لما رأت	شوزي عن المضجع الأملي ^(١)
وقلة نومي على مضجعي	لهدي هجمة الأعين النسي :
أبي ، ما عراك ؟ قتلت : الموم	عرين أهلك فلا تبلي ^(٢)
عرين أملك فحسنة	من القل في شر ما يحبس
لفقد الأية إذ غابها	جاءها من الحدث المنيس ^(٣)
دمتها للنون بلا سكيل	ولإطاشات ولا نكس
بأشهمها التفات النفو	س متى ما نصب مهجة نخلس
فصر عنهم بنواحي البلا	د فلق بأرض ولم يرهم ^(٤)
تقى أصيب وأثوابه	من الصيب والعار لم تدنس ^(٥)
وآخر قد رُس في حفرة	وآخر طار فلم يحس ^(٦)
أفاض للدماغ قسلي كدي	وقتلي بكنوة لم ترهم ^(٧)
وقتلي بوج وبالأبتة	ن من يرب خير ما أنس ^(٨)

(١) الأمانى : ٤ : ٣٤٠ (حجة الدار) : ورواجه : « المضجع الأنس » .
(٢) لا تبلي : لا تحزني .
(٣) الأصل : اللبس ، وأثبت رولية الأمانى .
(٤) الأمانى : « ولم يرهم » ، والرسم والرسم : الممن .
(٥) الأمانى : « تقى » .
(٦) الأمانى : « قد دس » .
(٧) كدي : موضع بالطائف ، وكنوة : موضع بيه .
(٨) وج : اسم واد بالطائف .

وَبِالزَّائِبَيْنِ نَفُوسٌ ثَوَتْ وَقَتْلَ بَنِي أَبِي قَطْرُسٍ ^(١)
أُولَئِكَ قَوْمِي أَنَاخَتْ بِهِمْ مَوَاتٌ مِنْ زَمَنِ مُتَمَسِّ
إِذَا رَكِبُوا زَيْتُونُ الْوَحْكَةِ بَنٍ وَإِنْ جَلَسُوا زَيْنَةُ الْجَلْسِ ^(٢)
وَمَنْ عَنْ ذِكْرِهِمْ لَمْ يَنْمِ أَبُوكِ ، وَأَوْحَشَ فِي النَّاسِ
فَذَاكَ الَّذِي غَالِي فَاعْلَمِي وَلَا تَسْأَلِي بِأَمْرِي مُتَمَسِّ
هُمْ أَضْرَعُونِي لِرَبِّ الزَّمَا نَوْمُ الصَّفْوَا الْخَدَّ بِالْمُعْطَسِ ^(٣)

[أَغْنَى ابْنِ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ]

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني ، قال : نظر عبدالله بن علي في الحرب
إلى فتى عليه أبهة الشرف ، وهو يجارب مستقلاً ^(١) ، فتأواه : يا فتى ، لك الأمان ،
ولو كنت مروان بن محمد أقال : إلاً أكفه قلت بدو به أقال : ولك الأمان ، ولو كنت
من كنت ، فاطرق ، ثم أنشد :

لَذُلُّ الْحَيَاءِ وَكُرْهُ الْمَا ^(٢) تِ وَكَلًّا أَرَاهُ طَعَامًا وَيِيلاً ^(٣)
وَأِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ إِحْدَاهَا فَسَيَرًا إِلَى الْمَوْتِ سَيَرًا جِيلاً
ثُمَّ قَاتِلْ حَتَّى تَقُتْلَ ، فَإِذَا هُوَ ابْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ^(٤) .

(١) الزايبان : ثنية زابية ، وهو الزاب الأعلى والزاب الأسفل ؛ ويريد به الأعلى ؛ وله كانت اللوحة
(٢) الأغاني : الزن في المجلس . . . (٣) رواية الأغاني :

هُمْ أَضْرَعُونِي لِرَبِّ الزَّمَا نِ وَهُمْ أَلْعَفُوا الرَّغْمَ بِالْمُعْطَسِ
(٤) الأغاني : مستقلاً ؛ وهو الخارج من الصف المتقدم على أسعابه .
(٥) الأغاني : أدل الحياء . . . (٦) إحدى روايتي الأغاني :

• وَكَلًّا أَرَى لَكَ شَرًّا وَيِيلاً •

(٧) الأغاني ٤ : ٣١٣ ، ٣٤١ (طبعة الناز) .

[مما قيل من الشر في التحريض على قتل بنى أمية]

وروى أبو الفرج أيضا ، عن محمد بن حنف وكيع ، قال : دخل سديف مولى آل هاشم على أبي العباس بالخيرة ، وأبو العباس جالس على سريره ، وبنو هاشم دونه على الكراسي وبنو أمية حوله على وسائل قد نثيت لهم ، وكانوا في أيام دولتهم يجلسونهم والخليفة ^(١) معهم على الأسرة ، ويجلس بنو هاشم على الكراسي ، فدخل الحاجب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، بالباب رجل حجازي أسود راكب على بحيب متلثم ، يستأذن ولا يخبر باسمه ، ويحلف لا يحير القمام من وجهه حتى يرى أمير المؤمنين ! فقال : هذا سديف مولانا ، أدخله ؛ فدخل فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله حصر القمام عن وجهه ، ثم أنشد :

أصبح الملك ثأت الأساس ^(٢) بالهاليل من بنى العباس
بالصفور المقدمين قديما ^(٣) والبحور القماقم الرؤاس
يا إمام للطهرين من القدم ويارأس متهمي كل راس
أنت مهدى هاشم وقتاها ^(٤) كم أباس رجوك بعد أمانس ^(٥)
لا تقيان عبد شمس عتارا ^(٦) واقطعن كل رقلة وغراس

(١) الأعاني : « وهو مولى آل أبي لهب » .

(٢) الأعاني : « والمخفاء » .

(٣) قال في الكامل : الأساس : جمع أس ؛ وتقدم بها « صل » (بضم اليم وسكون اللام) ، و « إصال » ؛ وقد يقال الواحد أساس ، ووجه أسس ، والبهلول : الصعلك . وقال الرصم : الأجود تسميه بالعزيز الجامع لكل خير .

(٤) الأعاني : « وهذاها » .

(٥) الأعاني : « بعد إياس » .

أَزَلُّوْهَا بِمِثْ أَزَلُّوْا الْوَلَدَ بِدَارِ الْوَلَدِ وَالْإِنْفَاسِ
 خَوْفُهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ مِنْهَا وَبِهِمْ مِنْكُمْ كَعَزَّ لِلْوَامِي (١)
 أَفْصَحُهَا أَبْنَاءُ الْخَلِيفَةِ وَاحْسِمُ هُنَاكَ بِالسَّيْفِ شَأْفَةُ الْأَرْجَاسِ
 وَادَّكَرَنَّ مَصْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدٍ وَقَتِيهِمْ لَاحِظًا بِجَانِبِ الْمِهْرَاسِ (٢)
 وَالْفَتِيلَ الَّذِي يَحْرَانُ أَمْسَى ثَاوِيًا بَيْنَ غُرْبَةٍ وَتَقَاسِ (٣)
 فَلَقَدْ سَاءَ لِي وَسَاءَ سَوَائِي قُرْتُهُمْ مِنْ نَمَارِقٍ وَكَرَائِي (٤)
 يَسْمُ كَلْبَ الْهَرَّاشِ مَوْلَاكَ شَيْبَلُ لَوْ نَحَا مِنْ حَبَائِلِ الْإِفْلَاسِ

قال : فتميز لون أبي العباس ، وأخذه زَمَعٌ (٥) ورعدة ، فالتفت بعضُ ولد سليمان بن عبد الملك إلى آخر فيهم كان إلى جانبه ، فقال : قَتَلْنَا وَاقَةَ الْعَبْدِ ! فأقبل أبو العباس عليهم ، فقال : يا بني الزَّوَالِي (٦) ؛ لا أرى قَتْلًا مِنْ أَهْلِ قَدِ سَلَفُوا وَأَنْتُمْ أَجْيَاءُ تَتَلَذَّذُونَ فِي الْهِنَا ، خَدُومُكُمْ فَأَخَذْتَهُمْ الْخُرَاسَانِيَّةَ بِالْكَافِرِ كُوبَاتٍ فَأَتَمَّحِدُوا ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَإِنَّهُ اسْتَجَارَ بِدَاوُدَ بْنِ هَلِيٍّ ، وقال : إِنْ أَبِي لَمْ يَكُنْ كَأَبَائِهِمْ ،

(١) رواية الأغاني :

خَوْفُهُمْ أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ مِنْهُمْ وَبِهِمْ مِنْكُمْ كَعَزَّ لِلْوَامِي

(٢) ذكر البردي شرح هذا البيت لوله : « مصرع الحسين وزيد » ، يعني زيد بن علي بن الحسين ؟ كان خرج علي همام بن عبد الملك ، وقتله يوسف بن عمر الثقفي ؟ وصلبه بالكوفة هو وجماعة من أصحابه . وإنما نسب قتل حمزة إلى أبي أمية ؟ لأن أبي سليمان بن حرب كان قائد الناس يوم أحد . (٣) الفتيل الذي يحرق هو إبراهيم بن محمد بن علي ؟ وهو الذي يقال له الإمام ، وفي رواية الأغاني : « والإمام الذي » .

(٤) سوائي سوائي ، والنمارق : واحدتها نمرقة ؛ وهي الوسائد .

(٥) الزمعة : شدة الرعدة .

(٦) الأغاني : « يا بني القواميل » .

وقد علمت صنيعته إليكم فأجاره واسو به من السفاح وقال له : قد علمت صنيع أيده إلينا؛ فوجه به له ، وقال : لا يرني وجهه ، وليكن بحيث تأمنه ، وكتب إلى عماله في الآفاق بقتل بني أمية ^(١).

• • •

فأما أبو العباس اللورد ، فإنه روى في الكامل ^(٢) هذا الشعر على غير هذا الوجه ؛ ولم ينسبه إلى سديف ، بل إلى شبل مولى بني هاشم .
قال أبو العباس : دخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي ، وقد أجلس ثمانين من بني أمية على صحن الطعام ، فأشده :

أصَحَّ لِلَّكُ ثَابِتَ الْآسَاسِ يَالِهَا لَهْلٍ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ
مَلَكُوا وَتَرَى هَاشِمٍ وَشَقَوَهَا بَعْدَ مِيلٍ مِنَ الزَّمَانِ وَيَاسِ ^(٣)
لَا تُفِيكُنِي عِنْدَ شَمْسٍ عِتَارًا وَأَقْطَعُنِ كُلَّ رَقَّةٍ وَأَوَاسِ ^(٤)
دَلَّهَا أَظْمَرُ التَّوَدُّدِ مِنْهَا وَمَا يَبْكُمُ كَعَزِّ الْوَاسِ ^(٥)
وَلَقَدْ غَاظَنِي وَغَاظَ سَوَائِي قُرْبُهَا مِنْ عَادِيٍّ وَكَرَاسِي
أَزَلُّوْهَا بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا إِلَهُ بَدَارِ الْهَوَانِ وَالْإِنْعَاسِ
وَإِذَا كَرَأْمُ مَصْرَعِ الْحُسَيْنِ وَزَيْدٍ وَقَتْلًا بِجَانِبِ الْمَهْرَاسِ
وَالْقَتِيلِ الَّذِي بِحَرَّانٍ أَصْحَى ثَاوِيًا بَيْنَ غُرْبَةٍ وَتَنَاسِ
بِمِ شَبْلٍ الْمَرَّاشِ مَوْلَاكَ شَبْلٌ لَوْ بَجَا مِنْ حَبَائِلِ الْإِفْلَاسِ

فأمرهم عبد الله فشَدَّخُوا بِالنَّمَدِ ، وَسَطَّتِ الْبُسُطُ عَلَيْهِمْ ، وَجَلَسَ عَلَيْهَا ، وَدَعَا

(١) الأغانى ٤ : ٣٤٤ - ٣٤٦

(٢) الكامل ٨ : ١٣٤ ، ١٣٥ بصرح الرصني .

(٣) قال أبو العباس : يقال : « في فيك ميل علينا » (يسكون الياء) ، وفي المائل ميل بفتحها .

(٤) قال أبو العباس : الأواسى : باؤه مشددة في الأصل ، وتخفيفها يجوز ، ولو لم يجز في الكلام لجاز في الشعر .

(٥) مروج الذهب ٣ : ٢٦١ وما بعدها ، مع تصرف في الرواية .

بالطعام ، وإياه ليسع أنينَ بعضهم حتى ماتوا جميعا . وقال لثبيل : لولا أنك خلطت
شعرك بالمسألة لأغنتك أموالهم ، ولمقدت لك على جميع موالى بنى هاشم .

قال أبو العباس : الرقعة : النخلة الطويلة ، والأواسى : جمع آسية ؛ وهى أصل البناء
كالأساس . وقتيل المنهراس : حرمة عليه السلام ، والمنهراس : ماء بأحد . وقتيل حران :
إبراهيم الإمام .

قال أبو العباس : فأما سديف ، فإنه لم يسم هذا اللقام ، وإنما قام مقام آخر ، دخل
على أبى العباس السفاح ؛ وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ؛ وقد أعطاه يده فقبلها
وأدناه ، فأقبل على السفاح ، وقال له :

لَا يَعْرِفُكَ مَا تَرَى مِنْ رِجَالٍ إِنْ تَحْتَ الصُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا

فَصَحَّ السِّيفُ وَارْمِ السُّوْطَ حَتَّى لَا تَرَى قَوْقَ ظَهْرِهَا أُمُومًا

فقال سليمان : مالى ولك أيها الشيخ اقلني فقلت الله ! فقام أبو العباس ، فدخل وإذا
للدليل قد ألقى في عنق سليمان ، ثم جرد فقتل .

فأما سليمان بن يزيد بن عبد الملك بن مروان فقتل بالبلقاء ، وحمل رأسه إلى هبة الله
ابن على .



[أخبار متفرقة فى انتقال الملك من بنى أمية إلى بنى العباس]

وذكر صاحب مروج الذهب أنه أرسل عبد الله أخاه صالح بن على ومعه طامر بن
إسماعيل أحد الشيعة الخراسانية إلى مصر ، فحفظوا مروان ببوصير ، فقتلوه وقتلوا كل
مَنْ كان معه من أهله وبعثاته ، وهجموا على الكنييسة التى فيها بناته ونساؤه ، فوجدوا
خادما بيده سيف مشهور يساقهم على الدخول ، فأخذوه وسألوه عن أمره ، فقال : إن

أمير المؤمنين أمرني إن هو قُتل أن أدخل بنته ونساء كلهن ، قبل أن تصلوا إليهن ، فأرادوا قتله ، فقال : لا تقتلوني ، فإنكم إن قتلتموني فقد تُم ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالوا : وما هو ؟ فأخرجهم من القرية إلى كُثبان من الرمل ، فقال : اكشفوا هاهنا ، فإذا البردة والقضيب وقَمَب^(١) محضَب قد دفنها مروان ضناً بها أن تصيرَ إلى بني هاشم . فوجه به عامر بن إسماعيل إلى صالح بن علي ، فوجه به صالح إلى أخيه عبد الله ، فوجه به عبد الله إلى أبي العباس ، وتداوله حلفاء بني العباس من بعد .

وَادْخَلَ بنات مروان وحرمة ونساؤه حل صالح بن علي ، فحكمت ابنة مروان الكبرى ، فقالت : يا عم أمير المؤمنين ، حفظ الله لك من أمرك ما نحب حفظه ، وأسمدك في أحوالك كلها ، وحمك بخواص نعمه ، وشيئت بالعافية في الدنيا والآخرة . نحن بناتك وبنات أخيك وإن عمك ، فليسمنا من عذائبكم ما نسمنا من جوركم . قال : إذا لا نستقي منكم أحداً ، لأنكم قد قتلتم إbraهيمَ الإمام ، وزيد بن علي ، ويحيى بن زيد ، ومسلم بن عقيل ؛ وقتلتم خيرَ أهل الأرض : حسيناً وإخوته موسى وأهل بيته ، وسقتم نساء سبايا - كما يُساق ذراري الروم - على الأقتاب إلى الشام . فقالت : يا عم أمير المؤمنين ، فليستنا صغركم إذا . قال : أما هذا فنعم ؛ وإن أحببت روجت من ابني الفضل بن صالح ، قالت : يا عم أمير المؤمنين ، وأى ساعة عرس ترى ! بل نضعفنا بخران ، فحملهن إلى حران^(٢) .



كان عبد الرحمن بن حبيب بن مسعدة المهرري ، عامل إدرسية مروان ، فلما حدثت الحادثة ، هرب عبد الله والعامر ابن الوليد بن يزيد بن عبد الملك إليه ، فاعتصما به تخاف

(١) مروج الذهب : د وغصن .

(٢) الخبر في مروج الذهب ٣ : ٢٦١ - ٢٦٣ مع اختصار ونصرف ، وفي آخره : « فطقت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشققن حبوبهن ، وأعمواً بالصياح والبكاء ؛ حتى ارتجى السكر بالبكاء منهن على مروان » .

على نفسه منها، ورأى مثل الناس إليهما فتعلما ؛ وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك يريد أن يقصده وبلتمى إليه ، فلما علم ماجرى لابني الوليد بن يزيد ، خاف منه ، فقطع الجواز بين إفريقية والأندلس ، وركب البحر حتى حصل بالأندلس ؛ فالأمراء الذين ولّوها كانوا من ولده .

ثم زال أمرهم وحوادثهم على أيدي بني هاشم أيضا ، وهم بنو حمود الحسينيون ، من ولد إدريس بن الحسن عليه السلام .



لما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن يحيى ، واحدى على حكره ، دخل إلى الكعبة التي كان فيها ، فقدم على قراشه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مروان الكبرى - وتعرف بأُم مروان - : يا عامر ، إن دهرنا أتزل مروان عن فرشه حتى أضدك عليها ، تأكل من طعامه ليلة قتله ، محتوها على أمره ، حاسكا في ملكه وحرمه وأهله ، لقد رأيت أن ينفذ ذلك . فأنهى هذا الكلام إلى أبي العباس السفاح ، فاستهجن ما فعله عامر بن إسماعيل وكتب إليه : أما كان لك في أدب الله ما يبرجرك أن تقدم في مثل تلك الساعة على مهاد مروان ، وتأكل من طعامه ! أما والله لو لا أن أمير المؤمنين أتزل ما فعلته على غير اعتقاد منك [قللك] ^(١) ولا نسهم ^(٢) على طعام ، لمسك من غضبه وأليم أدبه ، ما يكون لك زاجرا ، ولخيرك واعظا . فإذا أتاك كتاب أمير المؤمنين : فخرّب إلى الله بصدقة تطفى بها غضبه ، وصلاة تظهر فيها الخشوع والاستكانة ، وصم ثلاثة أيام ، وثب إلى الله من جميع ما يسخطه ويغضبه ، ومرّ جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك .

ولمّا أتى أبو العباس برأس مروان ، سجد فأطال ، ثم رفع رأسه ، وقال : الحمد لله الذي

(٢) في مروج الذهب : ولا شهوة .

(١) من مروج الذهب

لم يبق ثأرنا قبلك وقيل رحطك ، الحمد لله الذي أغفرنا بك ، وأظهرنا عليك . ما أباي متى
 طرقتي للوت ، وقد قتلت بالحسين عليه السلام ألفاً من بني أمية ، وأحرقت شلوهم بآبن
 قتي زبد بن علي ، كما أحرقوا شلوهم ، وتمثل ^(١) :

لَوْ بَشَرُ بُونَ دَمِي لَمْ يَرَوْ شَارِبُهُمْ وَلَا دَمْلُومُ جَعْمًا زُرُونِي
 ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ثانية ثم جلس ، فتمثل :

أَبِي قَوْمُنَا أَنْ يُنْصِفُونَا فَأَصَفْتُ قَوَاعِلُ فِي إِيمَانِنَا تَقَطَّرُ الدَّمَا ^(٢)
 إِذَا خَالَطَتْ هَامَ الرِّجَالِ تَرَكْتَهَا كَيْفَ نَسَامُ فِي الذَّمِّ قَدْ نَحَطْنَا
 ثم قال : أَمَا مَرَّوَانُ فَيَقْتُلُنَا بِأَخِي إِبْرَاهِيمَ ، وَفَعَلْنَا سَائِرَ بَنِي أُمَيَّةَ بِحَسِينٍ ، وَمَنْ قَتَلَ
 مَعَهُ وَبَعْدَهُ مِنْ بَنِي هَمَّانِ أَبِي طَالِبٍ ^(٣) .

وروى السعدي في كتاب " مروج الذهب " عن المهدي بن عدي ، قال : حدثني
 عمرو بن هاني الطائي ، قال : خرجت مع عبد الله بن علي كنبش قبور بني أمية في أيام أبي
 العباس السفاح ، فأنهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك ، فاستخرجناه صحيحاً ، ما فقدنا منه
 إلا عَرْنِينَ أَقْهَ ؛ فضربه عبد الله بن علي ثمانين سوطاً ثم أحرقه ، واستخرجنا سليمان بن
 عبد الملك من أرض دابق فلم نجد منه شيئاً إلا صُنبه ورأسه وأضلاعه فأحرقناه ، وفعلنا
 مثل ذلك بغيرها من بني أمية ، وكانت قبورهم بخنصرين ، ثم أنهينا إلى دمشق ، فاستخرجنا
 الوليد بن عبد الملك ، فما وجدنا في قبره قليلاً ولا كثيراً ، واحتفروا عن عبد الملك فما وجدنا
 إلا شتُون ^(٤) رأسه ، ثم احتفروا عن يزيد بن معاوية فلم نجد منه إلا عظماً واحداً ، ووجدنا

(١) في مروج الذهب : « فتمثل بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له . »

(٢) بعده في مروج الذهب :

تُورَثُنَّ مِنْ أَشْيَاخٍ صَدَقَ تَقَرُّبُوا سَهْنًا إِلَى يَوْمِ الْوَعْيِ فَتَقْدَمَا

(٣) مروج الذهب ٣ : ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٤) الشتون : موصل لثاقل الرأس ، مفردة شأن .

من موضع نحره إلى قدمه خطأ واحداً أسود ، كأنما خطَّ بالرماد في طول ثلثه ، وتبعها قبورهم في جميع البلدان ، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم .

قلت : قرأت هذا الخبر على النقيب أبي جعفر يحيى بن أبي زيد العلوي بن عبد الله في سنة خمس وسبعمائة ، وقلت له : أما إحراق هشام بإحراق زيد ففهوم ، فامعنى جلده ثمانين سوطاً ؟ فقال رحمه الله تعالى : أظنَّ عبد الله بن عليّ ذهب في ذلك إلى حدِّ القذف ، لأنه يقال : إله قال لزيد : يا ابن الزانية ، لما سب أخاه محمداً الباقر عليه السلام ، فسبه زيد ، وقال له : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله الباقر وتسميه أنت البقرة ! لشدة ما اختلفنا ! والصلابة في الآخرة كما خالفته في الدنيا فيرد الجنة وترد النار . وهذا استنباط لطيف .



قال مروان لكتابه عبد الحميد بن يحيى حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجت إلى أن تصير مع عدوى وتظهر القدر بي أفان إجماعهم يبلاغتك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تدهوم إلى اصطناعك وتقريبك ، فإن استطعت أن تسي لتفنى في حياتي ، وإلا فلن تسجز عن حفظ حرّمي بعد وفاتي . فقال عبد الحميد : إن القدي أشرت به هو أضع الأمرين لي ، وأقبحهما بي ، وما عندي إلا الصبر منك حتى يفتح الله لك أو أقتل بين يديك ، ثم أنشد :

أسيرٌ ولاءٌ ثم أظهرٌ غدرةٌ فن لي بؤذيرٌ يوسعُ الناسَ ظاهرةً !
فتبت على حاله ، ولم يصبر إلى بني هاشم حتى قتل مروان ، ثم قتل هو بعده صبراً^(١) .



وقال إسماعيل بن عبد الله القسري : دعاني مروان ، وقد انتهت به الهزيمة إلى حران ، فقال : يا أبا هاشم .. وما كان يكتنني قبلها : قد ترى ما جاء من الأمر ، وأنت للوثوق به ، ولا عطرَ بمد عروس ؛ ما الرأيُ عندك ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، علامَ أجبت ؟ قال : أرتمل عوالي ومن تبعني حتى آتي للدرب (١) ، وأميل إلى بعض مدن الروم فانزلها ، وأكاتب ملك الروم واستوثق منه ، فقد فعل ذلك جماعة من ملوك الأماجم ، وليس هذا طاراً على الملوك ، فلا يزال يأتي من الأصحاب الخائف والمهارب والطامع فيكثر من ممي ، ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمري ، وينصرني على عدوي ، فلما رأيت ما أجمع عليه من ذلك ، وكان الرأي ، ورأيت آثاره في قومه من نزار وعصبيته على قومي من قحطان ، غششته ، قلت : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي ؛ أن نعلم أهل الشرك في بدانتك وحرمتك اوم للروم لا ولاء لهم ، ولا يذري ما تأتي به الأيام ، وإن حدث عليك حدث من أرض النصرانية .. ولا يحدثن الله عليك إلا خيراً ، صاع من نعدك ؛ ولكن أقطع الفرات ، واستنصر الشام جنداً جنداً ، فإنك في كنف وعدة ، ولك في كل جند صنائع وأصعاب ، إلى أن تأتي مصر ، فهي أكثر أرض الله مالا وخيلاً ورجالا ، والشام أمامك ، وإفريقية خلفك ، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام ، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية ، فقال : صدقت واستخير الله . فقطع الفرات والله ما قطعه معه من قيس إلا رجلاً : ابن حديد السلمي . وكان أخاه من الرضاة .. والكوثري ، الأسود السنوي ، وغدر به سائر التزارية مع نصبه لهم ؛ فلما اجتاز ببلاد قنسرين وخناصرة ، أوقفوا سائقه ، ووثب به أهل خمس ، وصار إلى دمشق ، فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشي ثم العقيلي ، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمرو التميمي ، ثم مروان بن الحارث ، فوثب به أهلها ، وعلم مروان أن إسماعيل بن عبد الله قد غشه في الرأي ، ولم يخلصه النصيحة ، وأنه فرط في مشورته إياه

(١) يطلق الدرب على ما بين طرطوس وبلاد الروم

إذ شاور رجلا من قحطان موتورا شاتئا له ، وإن رأى كان أول الذي هم به من قطع الدرب والنزول يعض مدن الروم ومكانته ملكها . والله أمر هو باله (١) !



لما نزل مروان بالزئاب ، جرد من رجاله ثمن اختاره من أهل الشام والجزيرة وغيرها مائة ألف فارس ، على مائة ألف فارس ، ثم نظر إليهم ، وقال : إنها لمدة ولا تنفع المدة ، إذا انتهت المدة (٢) .



لما أشرف عبدالله بن علي يوم الزئاب في السودة ، وفي أوائلهم البنود السود ، تحملها الرجال على الجبال البخت (٣) ، وقد جبل لها بدلا من القناحشب الصفصاف والقرب (٤) قال مروان لمن قرب منه : أما ترون رجلا منهم كأنها النخل غلظا ! أما ترون أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع النمام السود أبيضاً هو ينظرها ويسحب ، إذ طارت قطعة عظيمة من الثوبان السود ، فنزلت على أول حسكر عبدالله بن علي ، واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود ، ومروان ينظر ، فازداد تعجب ، وقال : أما ترون إلى السواد قد اتصل بالسواد ! حتى صار الكل كالسحب السود لكثافته ثم أقبل على رجل إلى جنبه فقال : ألا تترقى من صاحب جيشهم ؟ فقال : عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب . قال : ويحك ! أين ولد العباس هو ؟ قال : نعم ، قال : ولقد لوددت أن علي بن أبي طالب عليه السلام مكانه في هذا الصف ، قال : يا أمير المؤمنين ، أتقول هذا لعلي مع شجاعته التي ملأ الدنيا ذكرها ! قال : ويحك ! إن عليا مع شجاعته صاحب دين ، وإن الدين غير الملك ، وإننا نروى عن قديمنا أنه لا شيء لعلي ولا ولده في هذا . ثم قال : من هو من ولد العباس ،

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٦٤ ، ٢٦٥ (٢) مروج الذهب ٣ : ٢٦٥ مع اختصار ونصرف .
(٣) البخت : الإبل الحراسانية (٤) القرب : شجرة حجازية ضخمة شاكّة .

فإني لا أثبت شخصه ؟ قال : هو الرجل الذي كان يخامس بين يديك ؛ عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر . فقال أذكرني صورته وحيثته ، قال : هو الرجل الأقنى الحديد العضل ، المروق الوجه ، الخفيف اللحية ، النصبيح اللسان ، الذي قلت لمّا سمعت كلامه يومئذ : يرزق الله البيان من يشاء ، فقال : وإنه لم يزل يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ! أنعم لم صيرت الأمر بعدى لوادى عبد الله ، وابنى محمداً كبير سنامته ؟ قال : لا ، قال : إن آباءنا أحبرونا أن الأمر صائر بصدى إلى رجل اسمه عبد الله فوليته دونه .

ثم بعث مروان بعد أن حدث صاحبه بهذا الحديث إلى عبد الله بن عليّ سرّاً ، فقال : يا ابن عمّ ، إن هذا الأمر صائر إليك ، فأتق الله واحفظني في حرّمي ، فبعث إليه عبد الله : إن الحق لنا في دمك ، وإن الحق علينا في حرّملك ^(١) .

قلت : إن مروان ظن أن الخلافة تكون لعبد الله بن عليّ ، لأن اسمه عبد الله ، ولم يعلم أنها تكون لآخر اسمه عبد الله ، وهو أبو الهيثم السفاح .

•••••

كان العلاء بن رافع سبط ذي الشكّلاع الحميري مؤسساً لسلطان بن هشام بن عبد الملك لا يكاد يفارقه ، وكان أمر المسودة بخراسان قد ظهر ودنوا من العراق ، واشتدّ إرجاف الناس ، ونطق العدو بما أحبه في بني أمية وأولياهم .

قال العلاء : فإني لمع سليمان وهو يشرب نساء رصافة أبيه ، وذلك في آخر أيام يزيد الناقص ، وعنده الحكم الوادي ^(٢) ، وهو يسميه شعر المرحى ^(٣) :

إن الحبيب تروحت أجماله أضلّا ، فلمعك دائم إسبالة ^(٤)

فأقن الحياء فقد بكيت مولة لو كان ينفع ما كيا إمواله ^(٥)

(١) مروج الذهب : ٣ : ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٢) في الأصول : الأودي ، نصيب ، وصوانه و مروج الذهب

(٣) في الأصول : الرحى ، نصيب (٤) ديوانه ٦٩

(٥) إلى الحياء : أحبطه .

ياحبذا تلك الحول وحبذا شخص هناك ، وحبذا أمثاله !

فأجابه ماشاء ، وشرب سليمان بن هشام بلالاً طملاً ، وشربنا معه حتى توسدنا أيدينا ، فلم أنقبه إلا بتعريك سليمان إياي ، فقممت مسرعاً ، وقلت : ماشان الأمير ؟ فقال : على ريسك ، رأيت كأتى في مسجد دمشق ، وكان رجلاً على يده حَجَرٌ ، وعلى رأسه تاج ، أرى بصيصاً مافيه من الجواهر ، وهو رافع صوته بهذا الشعر :

ابنى أمية قد دنا تشتيتكم وذهاب ملككم وليس براجع

وينال صفوته عـلـو ظالم كـأـسـا لـكم سـمـام مـوت نـاقـع

فقلت : أعيذ الأمير بالله وسأوس الشيطان الرجيم اهـذا من أخفاث الأحلام ، ومما يقتضيه ويحلبه الفكر ، وسماح الأراجيف . فقال : الأمر كما قلت لك ، ثم وجَّه ساعة ، وقال : يا حيرى ، بعيد ما يأتى به الزمان قريب !

قال الملاء : فوالله ما اجتمعنا على شراب بعد ذلك اليوم ^(١)



سُئِلَ بعضُ شيوخ بني أمية عقيب زوال ملك منهم : ما كان سببُ زوال ملككم ؟ فقال : حار عمالنا على رعيننا ، فتمتوا الراحة منا ، ونحو مل على أهل خراجنا فحلوا عنا ، وخربت ضياعنا نخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا ، فأثروا مرافقهم على منافعتنا ، وأمضوا أموراً دوننا ، أحفوا عليها عنا ، وتأخر طلاء جندنا ، فزالت طاعتهم لنا ، واستدام عدونا ؛ فظامروا على حربنا ، وطبنا أعداءنا فمعزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استنار الأخبار هنا من أوكد أسباب زوال مُلْكنا .



كان سعيد بن عمر بن جَعْلَةَ بن هبيرة الحُرُمي ، أحد وزراء مروان وسنارته ، فلما ظهر

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٢٩ ، ٢٢٠

أمر أبي العباس السفاح ، أنماز إلى بنى هاشم ، وست إليهم بأم هانئ بنت أبي طالب ، وكانت تحت هيرة بن أبي وهب ، فأثت منه بجعدة ، فصار من حواصل السفاح وبطائنه ، فجلس السفاح يوما ، وأمر بإحصار رأس مروان وهو بالحيرة يومئذ ؛ ثم قال للحاضرين : أيتكم يعرف هذا ؟ فقال سميد : أنا أعرفه ، هذا رأس أبي عبد الملك مروان بن محمد بن مروان حليفتنا بالأمس ، رحمه الله تعالى ! قال سميد : فخذت إلى الشيعة ، ورمقني بأبصارها ، فقال لي أبو العباس : في أي سنة كان مولده ؟ قلت : سنة ست وسبعين ، فقام وقد تعبر لوجه عضاضا على ، وتفرق الناس من المجلس ، وتحدثوا به ، فقلت : زلة والله لا تستفال ولا ينساها القوم أبدا ! فأنيت مزي ، فلم أزل ماتي بومي أعهد وأوصي ، فلما كان الليل اغتسلت وتهيأت للصلاة - وكان أبو العباس إذا هم بأمر نث فيه ليلا - فلم أزل ساهرا حتى أصبحت وركت سنتي ، وافسكت عيني أفصدي أمري ، فلم أجد أحدا أتلى من سليمان بن مجالد مولي بني ربيعة ، وكانت له من أبي العباس مئة عظيمة ، وكان من شيعة القوم ، فأنيت ، فقلت له : أذكر كرى أمير المؤمنين البارحة ؟ قال : نعم ، جرى ذكرك ، فقال : هو ابن أختنا ، وفي لصاحبه ، ونحن لو أولينا حيرا لكان لنا أشكر . فشكرت لسليمان بن مجالد ما أحمرني به ، وجزيت حيرا ، وانصرفت . فلم أزل من أبي العباس على ما كنت عليه ، لا أرى منه إلا حيرا .

وعما ذلك المجلس إلى عبد الله بن علي وإلى أبي جعفر المنصور ، فأما عبد الله بن علي فكتب إلى أبي العباس يعريه في ، وبعثه على الإمساك عني ، ويقول له : إنه ليس مثل هذا مما يحتمل ، وكتب إليه أبو جعفر بمذري ، وضرب الدهر ضربته ، فأثت ذات يوم عند أبي العباس ، فبهس وسهت ، فقال لي : قل لي منك يا ابن هيرة ! فخلست ، فرفع الثر ، ودخل وثبت في مجلسه قليلا ، ثم خرج في ثوبي وثني ورداء وجبة ، فما رأيت والله أحسن منه ولا مما عليه قط ، فقال لي : يا ابن هيرة ، إني ذا كرت لك أمرا ، فلا

يخرج من رأسك إلى أحد من الناس فت : نعم ، قال : قد علمت ما جعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قتل مروان ، وإنما قتله عتي عبد الله بجيشه وأصحابه ونفسه وتديره ، وأنا شديد الفكر في أمر أخى أوى جعفر ، في فصله وعلمه وحسنه وإثاره لهذا الأمر ، كيف أخرجه عنه اقلعت : أصلى الله أمير المؤمنين ! إنى أحدثك حديثاً تعتبر به ، ونستمى بسامعه من مشاورنى ، قال : هاته ، فقلت : كنّا مع مسلمة بن عبد الملك عام الخلويع بالقسطنطينية ، إذ ورد علينا كتاب عمر بن عبد العزيز يسمّى سليمان ، ومصير الأمر إليه ، فدحات إليه ، فرمى الكتاب إلى قرائه ، واسترجعت ، واندفع يبكى وأطال ، فقلت : أصلى الله الأمير وأطال بقاءه ! إن البكاء على الأمر القاتل هجر ، والموت منهل لا بد من ورده ، فقال : ويحك ! إنى لست أبكى على أخى ، لكنى أبكى لخروج الأمر عن ولد أبى إلى ولد عتى ! فقال أبو القاسم : حبك ، قد فهمت عنك ، ثم قال : إذا شئت فأنهض ، فلما نهضت لم أكن بعيداً حتى قال لى : يا ابن هيرة ! فالفتت إليه ، فقال : أما إنك قد كافأت أحدهما ، وأحذيت بشارك من الآخر ، قال سعيد : فوالله ما أدرى من أى الأمرين أحجب ! من فعلته أم من ذكره ^(١) .



لما سائر عبد الله بن على في آخر أيام بنى أمية عبد الله بن حسن بن حسن ؛ ومعهما داود بن على ، فقال داود لعبد الله بن الحسن : لم لا تأمر ابنك بالظهور ؟ فقال عبد الله بن حسن : لم يأن لهما بعد ؛ فالجئت إليه عبد الله بن على ، فقال : أظنك ترى أن ابنك قاتلا مروان ! فقال عبد الله بن حسن : إنه ذلك ، قال : هيهات ! ثم تمثّل :

سيكفيك الجعالة مستميت^(١) خفيف الحاذير من فتيان جرّوم
أنا والله أهل مروان ، وأسلبه ملكه ؛ لا أنت ولا ولدك^(٢) !

وقد روى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني رواية أخرى في سبب قتل السفاح
لأن كان أمته من بني أمية ، قال : حدث الزبير بن بكار ، عن عمه ، أن السفاح أنشد
يوما قصيدة مدح بها ، وعنده قوم من بني أمية كان آمنهم على أنفسهم ، فأقبل على
بعضهم ، فقال : أين هذا مما مدحتم به ؟ فقال : هيهات ! لا يقول والله أحد فيكم مثل قول
ابن قيس الرقيات فهنا :

ما تقسوا من بني أمية إلا أنهم يحملون إن غصبوا^(٣)
وأثم معدن السلوك فما صلح إلا عليهم العرب

فقال له : يا ماس كذا من أمه ! وأنت انطلاقا لني ضحك بعد ! خذوهم .
فأخذوا وقتلوا^(٤) .

وروى أبو الفرج أيضا أن أبا العباس دعا بالفداء حين قتلوا ، وأمر ببساط فبسط
عليهم ، وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته ، فلما فرغ ، قال : ما أعلم أني أكلت
أكلة قط كانت أطيب ولا أهدأ في نفسي من هذه^(٥) . فلما فرغ من الأكل قال : جرّوهم
بأرجلهم ، وألقوهم في الطريق ؛ ليلتمهم الناس أمواتا كما لقنوم أحياء .

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٧٤

(٢) ديوانه ٤

(٣) الأغاني ٤ : ٣٤٦ (طبعة القار) .

(٤) الأغاني : ٥ منها .

قال : فقد رأينا الكلاب تجرهم بأرجلهم ، وعليهم سراويلات الوثني حتى أنقنوا ،
ثم حفرت لهم ثر فألقوا فيها^(١) .

• • •

قال أبو العرج : وروى عمر بن شبة ، قال : حدثني محمد بن معن الفخاري ، عن
معبد الأنباري ، عن أبيه ، قال : لما أقبل داود بن علي من مكة ، أقبل معه بنو حسن
جميعاً ، وفيهم عبد الله بن حسن بن حسن ، وأخوه حسن بن الحسن ، ومعه محمد بن
عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان - وهو أخو عبد الله بن الحسن لأمه - فعمل داود
مجلساً ببعض الطريق ، جلس فيه هو والهاشميون كلهم ، وحلّس الأمويون تحتهم ، فجاء
ابن هريرة فأنشده قصيدة يقول فيها :

فَلَا حَقَّ اللَّهُ عَنْ مَرْوَانَ مُظْلَمَةً وَلَا أُمِّيَّةً ، بَشَسَ الْخَلَسَ النَّادِي
كَانُوا كَمَا دَامَ قَامِي اللَّهُ إِطْلِكْهُمْ مَثَلُ مَا أَهْلَكَ الْعَاوِينَ مِنْ عَادٍ
فَلَنْ يَكْذِبُنِي مِنْ هَاشِمٍ أَحَدٌ فَبِأَقُولُ ، وَلَوْ أَكْثَرُ تَعْدَادِي

قال : فبذل داود نحو عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص ضحكة
كالكثرة ، فلما قاموا قال عبد الله بن الحسن لأخيه الحسن بن الحسن : أما رأيت
ضحك^(٢) داود إلى ابن عنبسة الحمد لله الذي صرّفها عن أخي - يعني العباسي -
قال : فإهو إلا أن قدم للدينة ، حتى قتل ابن عنبسة^(٣) .

• • •

قال أبو الفرج : وحدثني محمد بن معن ، قال : حدثني محمد بن عبد الله بن عمرو

(١) الأغاني ٤ : ٣٤٧ (طعة الفار) .

(٢) الأغاني : « ضحكه إلى ابن عنبسة » .

(٣) الأغاني ٤ : ٣٤٨ (طعة الفار) .

ابن هنان ، قال : استعلف أخى عبد الله بن الحسن داود بن علي - وقد حج معه سنة اثنتين وثلاثين ومائة - بطلاق امرأته مليكة بنت داود بن الحسن ، ألا يقتل أخويه محمدا والقاسم ابني عبد الله بن عمرو بن عثمان ، قال : فكنت أحتيف إليه آمنا ، وهو يقتل بني أمية ، وكان بكره أن يراني أهل حراسان ، ولا يستطيع إلى سبيل لميعة ، فاستدناي يوما ، فدنوت منه ، فقال : ما أكثر العقلة ، وأقل الحزمة ! فأخبرت بها أخى عبد الله بن الحسن ، فقال : يا ابن أم ، تسيب عن الرجل ، وأقل عنه ، فتغيب حتى مات^(١) .

قلت : إلا أن ذلك الذي لم يقمه داود ، قصاه أبو جعفر المنصور .

• • •

وروى أبو الفرج في الكتاب المذكور أن سُدبفا أشد أبا العباس ، وعند رجاء من بني أمية ، قال :

يا بن مَمّ النبي استضيأ استبقا بك اليقين الجليأ
[فلما بلغ قوله]^(٢) :

جرّد السيف وارفع المنو حتى لا ترى فوق ظهرها أمريأ^(٣)
فمأن البعض في القديم وأضحى^(٤) ثابأ في قلوبهم مطويأ
وهي طويأ ، فقال أبو العباس : يا سُدبف ، خَلِقَ الإنسان من مجل ! ثم أشد أبو العباس متمثلا :

أحيا الضغائن آباء لنا سَففوا فلن تبيد وللآباء أبشاه

(١) الأغاني ٤ : ٣٤٨ (طعة الدار) .

(٢) من الأغاني .

(٣) ذكر بعده في الأغاني :

لا يفر نلكت ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويأ

(٤) في الأغاني : « بطن البنفس » .

ثم أمر بمن عنده قتلوا^(١).

وروى أبو الفرج أيضاً ، عن علي بن محمد بن سليمان النوفلي ، عن أبيه ، عن عموته ، أنهم حضروا سليمان بن علي بالبصرة ، وقد حضر جماعة من بني أمية عنده ، عليهم الثياب للوشاة^(٢) للرتقة - قال أحد الرواة للذكورين : فكأنني أنظر إلى أحدكم وقد أسود شيب في عارضيه من العالة^(٣) - فأمر بهم قتلوا وجُرتوا بأرجلهم ، فالتقوا على الطريق ، وإن عليهم لسراويلات الزنى والكلاب تجرهم بأرجلهم^(٤).

وروى أبو الفرج أيضاً عن طارق بن المبارك ، عن أبيه ، قال : جاءني رسول عمرو ابن معاوية بن عمرو بن حنبل بن أبي سفيان ، قال : يقول لك [عمرو]^(٥) : قد جاءت هذه الدولة ، وأما حديث السن ، كثير العيال ، منتثر الأموال ؛ فما أكون في قبيلة إلا شهر أمري وعرفت . وقد هزمت علي أن أخرج من الاستار ، وأقدي حرمي بنفسي ، وأنا صائر إلى باب الأمير سليمان بن علي ، فصر إلى . فوافيته فإذا عليه طيلسان أبيض مطبق ، وسراويل وثني مسدول ، قتلت : يا سبحان الله ! ما تصنع الخدانة بأهلها ! أ بهذا اللباس تلقى هؤلاء القوم لئلا تريد لقاءم [فيه]^(٦) أقال : لا والله ، ولكن ليس عندي ثوب إلا أشهر مما ترى . فأعطيت طيلساني وأخذت طيلسانه ، ولويت سراويله إلى ركبتيه . فدخل إلى سليمان ، ثم خرج مسروراً فقلت له : حدثني ما جرى بينك وبين الأمير ، قال : دخلت عليه ولم يرني^(٧) قط ، قلت : أصلح الله الأمير ! تظنني البلاد إليك ودلتني فضلك

(١) الأغاني ٤ : ٣٤٨ ، ٣٤٩ (طعة قمار) .

(٢) الأغاني : « للوشية » .

(٣) القالية : ضرب من الطيب .

(٤) من الأغاني .

(٥) الأغاني : « ولم تراء » .

(٦) الأغاني ٤ : ٣٤٩

عليك ؛ إِمَّا قَتَلْتَنِي [غَانِمًا] ^(١) وَإِمَّا أَمْنَيْتَنِي [سَالِمًا] ^(٢) ، فقال : وَمَنْ أَنْتَ حَتَّى أَعْرِفَكَ ؟
فَانْتَسَبَتْ لَهُ ، فقال : مَرْحَبًا بِكَ ! أَقْعَدَ فَحْكُمَ سَالِمًا آمِنًا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى - فقال : حَاجَتُكَ يَا بَنَ
أَخِي ؟ فقلت : إِنْ الْحَرَمَ الدَّوَانِي أَنْتَ أَقْرَبُ الدَّسِّ إِلَيْهِمْ مَعْنَاءُ ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِهِمْ بَعْدَنَا ، قَدْ
خَفَنَ خُوفَنَا ، وَمَنْ خَافَ خِيفَ عَلَيْهِ . فَوَاللَّهِ مَا أَجَابَنِي إِلَّا بِدُمُوعِهِ عَلَى خَدَّيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
يَا بَنَ أَخِي ، يَحْقِيقُ أَفْهَمَكَ ، وَيَحْفَظُكَ فِي حُرْمَتِكَ ، وَيُوقِرُ عَلَيْكَ مَالَكَ ؛ فَوَاللَّهِ
لَوْ أَسَكَنْتَنِي ذَلِكَ فِي جَمِيعِ قَوْمِكَ لَعَمَلْتُ ، فَكُنْ مَتَوَارِكًا كَظَاهِرٍ ، وَآمِنًا كَعَائِفٍ ، وَلِنَأْتِيَنَّ
رَفَاعُكَ . قَالَ : فَوَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْتُبُ إِلَيْهِ كَمَا يَكْتُبُ الرَّجُلُ إِلَى أَبِيهِ وَوَعْدِهِ . قَالَ : فَلَمَّا
فَرَّغَ مِنَ الْحَدِيثِ ، رَدَدَتْ عَلَيْهِ طِيلَسَانَهُ ، فَقَالَ : مَهْلًا ، فَإِنْ ثِمَابَنَا إِذَا قَارَقْنَا لَمْ تَرْجِعْ
إِلَيْنَا ^(٣) .

وروى أبو الفرج الأصفهاني ، قال : أَخْبَرَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجَوْهَرِيُّ ، عَنْ عَمْرِ بْنِ
شُبَّةٍ ، قَالَ : قَالَ سُدَيْفٌ لِأَبِي الْعَبَّاسِ بِحَضْرَةِ عَلِيِّ بْنِ أُمَيَّةَ ، وَبِذِكْرِ مَنْ قَتَلَ مَرْوَانَ وَبَنُو
أُمَيَّةَ مِنْ أَهْلِهِ :

كَيْفَ بِالْمَقْصُوعِ عَنْهُمْ وَقَدْ بَيَّنَّا قَتَلُوكُمْ وَهَتَّكُوا الْحُرَمَاتِ
أَبْنَ رَيْدٍ وَأَبْنَ يَحْيَى بْنَ زَيْدٍ يَا هُمَا مِنْ مَعْصِيَةِ وَتَرَاتٍ
وَالْإِمَامَ الْقُدِّيَّ أَصِيبَ بِحَرْبٍ نَ إِمَامَ الْهُدَى وَرَأْسَ الثَّقَاتِ
قَتَلُوا آلَ أَحْمَدَ لَا عَفَا الدَّنْبَ لِمَرْوَانَ غَافِرُ السُّيُوفَاتِ

• • •

قال أبو الفرج : وَأَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ الْأَخْفَشُ ، قَالَ : أَشَدَّنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الْمُبَرَّدُ
لِرَجُلٍ مِنْ شِيعَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، يَحْضُرُهُمْ عَلِيُّ بْنُ أُمَيَّةَ :

(١) مِنَ الْأَعْيَانِ .

(٢) مِنَ الْأَعْيَانِ ، وَرَوَاهُ : « وَإِمَّا رَدَدْتَنِي سَالِمًا » .

(٣) الْأَعْيَانُ ٤ : ٣٤٩ ، ٣٥٠ (طَبْعَةُ الْهَارِ) .

إياكم أن تليقوا لاعتذارهم فليس ذلك إلا الخوف والطمع
لو أنهم آمنوا أبدوا عداوتهم لكنهم قِيمُوا مَالِقِلَ قَاتَمُوا
أليس في ألف شهر قد مضى لم سقيم جُرْعًا من بعدها جُرْعُ
حق إذا ما انقضت أيام مدتهم متوا إليكم بالأرحام التي قطعوا
هيئات لا بد أن يسقوا بكأسهم رِيًا وَأَنْ يَحْصُدُوا الزرع الذي زرعوا
إنا وإخواننا الأنصار شيعتكم إذا تفرقت الأهواء والشيع^(١)

• • •

قال أبو الفرج : وروى ابن المعتز في قصة سُديف مثل ما ذكرناه من قبل ؛ إلا أنه قال فيها : فلما أنشده ذلك الفتى إليه أبو العَمَر سليمان بن هشام ، فقال : يا مامن بَنُظْرَامِهِ ، أَمْجَهْنَا بِمِثْلِ هَذَا وَنَحْنُ سَرَوَاتُ الْبَاسِ لَا فَخْصُ أَبُو الْعَبَّاسِ - وكان سليمان بن هشام صديقه قديما وحديثا ، يقضى حوائجه على أيديهم ويترأسهم يلتفت إلى ذلك ، وصاح ، يا غر اسامية : [خنوم] ^(٢) اقتلوم جميعا إلا سليمان بن هشام ، فأقبل عليه أبو العباس ، فقال : يا أبا العَمَر : ما أرى لك في الحياة بعدهؤلاء خيرا . قال : لا والله ، قال : فاقتلوه ، وكان إلى جانبه قَتِيلٌ وصاحبوا في بستانه ؛ حتى تَأْدَى جِلسَاؤُهُ رِيحَهُمْ ، فكلّموه في ذلك ، فقال : والله إن ريحهم عندى لألذ وأطيب من ريح المسك والخبر غيظا عليهم [وحقا] ^(٣) .

• • •

قال أبو الفرج : وكان أبو سعيد مولى فائد من مواليتهم بعد في موالى عثمان بن عفان واسم أبي سعيد إبراهيم ؛ وهو من شعرائهم القديين رثوهم ، وبكوا على دولتهم وأيامهم ؛ فمن شعره بعد زوال أسرهم :

(١) بعده في الأغاني ٤ : ٣٥١ :

إياكم أن يقول الناس إنهم قد ملكوا ثم ماضوا ولا نفعوا

(٢) من الأغاني ٤ : ٣٥١ وانظر طبعات الشعراء لابن المعتز ٣٩ ، ٤٠

بَكَيْتُ وَمَاذَا يَرِدُ الْبُكَاءُ : وَقَتْلُ الْبُكَاءِ قَتْلَى كَذَاءِ
أَصِيبُوا مَعًا فَتَوَلَّوْا مَعًا كَذَلِكَ كَانُوا مَعًا فِي رَحَاءِ
بَكَيْتُمْ الْأَرْضَ مِنْ مَدِينِهِمْ وَبَاحَتْ عَلَيْهِمْ بِجُودِ السَّمَاءِ
وَكَانُوا ضِيَاءَ فَلَمَّا انْقَضَى الزَّمَانُ بَقِيَ تَوَلَّى الضِيَاءِ

ومن شعره فيهم :

أَثَرُ الدَّهْرِ فِي رِجَالِي فَفَلَّوْا بِمَدِّ جَمْعِ فَرَاخِ عَظِيمِ مَهِيضَا
مَا تَذَكَّرْتُهُمْ فَضَلَّكَ عَيْنِي فِيمَنْ دَمَعٌ وَحَقَّقَ لِي أَنْ تَقِيضَا

ومن شعره فيهم :

أُولَئِكَ قَوْمٌ سَدَّ عِزِّي وَثَرَوِي تَدَاعَوْا فَلَا تُلْزِمُوا الْعَيْنَ أَكْثَرُ
كَانَهُمْ لَا نَاسَ لِلْمَوْتِ عِوَاهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مُلَصِّفًا عِوَاهُ مُعْتَدٍ^(١)

وقال أبو الفرج : رَكِبَ لِلْأُمُونِ بِمَشْقٍ بِمَصِيدٍ ؛ تَخَيَّرَ بَاعَ جَبَلِ الشَّامِ ، فَوَقَفَ فِي
بَعْضِ الطَّرِيقِ عَلَى بَرَكَةِ عَظِيمَةٍ ، فِي جَوَانِهَا أَرْبَعُ مَرَوَاتٍ^(٢) ، لَمْ يُرَ أَحْسَنُ مِنْهَا ، فَتَزَلَّ
هَنَّاكَ ؛ وَجَمَلَ بِنَظَرٍ إِلَى آثَارِ بَنِي أُمَيَّةٍ وَبَسَّحَ مِنْهَا ، وَيَذَكَّرُهُمْ . ثُمَّ دَعَا بِطَائِفٍ عَلَيْهِ
طُمَامٌ ، فَأَكَلَ ، وَأَمَرَ عَلَيْهِ فَنَى :

أُولَئِكَ قَوْمٌ سَدَّ عِزِّي وَمَنْعَهُ تَدَاعَوْا فَلَا تُلْزِمُوا الْعَيْنَ أَكْثَرُ
وَكَانَ عَلَيْهِ مِنْ مَوَالِي بَنِي أُمَيَّةٍ ، فَمَصَّبَ الْأُمُونُ . وَقَالَ : يَا بَنِي الْعَاعِلَةِ ، أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ
وَقْتُ تَبْكِي فِيهِ عَلَى قَوْمِكُمْ إِلَّا هَذَا الْوَقْتُ ؛ قَالَ : كَيْفَ لَا أَبْكِي عَلَيْهِمْ وَمَوْلَاكُمْ زُرِّيَابُ ،
كَانَ فِي أَيْامِ دَوْلَتِهِمْ يَرْكَبُ مَعَهُمْ فِي مَائَةِ عِلَامٍ ، وَأَنَا مَوْلَاهُمْ مَعَكُمْ أَمُوتُ جُوعًا فَقَامَ الْأُمُونُ

(١) الأغانى : ٣٥٣ (طبعة الدار) .

(٢) المرو : شجر حسن الهيئة قويم الساق ، واحده مروءة

فركبوا انصرف الناس ، وغضب على عتوبه عشرين يوماً ، وكلم فيه فرضى عنه ، ووصله بعشرين ألف درهم^(١) .

• • •

لما ضرب عبد الله بن علي - أعتاق بني أمية ، قال له قاتل من أوصعابه : هذا والله جهد البلاء ، فقال عبد الله : كلا ، ما هذا وشريطة^(٢) حجام إلا سواء ، إنا جهد البلاء فقر مدقع ، بعد غنى موسع^(٣) .

• • •

خطب سليمان بن علي لما قتل بني أمية بالبصرة ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾^(٤) فضاء فصل ، وقول مبهم ، فالحمد لله الذي صدق عبده ، وأحمر رعدته ؛ وعلماً للقوم الظالمين ؛ الذين اتخذوا الكعبة غرضاً ، والذين هزوا ، والنبي ، وإرثاً ، والقرآن عييين ؛ لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون . وكأين ترى لم من بنى معطلة وقصر مشيد ، ذلك بما قدمت أيديهم ، وما ربك بظلام للعبيد ؛ أمهلهم حتى اضطهدوا العترة ، ونبدوا السنة ؛ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، ثم أحزم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ١

• • •

ضرب الوليد بن عبد الملك علي - بن عبد الله بن العباس بالسياط ، وشهره بين الناس يُدار به على بعير ، ووجهه مما يلي ذنب البعير ، وصائح بصيح أمامه : هذا علي بن عبد الله الكذاب ، فقال له قاتل ، وهو على تلك الحال : ما الذي نسبوك إليه من الكذب يا أبا محمد ؟ قال : بلعهم قولي : إن هذا لأمر سيكون في ولدي ؛ والله ليسكون فيهم

(٢) الشرط : يرغ الحجام بالمضبوط .

(١) الأغاني ١٤ : ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٣) الخبر في اللسان (٩ : ٢٥) ، مع اختلاف في الرواية (٤) سورة الأنبياء : ٥ .

حتى يَمْلِكَهُ عبيد الصغار العميون ، العراض الوجوه ، الذين كأن وجوههم
الجان للطرقة .

وروى أن علي بن عبد الله دخل على هشام ومعه ابنا ابنة : الخليفةان أبو العباس
وأبو جعفر ، فكلّمه فيما أراد ، ثم ولى فقال هشام : إن هذا الشيخ قد خرف وأهتر؛
يقول : إن هذا الأمر سينقل إلى ولده أسمع علي بن عبد الله كلامه ، فالتفت إليه ،
وقال : إي والله ليكونن ذلك ، وليلكن هذان .

وقد روى أبو العباس المبرد في كتاب " الكامل " هذا الحديث ، فقال : دخل
علي بن عبد الله بن العباس على سليمان بن عبد الملك فيما رواه محمد بن شعاع البلخي ،
ومعه ابنا ابنة الخليفةان بعد : أبو العباس وأبو جعفر ، فأوسع له على سريره وبره ، وسأله
عن حاجته ، فقال : ثلاثون ألف درهم علي دين ، فأمر بقصاتها ، قال : واستوص بابني
هذين خيرا ، فعزل ، فشكره علي بن عبد الله ، وقال : وصلتك رحم ، فلما ولى قال
سليمان لأصحابه : إن هذا الشيخ قد احتل وأسن وخلط ، وصار يقول : إن هذا الأمر
سينقل إلى ولده . فسمع ذلك علي بن عبد الله ، فالتفت إليه ، وقال : إي والله ليكونن
ذلك ، وليلكن هذان^(١) .

قال أبو العباس المبرد : وفي هذه الرواية غلط ، لأن الخليفة في ذلك الوقت لم يكن
سليمان ، وإنما ينبغي أن يكون دخل على هشام ؛ لأن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس
كان يحاول التزويج في بني الحارث بن كعب ، ولم يكن سليمان بن عبد الملك يأذن له ، فلما
قام عمر بن عبد العزيز جاء فقال : إني أردت أن أتزوج ابنة خالي من بني الحارث

(١) الكامل ٢ : ٢١٨ مع اختلاف في الرواية .

ابن كعب ، فأذن لي ! قال عمر بن عبد العزيز : تزوج برحمتك الله من أحببت . فتزوجها فأولدها أبا العباس السفاح ، وعمر بن عبد العزيز بعد سليمان ، وأبو العباس بنهي ألا يكون نهيأ مثله أن يدخل على خليفة حتى يترعرع ، ولا يتم مثل هذا إلا في أيام هشام ابن عبد الملك .



قال أبو العباس اللُّبَّد : وقد جاءت الرواية أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام لما وُلِدَ لبهده الله بن العباس مولود فقلده وقت صلاة الظهر ، فقال : ما بهل ابن العباس لم يحضر ! قالوا : وُلِدَ له ولهم ذكر ، يا أمير المؤمنين . قال : فامضوا بنا إليه ، فأتاه فقال له : شكرت الوهاب ، وبورك لك في الموهوب ! ما سميتَه ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أو يحوز لي أن أسميه حتى نسيه ! فقال : أخرج إلى ، فأخرجني ، فأخذه لحنك ودعا له ثم رده إليه ؛ وقال : خذ إليك أبا الأملك ، قد سميتَه علياً ، وكبته أبا الحسن . قال : فلما قدم معاوية خليفة ، قال لبهده الله بن العباس : لا أجمع لك بين الاسم والكنية ، قد كبته أبا محمد ، فبرئت عليه ^(١) .

قلت : سألت القصب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد رحمه الله تعالى ، فقلت له : من أي طريق عرف بنو أمية أن الأمر سينقل عنهم ، وأنه سيليه بنو هاشم ، وأول من يلي منهم يكون اسمه عبد الله ؟ ولم منعموم عن مناعة بن الحارث بن كعب لعلمهم أن أول من يلي الأمر من بني هاشم تكون أته حارثية ؟ وبأي طريق عرف بنو هاشم أن الأمر سيصير إليهم ، ويعلمك عبيد أولادهم ؟ حتى عرفوا صاحب الأمر بعينه ، كما قد جاء في هذا الخبر !

قال : أصلُ هذا كُلهُ محمد بن الحنفية ، ثم ابنه عبد الله السكتي أبا هاشم .
قلت له : أفكان محمد بن الحنفية مخصوصاً من أمير المؤمنين عليه السلام يعلم
يستأثر به على أخويه حسن وحسين عليهما السلام ؟ قال : لا ، ولكنهما كتبا وأذاع .
ثم قال : قد سحقت الرواية عندنا عن أسلافنا وعن غيرهم من أرباب الحديث ، أن علياً
عليه السلام لما قبض أتى محمد ابنه أخويه حسناً وحسيناً عليهما السلام ، فقال لهما : أعطيتاني
ميراثي من أبي ، فقالا له : قد علمت أن أباك لم يترك صفراء ولا بيضاء ، فقال : قد علمت
ذلك ؟ وليس ميراث المال أطلب ؛ وإنما أطلب ميراث العلم .

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى : فروي أبان بن عثمان ثمن يروي له ذلك ، عن جعفر بن
محمد عليه السلام ، قال : فدُفنا إليه صحيفة ، لو أطلعناه على أكثر منها لهلك ، فيها ذكر
دولة بني العباس .

قال أبو جعفر : وقد روى أبو الحسن علي بن محمد النوفلي ، قال : حدثني عيسى
ابن علي بن عبد الله بن العباس ، قال : لما أوردنا الحرب عن مروان بن محمد ، لما قبض على
إبراهيم الإمام جعلنا نسخة الصحيفة التي دُفنها أبو هاشم بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي
ابن عبد الله بن العباس ، وهي التي كان آباؤنا يستونها صحيفة الدولة ، في صندوق من
نحاس صغير ، ثم دفناه تحت زبونات بالشراة ^(١) لم يكن بالشراة من الزبوتون
غيره من ، فلما أفضى السلطان إلينا ، وملكنا الأمر ، أرسلنا إلى ذلك للوضع فبعث وحفر ،
فلم يوجد فيه شيء ، فأمرنا بحفر جريب من الأرض في ذلك الموضع ؛ حتى بلغ الحفر الماء
ولم نجد شيئاً .

قال أبو جعفر : وقد كان محمد بن الحنفية صريح بالأمر لعبد الله بن العباس وعرفه
تفصيلاً ، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام قد فصل لعبد الله بن العباس الأمر ، وإنما أخبره به
(١) العراة : سقع بالشام بين المدينة ودمشق ، ومن يس نواحي القرية للمروقة بالحبيمة ، كان يسكنها
وله علي بن عبد الله بن عباس في أيام بني مروان . يظن .

عجلاً ، كقولهم في هذا الخبر : « خذ إليك أبا الأملاك » ، ونحو ذلك مما كال يمرض له به ؛
ولكن اتقى كشف القناع ، وأبرز المستور عليه هو محمد بن الحنفية .

وكذلك أيضاً ما وصل إلى بني أمية من علم هذا الأمر ، فإنه وصل من جهة محمد
ابن الحنفية ، وأطلعهم على السر اتقى عليه ، ولكن لم يكشف لهم كشفه لبني العباس ،
فإن كشفه الأمر لبني العباس كان أكمل .

قال أبو جعفر : فأما أبو هاشم ، فإنه قد كان أغضى بالأمر إلى محمد بن علي بن عبد الله
ابن العباس وأطلعهم عليه ، وأوضحه له ، فلما حضرته الوفاة فقيب انصرافه من عند الوليد
ابن عبد الملك مراً بالشرارة ؛ وهو مريض ومحمد بن علي بها ، فدفع إليه كتبه ، وجعله
وصيته ، وأمر الشيعة بالاختلاف إليه .

قال أبو جعفر : وحضر وفاة أبي هاشم ثلاثة نفر من بني هاشم : محمد بن علي
هذا ، وسماوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل
ابن الحارث بن عبد المطلب ؛ فلما مات خرج محمد بن سماوية بن عبد الله بن جعفر من عنده ،
وكل واحد منهما يدعى وصايته ، فأما عبد الله بن الحارث فلم يقل شيئاً .

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى : وصدق محمد بن علي ، أنه إليه أوصى أبو هاشم ، وإليه
دفع كتاب الوفاة ، وكذب سماوية بن عبد الله بن جعفر ، لكنه قرأ الكتاب ، فوجد لم
فيه ذكراً لسير ، فادعى الوصية بذلك ، مات وخرج ابنه عبد الله بن سماوية يدعى وصاية
أبيه ، ويدعى لأبيه وصاية أبي هاشم ، وبظهر الإسكار على بني أمية ، وكان له في ذلك
شيعة يقولون بإمامته سرّاً حتى قتل .

دخلت إحدى نساء بني أمية على سميان بن علي ؛ وهو يقتل بني أمية بالبصرة ،

فَقَالَتْ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّ الْعَدْلَ لَيَمْلِكُ مِنَ الْإِكْثَارِ مِنْهُ ، وَالْإِسْرَافُ فِيهِ ، فَكَيْفَ لَا نَعْمَلُ
أَمْتُ مِنَ الْجَوْرِ وَقِطِيعَةُ الرَّحْمِ أَفْطَرَقَ ثُمَّ قَالَ لَهَا :

سَنَنْتُمْ عَلَيَّ الْقَتْلَ لَا تَنْكِرُونَهُ فَذُوقُوا كَمَا ذُقْنَا عَلَى سَائِلِ الدَّهْرِ
ثُمَّ قَالَ : يَا أُمَّةَ اللَّهِ

• وَأَوَّلُ رَاضِي سُنَّةٍ مَنْ يَسِيرُهَا ^(١) •

أَلَمْ تَحَارِبُوا عَلِيًّا وَتَدْفَعُوا حَقَّهُ ؟ أَلَمْ تَسُدُّوا حَسَنًا وَتَشْفِضُوا شَرْطَهُ ؟ أَلَمْ تَقْتُلُوا حُسَيْنًا
وَتَسِيرُوا رَأْسَهُ ؟ أَلَمْ تَقْتُلُوا زَيْدًا وَتَصْلُبُوا جَسَدَهُ ؟ أَلَمْ تَقْتُلُوا يَحْيَى وَتَمْنَلُوا بِهِ ؟ أَلَمْ تَلْعَنُوا عَلِيًّا
عَلَى مَنَابِرِكُمْ ؟ أَلَمْ تَهْرَبُوا أَبَا بَا عَلَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بِيَاطِكُمْ ؟ أَلَمْ تَخْنَقُوا الْإِمَامَ بِحُرَابِ النُّورَةِ
فِي حَبْسِكُمْ ؟ ثُمَّ قَالَ : أَلَيْسَ حَاجَةً ؟ قَالَتْ : قَبِضْ هُتَالِكَ أَمْوَالِي ، فَأَمْرٌ بَرْدٌ
أَمْوَالُهَا عَلَيْهَا .



لَمَّا سَارَ مَرْوَانُ إِلَى الزَّأَبِ ، حَقَرَ سَخْنَدَاقَ فَسَارَ إِلَيْهِ أَبُو عَوْنٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَزِيدٍ الْأَزْدِيُّ ،
وَكَانَ قَحْطَبِيَّةَ بْنِ شَيْبٍ قَدْ وَجَّهَهُ وَأَمَدَ أَبُو سَمَةَ الْحَلَّالُ مَأْمَدًا كَثِيرَةً ، فَكَانَ يَلِرَاءَ
مَرْوَانَ . ثُمَّ إِنَّ أَبَا الْعَبَّاسِ السَّفَّاحَ قَالَ لِأَهْلِهِ وَهُوَ بِالسُّكُوفَةِ حِينَئِذٍ : مَنْ يَسِيرُ إِلَى مَرْوَانَ
مِنْ أَهْلِ بَيْتِي وَلَهُ وَلَايَةُ الْمَهْدِ إِنْ قَتَلَهُ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ عَنْهُ : أَنَا ، قَالَ : سِرْ عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ ،
فَسَارَ فَتَقَدَّمَ عَلَى أَبِي عَوْنٍ ، فَتَحْصَلَ لَهُ أَبُو عَوْنٌ عَنْ سُرَادِقِهِ وَحَلَّاهُ لَهُ بِمَا فِيهِ . ثُمَّ سَأَلَ
عَبْدُ اللَّهِ عَنْ مُحَاضِرَةِ فِي الزَّأَبِ ، فَقُلْتُ عَلَيْهَا ، فَأَمَرَ قَائِدَ مَنْ قَوَّاهُ فَصَبَّرَهَا فِي خَمْسَةِ آلَافٍ ،
فَاتَّسَى إِلَى عَسْكَرِ مَرْوَانَ فَقَاتَلَهُمْ ؛ حَتَّى أَمْسَوْا وَتَحَاجَزُوا ، وَرَجَعَ الْقَائِدُ بِأَصْحَابِهِ ، فَصَبَّرَ
الْمُحَاضِرَةَ إِلَى عَسْكَرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَأَصْبَحَ مَرْوَانُ ، فَقَدَّ جَسْرًا ، وَعَبَّرَ بِالْجَيْشِ كُلَّهُ إِلَى

(١) من بيت لأبي دؤبب المذلل ؛ ديوان المذليل ١ : ١٥٦ والبيت بتمامه :

فَلَا تَحْزَنْ عَنْ مَنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سِيرَتَهَا وَأَوَّلُ رَاضِي سُنَّةٍ مَنْ يَسِيرُهَا

عبدالله بن عليّ ، فكان ابنه عبدالله بن مروان في مقدمته ، وحمل للهيئة الوليد
ابن معاوية بن عبد الملك بن مروان ، وحمل الميسرة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز
ابن مروان ، وعبّا عبدالله بن عليّ جيشه ، وتراءى الجمعان ، فقال مروان لعبد العزيز
ابن عمر : انظر ، فإن زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى
ابن مريم ؛ وإن قاتلونا قبل الزوال ، فإما لله وإنا إليه راجعون ! ثم أرسل إلى عبدالله
ابن عليّ يسأله الكفّ عن القتال نهار ذلك اليوم ، فقال عبدالله : كذب ابن زريق
إنما يريد للدافعة إلى الزوال ؛ لا والله لا تزول الشمس حتى أوطئه الخليل إن شاء الله .
ثم حرك أصحابه للقتال ، فنادى مروان في أهل الشام : لا تبعدوهم بالحرب ، فلم يسمع الوليد
ابن معاوية منه ، وحمل عليّ ميسرة عبدالله بن عليّ ، فضرب مروان وشتمه ، فلم يسمع
له واضطربت الحرب ، فأمر عبدالله الرماة أن يهملوا ، ونادى : الأرض الأرض ! فقتل
الناس ، ورمت الرماة ، وأشرعت الرماح وجثوا على الركب ، فاشتد القتال ، فقال مروان
للقضاة : انزلوا ، قالوا : حتى تنزل كئيدة ، فقال لكئيدة : انزلوا ، فقالوا : حتى تنزل
السكاسك ، فقال لبني سليم : انزلوا ، فقالوا : حتى تنزل عامر ، فقال لثيم : احموا ،
فقالوا : حتى تحمّل بنو أسد ، فقال لهوازن : احموا ، قالوا : حتى تحمّل غطفان ، فقال
لمصاحب شرطته : احمّل وهلك اقال : ما كنت لأجمل نفسي غرضاً ، قال : أما والله
لأسوأئك ، قال : وددت أن أمير المؤمنين بقدر عليّ ذلك ! فانهزم عسكر مروان
وانهزم مروان معهم ، وقطع الجسر ، فكان من هلك غرقاً أكثر ممن هلك تحت السيف ،
واحتوى عبدالله بن عليّ على عسكر مروان بما فيه ، وكتب إلى أبي العباس يخبره الواقعة .

• • •

كان مروان شديد الرأي ، ميمون للنقبة ، حازماً ، فلما ظهرت المسودة ، ولقيهم كان

ما يدتر أمرا إلا كان فيه خلل ، ولقد وقف يوم الزآب ، وأمر بالأموال فأخرجت ، وقال للناس : اصبروا واثابوا ، وهذه الأموال لكم ، فحمل بأسٌ يصيبون من ذلك المال ويستفلون به من الحرب ، فقال لابنه عبد الله : سير في أصحابك فامنع من يتعرض لأخذ المال ، قال عبد الله برايته ، ومعه أصحابه ، فتنادى السُّ : الهزيمة ! الهزيمة ! فانهزموا ، وركب أصحاب عبد الله بن علي أكتافهم .

• • •

لما قتل مروان ببوصير ، قال الحسن بن قحطبة : أخرجوا إلى إحدى بنات مروان ، فأخرجوها إليه وهي ترعد ، قال : لا بأس عليك ! قالت : وأى بأس أعظم من إخراجك إلى حاضرة ، ولم أر رجلا قبلك قط أعاجلسها ، ووضع رأس مروان في حجرها ، فصرحت واضطربت فقيل له : ما أريت بهذا ؟ قال : فلت سهم قطعهم يزيد بن علي لما قتلوه ، جعلوا رأسه في حجر زينب بنت علي بن الحسين عليه السلام .

• • •

دخلت زوجة مروان بن محمد ، وهي مجوز كبيرة ، على الخيزران في خلافة المهدي ، وعندها زينب بنت سليمان بن علي ، فقالت لها زينب : الحمد لله الذي أزال سمكك ، وصبرك عيرة ! أتذكرين يا عدوة الله ، حين أنك ساوينا يسألك أن تكلمي صاحبك في أمر إبراهيم بن محمد فلقيتهن ذلك اللقاء ، وأخرجتهن ذلك الإخراج أفصعكت ، وقالت : أى بنت تحى ! وأى شيء أحبك من حسن صنع الله بن عقيب ذلك ؛ حتى أردت أن تناسي بي فيه ! ثم ولت خارجة .

• • •

بويح أبو العباس السفاح بالخلافة يوم الجمعة ، لثلاث عشرة ليلة خلو من شهر ربيع

الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فصعد المنبر بالكوفة فخطب ، فقال : الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه ، وكرمه وشرّفه وعظمه ، واختاره لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه ، وحسنه والقوام به ، والدائين عنه ، والناصرين له ؛ وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من بېمته ، وأزل ذلك كتاباً بجلي ، فقال سبحانه : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ^(١) ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، قام بالأمر أصحابه ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ^(٢) فعدلوا ، وحرّحوا إخصاصاً ^(٣) ، ثم وثب شو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها ، واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأمل الله لهم حيناً ؛ فلما آسفوه ^(٤) انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا ، فأما السّفاحُ المبيحُ ، والناثر المبير ^(٥)



وكان موعوكا فاشتدت عليه الوعكة ، فجلس على المنبر ولم يستطع الكلام فقام معه داود بن علي وكان بين يديه ، فقال :

يا أهل العراق ، إنا والله ما خرجنا لنحفر سراً ، ولا لنكنز لحيناً ولا عقياناً ؛ وإما أخرجتنا الأئمة من ابتزاز الطالبين حقاً ؛ ولقد كانت أموركم تنصل بنا فترمضنا ونحن على فرشنا ، لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وذمة العباس ؛ أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونسل فيكم بكتاب الله ، وسير فيكم بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله . واعلموا أن هذا الأمر ليس بخارج عنا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم .

(١) سورة الشورى ٢٣

(٢) سورة الشورى ٣٨

(٣) خصاصاً : جياًعاً .

(٤) آسفوه : أفضوه .

(٥) اللير : اللهلك .

يا أهل الكوفة ؛ إنه لم يحطب علي منبركم هذا خليفة حق إلا علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا ، فاحذ الله الذي رد إليكم أموركم . ثم نزل .

وقد روى حديث خطبة داود بن علي برواية أخرى ؛ وهي الأشهر ، قالوا : لما صعد أبو العباس منبر الكوفة ، حُصِر فلم يتكلم ، فقام داود بن علي ، وكان تحت منبره حتى قام بين يديه تحته بمرقاة ، فاستقبل الناس ، وقال :

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين بكره أن يشتم قوله فمده ، ولأثرُ الفعّال أجدي عليكم من تشويق المقال ، وحسبكم كتاب الله تمثلاً فيكم ، وإن هم رسول الله صلى الله عليه وآله خليفة عليكم ؛ أقسم بالله قدماً برّاً ما قام هذا النقام أحدٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أحق به من علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا فليهمس هائمكم ، ولينطق ناطقكم . ثم نزل .



ومن خطب داود التي خطب بها بعد قتل مروان :

شُكراً شُكراً ! أظن عدو الله أن لن يُظفر به ، أرخى له في زمانه ، حتى عثر في فضل خطابه ؛ فالآن طاد الحق إلى نصابه ، وطامت الشمس من مظلماً ؛ وأخذ القوس ياربها ؛ وصار الأمر إلى التزعة ^(١) ، ورجع الحق إلى مستقره ؛ أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة .



وخطب عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس لما قُتِل مروان ، فقال : الحمد لله الذي لا يفوته من طلب ، ولا يُحصَر من هرب ، خدعت والله الأشقر نفسه ، إذ ظن أن الله بمهله ، وبأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ؛ فحق متى ؟ وإلى متى ؟

(١) التزعة : جمع تازع ؛ وهو الرأي يشد التوتر إليه ليصح فيه السهم ؛ يريد : رجع الحق إلى أصله .

أما والله لقد كرهتهم العبدان^(١) التي افتدعوها ، وأمسكت السماء دَرَهَا^(٢) ، والأرض رَيْعَهَا^(٣) وقحل^(٤) الصَّرْع ، وجَفَزَ الفَنِيْقُ^(٥) ، وأَسْمَلَ^(٦) جَلِيَابَ الدِّينِ ، وَأَبْطَلَتِ الخُدُودَ ، وأَهْدَرَتِ الدِّمَاءَ ؛ وكان ربُّك بالمرصاد ، فدمدم^(٧) عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها ؛ ومَلَكْنَا الله أمركم ؛ عبادَ الله ليُنظر كيف تعملون ، فالشكر الشكر ؛ فإنه من دواعي الزيد ؛ أعاذنا الله وإياكم من مُصِلَاتِ الأهواء ، وبساتِ الفتن فإنما نحن به وله .

• • •

لما آمن داود بن عليّ في قتل بني أمية بالحجاز قال له عبدالله بن الحسن عليه السلام : يا بن عمي ، إذا أفرطت في قتل أكتفائك نمن تباهي بسطانتك ! وما يكفيك منهم أن يروك غاديا ورائحا فيها بسررك ويسومح !



كان داود بن عليّ يمثل ببني أمية ؛ يسئل للعيون ، ويبقرُ البطون ، ويحدغُ الأنوف ويصطم الآذان . وكان عبد الله بن عليّ بهر أبي فطرُس يصلبهم منكسين ، ويسقيهم النُّورَةَ والصَّيْرَ ، والرَّمَادَ والنَّخْلَ ، ويقطع الأيدي والأرجل . وكان سليمان بن عليّ بالبصرة يصرب الأعناق .

• • •

خطيب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة فقال :

- (١) العبدان ، يريد أهواد النابر ، وافتدعوها : اعلوها .
- (٢) درها ، أي مطرها .
- (٣) الرّيع : النماء .
- (٤) قحل : يمس حلقه على لحمه .
- (٥) الفنيق : النمل المكرم لا يؤدي لكرامته ، والجفر : السرعة في الشيء .
- (٦) أسمل : خلق ويل .
- (٧) دمدم عليهم ، طعنهم فأهلكهم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ؛ وَاللَّهُ لَا يُعَذِّبُكُمْ شَيْئًا وَلَا يُؤَخِّرُكُمْ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَالْوَعْدُ ، وَلَا تَعْلَنَ الْيَدَانِ حَتَّى لَا تَنْفَعَا إِلَّا الشَّدَّةُ ، وَلَا تَعِدَنَّ السِّيفُ إِلَّا فِي إِقَامَةِ حَدٍّ ، أَوْ بُلُوغِ حَقٍّ ، وَلَا تُعْطِيَنَّكُمْ حَتَّى أَرَى الْمُطِيعَةَ ضِيَاعًا . إِنَّ أَهْلَ بَيْتِ الْمُنَّةِ وَالشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ، كَانُوا لَكُمْ أَعْدَاءً . لَا يَرْجِعُونَ مَعَكُمْ مِنْ حَالَةٍ إِلَّا إِلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهَا ، وَلَا يَلِي عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ وَالٍ إِلَّا تَعْيِيْتُمْ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ ، وَإِنْ كَانَ لَا خَيْرَ فِي جِهَمِهِمْ ؛ مَنَعَكُمْ الصَّلَاةَ فِي أَوْقَاتِهَا ، وَطَالَبَكُمْ بِأَدَائِهَا فِي غَيْرِ وَقْتِهَا ، وَأَحْذَرُوا الْمَدِيرَ بِالْمَقِيلِ ، وَالْجَارَ بِالْجَارِ ، وَسَلَطُوا شِرَارَكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ ، فَدَعَى حَقُّ اللَّهِ جَوْرَهُمْ ، وَأَزْهَقَ بَاطِلُهُمْ بِأَهْلَ بَيْتِ بَيْتِكُمْ ؛ فَاتَّوَخَّرَ لَكُمْ عَطَاءٌ ، وَلَا نَضِيعَ لِأَجْدِ مِنْكُمْ حَقًّا ، وَلَا مَحْزَنَ فِي بَيْتٍ ، وَلَا غَاطِرَ بِكُمْ فِي قِتَالٍ ، وَلَا نَبْذَلَكُمْ دُونَ أَنْفُسَا ؛ وَاللَّهُ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ وَكِيلٌ مَالُوفًا وَالْإِحْتِسَادَ ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .

ثم نزل .

• • •

كَانَ يُقَالُ : لَوْ ذَهَبَتْ دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى يَدِ غَيْرِ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ ، لَقِيلَ : لَوْ كَانَ لَهَا مَرْوَانٌ لَمَا ذَهَبَتْ .

كَانَ يُقَالُ : إِنَّ دَوْلَةَ بَنِي أُمَيَّةَ أَحْرَهَا خَلِيفَةُ أُمَةِ أُمَةٍ ، فَلِذَلِكَ كَانُوا لَا يَسْهَدُونَ إِلَى بَنِي الْإِمَاءِ مِنْهُمْ ، وَلَوْ عَمِدُوا إِلَى ابْنِ أُمَةٍ لَسَكَانَ مَسْلُةً مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ أَوْلَامَ بِهَا : وَكَانَ انْقِرَاضُ أَمْرِهِمْ عَلَى يَدِ مَرْوَانَ وَأُمَةِ أُمَةٍ ، كَانَتْ لِمَصْبِ بْنِ الزَّيْبِرِ ، وَهِيَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْتَرِ ، فَأَصَابَهَا مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ يَوْمَ قَتْلِ ابْنِ الْأَشْتَرِ ، فَأَخَذَهَا مِنْ تَقْلِهِ ، قَتِيلٌ : إِسْمُهَا كَانَتْ حَامِلًا بِمَرْوَانَ ، فَوَلَدَتْهُ عَلَى فَرَاشٍ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ أَهْلُ خُرَاسَانَ يَنَادُونَهُ فِي الْحَرْبِ : يَا ابْنَ الْأَشْتَرِ .

قِيلَ أَيْضًا : إِنَّهَا كَانَتْ حَامِلًا بِهِ مِنْ مَصْبِ بْنِ الزَّيْبِرِ ، وَإِنَّهُ لَمْ تَطُلْ مَدَّتُهَا عِنْدَ

إبراهيم بن الأشتر ! حتى قتل فوضعت سحلها على فراش محمد بن مروان ، ولذلك كانت
المسودة تصبح به في الحرب : يا ابن مصعب ! ثم يقولون : يا ابن الأشتر ! فيقول : ما بالي أي
الفتحين غلب علي !



لما يبيع أبو العباس جاءه ابن عياش المنتوف ، فقبل يده وبأيمه ، وقال : الحمد لله
الذي أبدلنا بحمار الجزيرة ، وابن أمة النعم ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ،
وابن عبد المطلب .



لما صعد الفلاح منبر السكوفة يوم بيئته ، وخطب الناس ، قام إليه السيد الجبوري ،
فأشده :

دونكوها يا بني هاشم	لجذكوا من آيها العظام ^(١)
دونكوها لا علاكم من	أمنى عليكم ملكها نافسا
دونكوها فالبسوا قاجها	لا تدموا منكم له لايسا
حلافة الله وسلطانه	وعنصر كان لكم دارسا
قد ساسها من قبلكم ساسة	لم يتركوا رطلها ولا يابسا
لو خير المنبر فرسانه	ما اختار إلا منكم فارسا
والملك لو شور في سائس	لما ارتضى غيركم سائسا
لم يبق عهد الله بالشام من	آل أبي العاص امرأ عاطسا
فلست من أن تمليكوها إلى	هبط حبسى منكم آيسا



قال داود بن علي لإسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص بعد قتله من قتل من بني

(١) الأبيات في الأغاني ٧ : ٢٤٠ (طبع الفار) مع اختلاف في الرواية .

أمية : هل علمت ما فعلت بأصحابك ؟ قال : نعم ، كانوا يبدأ قطعها ، وعَضداً قُتت^(١) فيها ، ومِرَّة^(٢) فنقضها ، وجناحاً فحَصَصتها^(٣) ؛ قال : إني خلّيق أن ألحقك فيهم ، قال : إني إذا لسعيد !

■ ■ ■

لما استوثق الأمر لأبي العباس السفاح ، وقد إليه عشرة من أمراء الشام ، خلفوا له بالله وبطلاق سائرهم ، وبأيمان البيعة بأنهم لا يعلمون - إلى أن قُتل مروان - أن لرسول صلى الله عليه وآله أهلاً ولا قرابة إلا بنى أمية .

● ● ●

وروى أبو الحسن المدائني ، قال : حدثني رجل قال : كنت بالشام ، فجعلت لا اسمع أحداً يسمي أحداً أو يناديه : يا عليّ أو يا حسن ، أو يا حسين ؛ وإنما اسمع : معاوية ، والوليد ، وبزيد ، حتى مررت برجل ، فاستقيته ماء ، فجعل ينادي : يا عليّ ، يا حسن ، يا حسين ، فقلت : يا هذا وإنّ أهل الشام لا يسمون بهذه الأسماء ! قال : صدقت ، إنهم يسمون أبناءهم بأسماء الخلفاء ، فإذا لمن أحدهم ولده أو شحمه فقد لمن اسم بعد الخلفاء ، وأنا سميت أولادي بأسماء أعداء الله ، فإذا شئت أحدهم أو لعنته ، فإنا لمن أعداء الله .

■ ■ ■

كانت أم إبراهيم بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس أموية من ولد عثمان بن عفان .

قال إبراهيم : فدخلت على جدّي عيسى بن موسى مع أبي موسى ، فقال لي جدّي : اتحِبْ بني أمية ؟ فقال له موسى أبي : نعم ، إنهم أحواله ، فقال : والله لو رأيت جدّك

(١) قُتت في قصده ؛ أي كسر قوته وورق عنه أهوانه .

(٢) المِرَّة في الأصل : طاقفة الحبل . (٣) يخال : حَسَّ الجناح ؛ أي قطعته .

علي بن عبد الله بن العباس يُضرب بأسباط ما أحببتهم ؛ ولو رأيت إبراهيم بن محمد
يُكرهه على إدخال رأسه في جراب الثور^(١) لما أحببتهم ، وسأحدثك حديثاً إن شاء
الله أن ينفعك به نفعك : لما وجه سليمان بن عبد الملك ابنة أيوب بن سليمان إلى الطائف
وجه معه جماعة ، فكنت أبا ومحمد بن علي بن عبد الله جدّي معهم ، وأنا حينئذ حديث
السن ، وكان مع أيوب مؤدّب له يؤدّبه ، فدخنا عليه يوماً أنا وجدّي ، وذلك المؤدّب
يضربه ، فلما رأنا العلامة أقبل على مؤدّبه مصره فطرب بمضنا إلى بعض وقلنا : ماله قاتله
الله ! حين رأنا كرهه أن نشمت به ، ثم التفت أيوب إلينا ، فقال : ألا أحبركم يا بني هاشم
بأعقلكم وأعقلنا ، أعقلنا من شأنا منّا بعصمكم ، وأعقلكم من شأنا منكم ببعضنا ؛
وعلاوة ذلك أسكنكم لم تسموا بمروان ، ولا الوليد ، ولا عبد الملك ، ولم نسم نحن بعل
ولا بحسن ولا بحسين .



لما انتهى عامر بن إسماعيل - وكان صالح بن علي قد أنفذه لطلب مروان - إلى
بوصير بمصر ، هرب مروان بين يديه في سر يسير من أهله وأصحابه ؛ ولم يكن قد
تخلف معه كثير عدد ، فأنهبوا في غيبش الصبح إلى قنطرة هناك على نهر عميق ، ليس
للتحصيل عبور إلا على تلك القنطرة ، وعامر بن إسماعيل من ورائهم ، فصادف مروان على
تلك القنطرة مالا قد استقبلته نمر القنطرة ، وعليها زقاق حبل ، فخبسته عن العبور
حتى أدركه عامر بن إسماعيل وورثته ، فلوى مروان دابته إليهم ؛ وحارب قتلت ، فلما
بلغ صالح بن علي ذلك ، قال : إن لله جنوداً من حبل .



لما تقف رأس مروان ونقص محه ، قطع لسانه وألقى مع حلم عنقه ، فجاء كلب فأخذ
اللسان ، فقال قائل :

إِنَّ مِنْ عِبَرِ الدُّنْيَا أَنْ رَأَيْنَا لِسَانَ سُرَوَانَ فِي فَمِ كَلْبٍ .

خطب أبو مسلم بالمدينة في السنة التي حجَّ فيها في خلافة السفاح ، فقال : الحمد لله الذي
 حمّد نفسه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمد رسول الله صلى الله عليه
 من ذلك ما أوحى ، واختاره من خلقه ، نفّس من أنفسهم ، وبيّنه من بيوتهم ؛ ثم أنزل عليه
 في كتابه الناطق الذي حفظه ببلده ، وأشهد ملائكته على حقه ، قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
 لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ^(١) ، ثم حمل الحق بمحمد
 محمد عليه السلام في أهل بيته ، فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه
 على اللاواء والشدة ، وأغضى على الاستبداد والآثرة . ثم إن قوماً من أهل بيت
 الرسول صلى الله عليه ، جاهلوا على مئة نبيّه وحجّهم بعد عصر من الزمان من عمل
 بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن ، بين ظهراني قوم أثروا العاجل على الآجل ، والعاني على
 الباقي ؛ إن رُتق جورٌ ففتقوه ، أو فتق حقٌ رتقوه ؛ أهل حمور وماخور ، وطناير ^(٢) ومزامير
 إن ذكروا لم يذكروا ، أو قدّموا إلى الحق أدبروا ، وجعلوا الصدقات في الشبهات ، والمغانم
 في المحارم ؛ والقي في النقي ، هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلطانهم . وزعموا أن غير
 آل محمد أولى بالأمر منهم ، فلم يسم أيها الناس ؛ ألكم الفضل بالصعابة دون ذوي القرابة ،
 الشركاء في النسب ، والورثة في السلب ^(٣) مع ضررهم على الدين جاهلكم ، وإطامهم في
 الجلب جائلكم ؛ والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ؛ وما رثتم بعد نبيّه
 تخارون تهميامة ، وعدو بامرة ، وأمويًا مرة ، وأسديًا مرة ، وسُفَيانيامة ، ومروانيامة

(١) سورة الأحزاب ٣٣

(٢) الماخور : بيت الربة . والطناير : جمع طنور ، وهو آلة من آلات الطرب : ذو عتق طويل

(٣) اسلب : ما يسلب .

وسنة أوتار من نحاس

حق جاءكم مَنْ لا تعرفون اسمه ولا يته ، يضربكم بسيفه ، فأعطيتوها عبثاً وأنتم صاغرون . ألا إن آل محمد أئمة الهدى ، ومعارِ سبيل التقي ، القادة للزادة السادة ؛ بنوع رسول الله ، ومنزل جبريل بالتبديل ؛ كَمْ قَصَمَ الله بهم ^(١) من جَبَّار طاغ ، وفاسق باغ ، شتد الله بهم الهدى ، وجلاهم المص ؛ لم يُسَمَّ بِمثل العباس ؛ وكيف لا تخضع له الأمم لو اوجب حق الحرمه ؛ أبو رسول الله بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وجليلة بين عبيده . أميئة يوم العقبة وناصره بمكة ، ورسوله إلى أهلها ، وحامييه يوم حنين ، عند ملتي الفتيين ؛ لا يخالف له رسماً ، ولا يعصى له حكماً ؛ الشافع يوم نيق ^(٢) العقاب ، إلى رسول الله في الأحزاب هالان في هذا أيها الناس لميرة لأولى الأبصار ^(٣) !

قلت : الأسدى عبد الله بن الزبير . وَمَنْ لا يعرفون اسمه ولا يته ، يعني نفسه ، لأنه لم يكن معلوم النسب ؛ وقد اختلف فيه هل هو مولى أم عربي .

ويوم العقبة : يوم مباينة الأنصار للبعثين رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة . ويوم نيق العقاب يوم فتح مكة ، شفع العباس ذلك اليوم في أبي سفيان وفي أهل مكة ، فعفا النبي صلى الله عليه وآله عنهم .

• • •

اجتمع عند للنصور أيام حلاته جماعة من ولد أبيه ، منهم عيسى بن موسى والعباس ابن محمد وغيرهما ؛ فهذا كروا خلفاء بني أمية ، والسبب الذي به سلبوا عزهم ، فقال للنصور : كان عبد الملك جَبَّاراً لا يبالي ما صنع ؛ وكان الوليد لجاجاً مجنوناً ، وكان سليمان همته بطنه وفرجه ، وكان عمر أغور بين عميان ، وكان هشام رجل القوم ، ولم يزل بقوا أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان ، يحوطونه ويعصونونه ويحفظونه ، ويحرسون ما وهب الله لهم منه ، مع تسلمهم معالي الأمور ، ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى أمرهم إلى أحداث مترفين من أبنائهم ، فغَطُّوا النعمة ، ولم يشكروا العافية ، وأساءوا الرعاية ، فابتدأت النعمة منهم ،

(٢) نيق العقاب : موضع بين مكة والمدينة قرب الجحفة .

(١) ساقطة من ب

(٣) د : الألباب .

استدراج الله لإمام آمين مكره . مطرحين صيانة الخلافة ، مسخفين بحق الرئاسة ،
خسيفين من رسوم السياسة ، فسلبهم الله العزة ، وألبسهم القلة ، وأزال عنهم
النعمة .

• • •

سأل النصور ليلة عن عبد الله بن مروان بن محمد ، فقال له الريح : إنه في سجن
أمر للؤمنين حياً ، فقال للنصور : قد كان يلقي كلاماً خاطبه به ملك الثوبة ؛ لما قدم
دياره ، وأنا أحب أن أسمعه من فيه ، فليؤثر بإحضاره . فأحضر ، فلما دخل خاطب
للنصور بالخلافة ، فأمره للنصور ، بالجلوس ، فجلس ولقي في رجليه خششة . قال : أريد
أن تسمي كلاماً قاله لك ملك الثوبة حيث غشيت بلاده ، قال : نعم ، قدمت إلى بلد
الثوبة ، فأقت ألياما ، فأتصل خيرنا بالملك ، فأرسل إلينا فرشاً وبسطاً وطعاماً كثيراً ، وأفرد
لنا منازل واسعة ، ثم جاءني معه خمسون من أصحابه ، بأيديهم الخراب ، فقامت إليهم
فاستقبلته ، وتنحيت له عن صدر المجلس ، فلم يجلس فيه ، وتقدم على الأرض ، فقلت له :
ما نملك من القمود على الفرش ؟ قال : إني ملك ، وحق الملك أن يجواضع لله ولمظلمته
إذا رأى نعمة متجددة عنده ، ولما رأيت تجديد نعمة الله عندي بقصدكم بلادى ،
واستجارتكم بي ، بعد عزكم وملككم ، فقابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع والتواضع .
ثم سكت وسكت ، فلهبنا لما شاء الله ؛ لاجتكم ولا اتكم ، وأصحابه قيام بالخراب على
رأسه . ثم قال لي : لماذا شربتم الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم ؟ قلت : اجتراً على
ذلك عهدنا بجهلهم ، قال : فلم وطمئتم الزروع بدوابكم والفساد محرم عليكم في كتابكم
ودينكم^(١) ؟ قلت : فعل ذلك اتباعنا وعمالنا حيلاً منهم ، قال : قلم لبسم الحرير والديباغ
والذهب ، وهو محرم عليكم في كتابكم ودينكم ؟ قلت : استعماً في أعمالنا بقوم من

أبناء المعجم كتاب ، دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك اتباعاً لسنة سلفهم ، على كثره مآلاً .
فأطرق ملياً إلى الأرض بقلب يده ، وبسكت الأرض . ثم قال : عبيدنا وأتباعنا وعُتالنا
وكتائبنا ! ما الأمر كما ذكرت ، ولكم قوم استعظم ما حرّم الله عليكم ، وركبتم
ما عنه نهيتهم ، وظلمتم فيما منكمم ، فلبسكم الله العزّ ، والبسكم القلّة ؛ وإن له سبحانه
فيكم لبقمة لم تبلغ غايتها بعد ، وأنا خائف أن يحلّ بكم العذاب وأنتم بأرضي فينا إلى
مكم ؛ والضيافة ثلاث ، فاطلبوا ما احتجتم إليه ، وارتملوا عن أرضي .
فأخذنا منه ما تزودنا به ، وارتملنا عن بلده . ففجب للنصور لذلك وأمر بإعادته
إلى الحبس .

وقد جاءنا في بعض الروايات أن السلاج لما أراد أن يقتل القوم الذين انضموا إليه
من بني أمية جلس يوماً على سرر ^(١) هاشمية الكوفة وجاء بنو أمية وغيرهم من بني هاشم ،
والقواد والكتاب ، فأجلسهم في دار تفصل بداره ، وبينه وبينهم ستر مسدول ، ثم أخرج
إليهم أبا الجهم بن عطية ، ويده كتاب ملصق ، فنادى بجهت يسمون : أين رسول الحسين
ابن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؟ فلم يتكلم أحد ، فدخل ثم خرج ثانية ، فنادى : أين
رسول زيد بن عليّ بن الحسين ؟ فلم يجبه أحد ، فدخل ثم خرج ثالثة ، فنادى : أين رسول
يحيى بن زيد بن عليّ ؟ فلم يردّ أحد عليه ، فدخل ثم خرج رابعة ، فنادى : أين رسول
إبراهيم بن محمد الإمام ؟ والقوم ينظر بعضهم إلى بعض ، وقد أيقنوا بالشرّ ، ثم دخل
وخرج ، فقال لهم : إن أمير المؤمنين يقول لكم : هزلاء أهل ولجى ، فإذا صنعتم بهم ؟
ردّوهم إلى أو فاقيدوني من أنفسكم . فلم ينطقوا بحرف ، وخرجت الخراسانية بالأعمدة
فشدّخوم عن آخرهم .

(١) هاشمية الكوفة ، مدينة باما السلاج .

قلت : وهذا المعنى مأخوذ من قول الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لما قتل زيد بن علي عليه السلام في سنة اثنتين وعشرين ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك ؛ وذلك أن هشام كتب إلى عامله بالبصرة - وهو القاسم ابن عمه النقي - أن يشخص كل من بالعراق من بني هاشم إلى المدينة خوفا من خروجهم ؛ وكتب إلى عامل المدينة أن يحبس قوما منهم ، وأن يمرضهم في كل أسبوع مرة ، ويقيم لهم الكفلاء ؛ على ألا يخرجوا منها ، فقل الفضل بن عبد الرحمن من قصيدة

طويلة :

كَلَّمَا حُدُّثُوا بِأَرْضِ حَبْشَا	ضَمَّنُونَا السَّجُونَ أَوْ سَيَّرُونَا
أَشْخَصُونَا إِلَى الدِّينَةِ أَسْمَى	لَا كِفَاةَ لِرَبِّي الَّذِي يَحْدُرُونَا
حَلَمُوا أَحَدَ الْمَطُورِ فَبَنَّا	بِالَّذِي لَا يَحِبُّ ، وَامْتَضَمُونَا
قَتَلُونَا بِغَيْرِ ذَنْبٍ إِلَيْهِمْ	قَاتَلَ اللَّهُ أُمَّةً قَتَلُونَا !
مَارَعَوْا سَقَاتَنَا وَلا حَفَظُوا فِيهِ	بِمَا وَصَاةَ الْإِلَهِ بِالْأَفْرِينَا
جَعَلُونَا أَدْنَى عَدُوِّ إِلَيْهِمْ	فَهَمُّ فِي دِمَانَا يَسْتَبْحُونَا
أَنْكَرُوا وَاحْتَفْنَا وَجَارُوا عَلَيْنَا	وَعَلَى غَيْرِ إِحْسَنٍ أَبْضُونَا
غَيْرَ أَنَّ النَّهْيَ مِنَّا وَأَنَا	لَمْ تَزَلْ فِي صِلَانِهِمْ رَاغِبِينَا
إِنْ دَعَوْنَا إِلَى الْهُدَى لَمْ يَحْيَبُوا	بَا، وَكَانُوا عَنِ الْهُدَى نَا كَيْبِنَا
أَوْ أَمَرْنَا بِالْعُرْفِ لَمْ يَسْمَعُوا مِنَّا	وَرَدُّوا نَصِيحَةَ النَّاصِحِينَا
وَلَقَدْ مَا مَارَدَ نَصَحُ دَوَى الرَّأْيِ	يَ قَلَمُ يَتَّعِمُهُمُ الْجَاهِلُونَا
فَقَسَى اللَّهُ أَنْ يُدْبِلَ أَنَا	مِنْ أَنَاسٍ فَيَصْبِحُوا ظَاهِرِينَا
فَقَرَّ الْعَيُونَ مِنْ قَوْمٍ سَوِيٍّ	قَدْ أَخَافُوا وَقَتَّلُوا لِلْؤُمَيْنَا

لبت شمرى هل توجفن بن الخيل عليها الكساء مستلثين^(١)
 من بني هاشم ومن كل حوت ينصرون الإسلام مستنصرين
 في أناس ألزم نصروا الله ن ، وكانوا لربهم ناصرين
 نعمم للرحمات في الهام منهم بأكت العاشر الثاثيرين^(٢)
 أين قتل منا بئيم عليهم ثم قتلهم قاتلينا
 ارجعوا هاشما وردوا أبا اليق ارجعوا هاشما وردوا أبا اليق
 وارجعوا ذا الشهادتين وقتل انتم في قتلهم فاجرونا
 ثم ردوا حبرا وأصحاب جحر يوم انتم في قتلهم معتدون
 ثم ردوا أبا حمير وردوا لي رشيدا وميثا والذينا :
 قتلوا بالطوف يوم حسن بن بني هاشم ، وردوا حينا
 أين عمرو ؟ وابن بشر وقتل معهم بالعراء مايدفوننا !
 ارجعوا عامرا وردوا زهدا ثم عمان ، فارجموا هازمينا
 وارجعوا الحر وابن قين وقوما قتلوا حين جاوزوا صقينا
 وارجعوا هاشما وردوا إلينا ملأ والرواح في آخرينا
 ثم ردوا زيدا إلينا وردوا كل من قد قتلهم اجمعينا
 لن تردوهم إلينا ولنا منكم غير ذلكم قاتلينا

• • •

(١) الكساء : الشجنان : والستم : لباس اللأمة ، وهي المخرج في الحرب .

(٢) للرحمات : السيوف والهام : الزموس .

الأصل :

أَلَا إِنَّ أَبْصَرَ الْأَبْصَارِ مَا قَدَّ فِي الْخَلْقِ طَرَفُهُ ۚ أَلَا إِنَّ أَسْمَعَ الْأَسْمَاعِ مَا وَعَى
الْتَذَكُّرَ وَفِيهِ ۚ

أَيُّهَا النَّاسُ ۚ اسْتَضِيحُوا مِنْ شَمْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظِ مُنْعِظٍ ، وَأَمْتَا حُوا مِنْ صَيِّ عَيْنٍ
قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدْرِ .

عِبَادَ اللَّهِ ، لَا تَزْكَغُوا إِلَى جَوَالِيكُمْ ، وَلَا تَنْفَادُوا إِلَى أَهْوَائِكُمْ ۚ فَإِنَّ النَّازِلَ
سَيْدَا النَّزْلِ نَازِلٌ يَشْفَا جُرْفٍ هَارٍ ؛ يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ،
لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ ۚ يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يَلْتَصِقُ ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَنْتَقِرُ ۚ
فَاللَّهُ اللَّهُ أَنْ تَشْكُوا إِلَى مَنْ لَا يُشْكِي شَجْوَكُمْ ، وَلَا يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدَّ
أَبْرَمَ لَكُمْ .

إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حَمَلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۚ الْإِبْلَاحُ فِي اللَّوْعِظَةِ ، وَالْإِجْتِهَادُ
فِي النَّصِيحَةِ ، وَالْإِحْيَاءُ لِلشُّعْنَةِ ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحَقِّهَا ، وَإِسْدَارُ الشُّهُمَانِ
عَلَى أَهْلِهَا .

فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَعْوِيحِ نَبْعِهِ ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْمَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَنَارِ
الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ، وَأَنْتَهُوا عَنِ الْمُسْكَرِ وَتَنَاوَعَاتِهِ ، فَإِنَّمَا أَمْرُهُمْ بِالنَّهْيِ
بَعْدَ التَّنَاقُهِ ۚ

• • •

الشرح :

هَارَ الْجُرْفِ يَهْوَرُ هَوْرًا وَهَوْرًا فَهُوَ هَائِرٌ ؛ وَقَالُوا : « هَارٍ » ، خَفُضَهُ فِي مَوْضِعِ
الرَّفْعِ ، كَقَاضٍ ، وَأَرَادُوا « هَائِرٌ » ؛ وَهُوَ مَقْلُوبٌ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الرَّبَاعِ ؛ كَقُلُوبِ الشَّائِكِ
السَّلَاحِ ، إِلَى « شَاكِي السَّلَاحِ » . وَهَوْرَتُهُ ، فَهَوْرٌ وَانْهَارٌ ؛ أَيْ انْهَدَمَ .

وأشكيت زيدا : أزلت شكايته . والشجو : الهم والحزن .

وصوح النبت ، أى جفّ أعلاه ، قال :

ولكنّ البلاد إذا اقشمت وصوح نبثها رُحى الهشم^(١)

يقول عليه السلام : أشدّ السيون إدراكاً ما نخذ طرفها في الخمر ، وأشدّ الأسقام إدراكاً ما حفظ للوعظة وقيلها .

ثم أمر الناس أن يستصيحوا ، أى يسرجوا مصابيحهم من شعلة سراج . متعظ في نفسه واعظ لغيره ؛ وروى بالإضافة من « شعلة مصباح واعظ » بإضافة « مصباح » إلى « واعظ » ؛ وإنما جعله متعظاً واعظاً ، لأن من لم يتمظ في نفسه فبيد أن يتمظ به غيره ؛ وذلك لأن القبول لا يحصل منه ، والآنفس تكون نافرة عنه ، ويكون داخلاً في حيز قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْعَمْرِ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ »^(٢) ، وفي قول الشاعر :

• لَا تَنْهَ عَنْ سُلُوكِ وَتَأْتِ بِمِثْلِهِ^(٣) •

وعنى بهذا المصباح نفسه عليه السلام .

ثم أمرهم أن يتباحوا من عين صافية قد انتفى عنها الكدر ، كما يروق الشراب بالراوق فيزول عنه كدره ؛ والامتناع : نزول البثر وملء الدلاء منها ، ويكفي بهذا أيضاً من نفسه عليه السلام .

(١) لأبي علي الصير ، وقوله :

لَعَمْرُ أَيْبِكَ مَا نُسِبَ لِلْعَلَى إِلَى كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمٌ

أمال الثاني ٢ : ٢٨٧

(٢) سورة البقرة ٤٤

(٣) لأبي الأسود الدؤلي ، وبقية :

• عَارَ عَيْبِكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ •

والبيت من شواهد النقي ، وانظر شرح شواهد النقي للسيوطي ٢٦٤ .

ثم نهاهم عن الاقبياد لأهوائهم وللبل إلى جهالتهم ، وقال : إن من يكون كذلك ، فإنه على جانب جرْفٍ مهْدَمٍ ؛ ولفظة « هَارٍ » من الألفاظ القرآنية^(١) .

ثم قال : وَمَنْ يَكُونُ كَذَلِكَ ، فهو أيضا ينقل الهلاك على غيره من موضع إلى موضع ؛ ليُحْدِثَ رأيا فاسدا بعد رأى فاسد ، أى هو سابع فى ضلال يروم أن يحتج لما لا سبيل إلى إثباته ، وينصر مذهبا لا انتصار له .

ثم نهاهم وحذّروهم أن يشكّوا إلى مَنْ لا يزيل شكائهم وَمَنْ لا رأى له فى الدين ولا بصيرة . لينقض ماقد أبرمه للشيطان فى صدورهم لإغوائهم . ويروى : « إلى من لا يشكى شجوعكم ، وَمَنْ ينقض برأيه ماقد أبرم لكم » ؛ وهذه الرواية أليق ، أى لا تشكّوا إلى مَنْ لا يدفع عنكم ما تشكّون منه ؛ وإنما ينقض رأيه العاسد ماقد أبرمه الحق والشرع لكم .

ثم ذكر أنه ليس على الإمام إلا ماقد أَوْضَعَهُ مِنَ الأمور الحسنة .

ثم أمرهم بمبادرة أخذ العلم من أهله - بمى فته عليه السلام - قبل أن يموت ، فيذهب العلم . وتصحيح النّبت ، كناية عن ذلك .

ثم قال : وقيل أن تشغلّوا بالفتن وما يحدث عليكم من خطوب الدنيا عن استئثار العلم من معدنه واستنباطه من قرارته .

ثم أمرهم بالنهي عن النكر ، وأن يتناهوا عنه قبل يَنْهَوْا عنه ؛ وقال : إنما النهي بعد التناهى .

(١) من قوله تعالى فى سورة التوبة ١٠٩ ﴿ أَمِنْ أَشْسَ بُيُوتَانَهُ عَلَى شَقَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارٍ يُدْ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ ﴾ .

وفي هذا الوضع إشكال ، وذلك أن لقائل أن يقول : النهي عن المنكر واجب على العدل والعاسق ، فكيف قال : « إنما أمرتم بالنهي بعد النهاي » ؟ وقد روى أن الحسن البصري قال للشعبي : هلا سببت عن كذا ؟ فقال : يا أبا سعيد ، إني أكره أن أقول مالا أفعل . قال الحسن : غفر الله لك ! وأبنا بقول ما فعل ! ود الشيطان لو غفر منكم بهذه فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر !

والجواب أنه عليه السلام لم يرد أن وجود النهي عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك النهاي عن المنكر ؛ وإنما أراد : أتى لم آمركم بالنهي عن المنكر إلا بعد أن أمرتكم بالانتهاء عن المنكر ؛ فالترتيب إنما هو في أمره عليه السلام لم بالمخالفين للذنورين ؛ لا في نهيم وتناهيهم .

فإن قلت : فلماذا قدم أمرهم بالانتهاء على أمرهم بالنهي ؟
قلت : لأن إصلاح المرء نفسه أهم من الاعتناء بإصلاح غيره .

(١٠٥)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَعَ الْإِسْلَامَ فَسَهَّلَ شَرَايِهِ لِمَنْ وَرَدَهُ. وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ
غَالَبَهُ ؛ فَعَمَلَهُ أَمْنًا لِمَنْ عَلِقَهُ ، وَيَسَارًا لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَيُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِدًا
لِمَنْ حَاسَمَ عَنَّهُ ، وَنُورًا لِمَنْ احْتَصَاهُ بِهِ ، وَفَهْمًا لِمَنْ عَقَلَ ، وَلُبًّا لِمَنْ تَدَبَّرَ ، وَآيَةً لِمَنْ
تَوَسَّمَ ، وَتَنْصِيرَةً لِمَنْ عَزَمَ ، وَهَيْدَةً لِمَنْ أُنْظَرَ ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ ،
وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ ، وَجَنَّةً لِمَنْ صَبَرَ .
فَهُوَ أَنْدَجُ الْمَاهِجِ ، وَأَوْضَحُ الْوَلَايِجِ ؛ مُشْرِفُ النَّارِ ، مُشْرِقُ الْجَوَادِ ، مُخَيَّرُ
الصَّابِغِ ، كَرِيمُ الْفَضَائِرِ ، رَفِيعُ الْعَابَةِ ، جَامِعُ الْخَلْقَةِ ، مُتَنَافِسُ الشُّبُهَةِ ،
شَرِيفُ الْفُرْسَانِ .
التَّصَدِيقُ مِنْهَاجُهُ ، وَالصَّالِحَاتُ مَعْلَرُهُ ، وَالْمَوْتُ غَابَتُهُ ، وَالْهَيْدَةُ نَيْفُهَا مِصْبَارُهُ ، وَالنِّقَابَةُ
حَلَبَتُهُ ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ .

• • •

الشرح :

هذا باب من الخطابة شريف ؛ وذلك لأنه ناط بكل واحدة من اللفظات لفظا
تناسبها وتلائمها لو نيطت غيرها لما انطبقت عليها، ولا استقرت في قرارها ؛ ألا تراها قال
« أَمَّا مَنْ عَلِقَهُ » ؛ فالأمن مرتب على الاعتلاق ؛ وكذلك في سائر فقر كالسلم المرتب
على الدخول، والبرهان المرتب على الكلام؛ والشاهد المرتب على الخصام، والنور المرتب

على الاستضاءة . . . إلى آخرها ؛ ألا ترى أنه لو قال : « وبرهاننا لمن دخله ، ونورا لمن خاصم عنه ، وشاهدا لمن استضاء به » ، لكان قد قرن باللفظة ما لا يناسبها ، فكان قد خرج عن قانون الخطابة ، ودخل في غيب ظاهره .

وتوسم : تعمس . والولائج : جمع وليعة ، وهو للدخل إلى الوادي وغيره .

والجنة : الترس . وأبلىح المناهج : معروف الطريق .

والجلبة : الخيل المجموعة للساقة .

وللفيضار : موضع تضيير الخيل ، وزمان تضييرها . والمابة : الراية للصوبة ، وهو هاهنا خيوة تحمل على قسبة وتنصب في آخر الدعى الذى تنهى إليه المسابقة ؛ كأه عليه السلام جعل الإسلام كحبل السباق التى مضارها كرميم ، وغايتها رفعة عالية ؛ وحللتها بامنة حاوية ، وسبقها متنافس فيها ، وفرسانها أشراف .

ثم وصفه بصفات أخرى ، فقال : للتصديق طريقه ، والصالحات أعلامه ، والموت ضايته ؛ أى أن الدنيا سجن المؤمن ، وبالموت يخلص من ذلك السجن ؛ ويحظى بالسعادة الأبدية .

قال : والدنيا مضاره ، كأن الإنسان يجرى إلى غاية هى الموت ؛ وإنما جعلها مضار الإسلام ، لأن المسلم يقطع دنياه لا لدنياء بل لآخرته ، فالدنيا له كالميضار للفرس إلى الغاية للدين .

قال : والقيامه حلوته ، أى ذات حلته لحذف المضاف ، كقوله تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى ذوو درجات .

ثم قال : والجنة سُبُتُهُ ، أى جزاء سُبُتِهِ ، لحذف أيضا .

الأصل :

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

حَتَّى أَوْزَى قَبَسًا لِقَابِسٍ ، وَأَنَارَ عِلْمًا لِحَاسٍ ، فَهُوَ أَمِينُكَ لِلْأَمُونِ ، وَشَهِيدُكَ
يَوْمَ الْآثِنِ ، وَبَعِيثُكَ نِعْمَةً ، وَرَسُولُكَ بِإِلَاقٍ رَحْمَةً .

اللَّهُمَّ أَقْسِمَ لَكَ مَقْسَمًا مِنْ عَذْلِكَ ، وَأَجْزِهِ مَضْمَنَاتِ أَخْلَافٍ مِنْ فَضْلِكَ . اللَّهُمَّ
وَأَعْلَى عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ ، وَأَكْرَمَ لَدَيْكَ نُرُّهُ ، وَشَرَفَ عِنْدَكَ مَعْرَلَهُ ، وَآتِيهِ
الْوَسِيلَةَ ، وَأَعْطِهِ السَّاءَ وَالْعَظِيمَةَ ، وَأَحْشَرْنَا فِي زُمْرَتِهِ ؛ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَادِيَيْنَ ،
وَلَا نَا كِيَيْنَ ، وَلَا نَا كِيَيْنَ ، وَلَا صَالِيْنَ ، وَلَا مُصِلِيْنَ ، وَلَا مَفْتُونِيْنَ !

قال الرضى رحمه الله تعالى :

وَقَدْ مَعَى هَذَا الْكَلَامُ فِيمَا تَقَدَّمَ ، إِلَّا أَنَّا كَرَّرْنَاهُ هَاهُنَا لِيَا فِي الرُّوَايَتَيْنِ
مِنَ الْاِخْتِلَافِ .

الشرح :

قَبَسًا ، منصوب بالمفعولية ، أى أَوْزَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله قَبَسًا ، والقَبَسُ :
شعلة من النار ، والقَابِسُ : طالب الاستصباح منها . وَالْكَلَامُ مجاز ، والمراد الهداية
في الدين .

وعِلْمًا ، منصوب أيضا بالمفعولية ، أى وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عِلْمًا
لِحَاسٍ ، أى نصب لمن قد حَبَسَ ناقته - ضللا ، فهو يخطئ لا يدري كيف يهتدى
إلى النهج - علما يهتدى به .

فإن قلت : فهل يجوز أن ينصب « قبا » و « ملأ » على أن يكون كل واحد منهما حالا ، أى حتى أوردى رسول الله في حال كونه قبا وأثار في حال كونه ملأ ؟
قلت : لم أسمع « أوردى الزند » وإنما للسموع « وَرَى » و « وَرَى » ولم يسم « أوردى » إلا متعديا ، أوردى زيد زنده ، فإن حمل هاهنا على التعدى احتيج إلى حذف للفعول ، وبصير تقديره : حتى أوردى رسول الله الزند حال كونه قبا ، فيكون فيه نوع تسكف واستهجان .

والهيمث : للهموث . ومقسا : نصيبا ، وإن جلته مصدرا جاز .
والنزول : طعام الضيف . والوسيلة : ما يقرب به ، وقد فسر قولم في دماء الأذان :
« اللهم آتِه الوسيلة » ، بأنها درجة رفيعة في الجنة . والشاء بالمد : الشرف .
وزمرته : جماعته .

وخزانا : جمع خزان ، وهو (الخيل للكميل) ، مثل سكران وسكاري ، وحيوان وسحاري ، وغيران وغيارى .
وناكبين ، أى عادلين عن الطريق . وناكثين ، أى فاقضين العهد .

قلت : سألت النقيب أبا جعفر رحمه الله - وكان متصفاً بيدا عن الهوى والعصية عن هذا الوضع - فقلت له : قد وقتت على كلام الصحابة وخطبهم فلم أرفيها من عظم رسول الله صلى الله عليه وآله تعظيم هذا الرجل ، ولا يدهو كدعائه ؛ فإننا قد وقفنا من " نهج البلاغة " ومن غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل ، تدل على إجلال عظيم ، وتبجيل شديد من رسول الله صلى الله عليه وآله . فقال : ومن أين لتبره من الصحابة كلام مدون يتعلم منه كيفية ذكرهم للنبي صلى الله عليه وآله ؟ وهل وجد لهم إلا كلمات مبتدرة ، لا طائل تحتها ! ثم قال : إن عليا عليه السلام كان قوى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله والتصديق له ، ثابت اليقين ؛ فأطاع بالأمر ، متعقداً له ، وكان

مع ذلك يحب رسول الله صلى الله عليه وآله لنفسه منه ، وتربيته له ، واحتصاصه به من دون أصحابه . وبعد ؛ فشرقه له ، لأنها نفس واحدة في جسمين : الأب واحد ، والدار واحدة ، والأخلاق متقاربة ؛ فإذا عظمه فقد عظم نفسه ، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه ، ولقد كان يود أن تطبق دعوة الإسلام مشارق الأرض ومغاربها ؛ لأن جمال ذلك لاحق به ، وعائد عليه ، فكيف لا يعظمه ويبتغله ويجهده في إعلاء كلمته !

قلت له : قد كنت اليوم أما وجعفر بن مكي الشاعر تنجاذب هذا الحديث ، فقال جعفر : لم ينصر رسول الله صلى الله عليه وآله أحد نصرته أبي طالب وبنوه له ، أما أبو طالب فكفله ورباه ، ثم حماه من قريش عند إظهار الدعوة ، بعد إصفاقهم وإطباقهم على قتله ، وأما ابنه جعفر فهاجر بجماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة ، فنشر دعوته بها ، وأما علي فإنه أقام محاد لليلة المدينة ؛ ثم لم يمتن أحد من القتل والموان والتشريد بما مني به بنو أبي طالب ؛ أما جعفر فقتل يوم مؤتة ، وأما علي فقتل بالكوفة بعد أن شرب نقيع الخنظل ، ونمى لكوث ، ولو تأخر قتل ابن ملجم له لمات أسفا وكدا ، ثم قتل ابنه بالسهم والسيف ، وقتل بنوه الباقون مع أخيههم بالطف ، وحملت نساؤهم على الأقطاب سباً إلى الشام ، ولقيت ذريتهم وأحلافهم بعد ذلك من القتل والصلب والتشريد في البلاد والموان والحبس والضرب مالا يحيط الوصف بكنهه ، فأى خير أصاب هذا البيت من نصرته ، ومحبه وتمظيمه باقول والفعل !

قال رحمه الله وأصاب فيها قال : فهلا قلت : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُفُّ الْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) . ثم قال : وحلا قلت له : قد نصرته الأنصار ، وبذلت مهجتها دونه ، وقتلت بين يديه في

في مواطن كثيرة ، وخصوصا يوم أحد ثم انتصروا بعده ، واستؤثر عليهم ، ولقوا من المشاق والشدائد ما يطول شرحه ؛ ولو لم يكن إلا يوم الحرة ، فإنه اليوم الذي لم يكن في العرب مثله ، ولا أصيب قوم قط بمثل ما أصيب به الأنصار ذلك اليوم !
ثم قال : إن الله تعالى زوى الدنيا عن صالحى عباده وأهل الإخلاص له ؛ لأنه لم يرها ثمنا لعبادتهم ، ولا كفوا لإحلامهم ، وأرحا جزاءهم إلى دار أخرى غير هذه الدار ؛ في مثلها يتنافس المتنافسون !

• • •

الأصل :

منها في خطاب أصحابه :

وَقَدْ بَلَّغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى تَكْرِمًا مَكْرُومًا بِهَا إِمَاؤُكُمْ ، وَتَوَصَّلُ بِهَا جِوَارَانُكُمْ ، وَيُعْظَمُكُمْ مَنْ لَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا بَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ ، وَبِهَا بُكُمْ مَنْ لَا يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً ، وَلَا لَكُمْ مَتَبِعٌ لِامْرَأَةٍ .
وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللَّهِ مَنْقُوضَةً فَلَا تَنْصَبُونَ ، وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَّتِ آبَائِكُمْ تَأْفِقُونَ ، وَكَانَتْ أُمُورُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُّ ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّالِمَةَ مِنْ مَنَزِلَتِكُمْ ، وَأَقْبَيْتُمُ الْيَهُودَ أَرْحَمَكُمْ ، وَأَسْتَنْتُمْ أُمُورَ اللَّهِ فِي أَيْدِيهِمْ ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ وَإِنَّمَا اللَّهُ تَوْفَرُّوْكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ ، يَجْمَعُكُمْ اللَّهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ !

• • •

الشرح :

هذا خطاب لأصحابه الذين أسلموا مدنهم ونواحيهم إلى جيوش معاوية ؛ التي كان .

يُغَيِّرُ بِهَا عَلَى أَطْرَافِ أَعْمَالٍ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَالْأَنْبَارِ وَغَيْرِهَا ؛ مَا تَقْدِمُ ذِكْرَ نَالِهِ ؛ قَالَ لَمْ ؛
إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَكُمْ بِالْإِسْلَامِ بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ مَجْرُوسًا أَوْ عِبَادَ أَصْنَامٍ ، وَبَلَّغْتُمْ مِنْ كَرَامَتِهِ إِلَيْكُمْ
بِالْإِسْلَامِ مَنْزِلَةً عَظِيمَةً ؛ أَكْرَمَ بِهَا إِمَاؤَكُمْ وَهَيْبَتَكُمْ ؛ وَمَنْ كَانَ مَخْلُوعًا لِلْهَيْبَةِ وَالْمَذَلَّةِ .

وَوَصَلَ بِهَا جِيرَانَكُمْ ، أَيْ مَنْ لَلْتَجَا إِلَيْكُمْ مِنْ مُعَاهِدٍ أَوْ ذِيٍّ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَفِظَ
لَمْ ذِمَامَ الْمَجَاوِرَةِ لَكُمْ ؛ حَقَّ عَصَمَ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَصَرَّحَ إِلَى حَالِ بَطْلَانِكُمْ بِهَا مَنْ
لَا فُضِّلَ لَكُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا نُسِيَ لَكُمْ عَنْدهُ ؛ كَالرُّومِ وَالْحَبَشَةِ ، فَإِنَّهُمْ هَظَمُوا مَسَلَى الْعَرَبِ
لَتَقْتَصِمَهُمْ لِبَاسَ الْإِسْلَامِ وَالِدِينَ ، وَثَرَوَهُمْ نَامُوسَهُ ، وَأَظْهَارَهُمْ شَعَارَهُ .

وَبِهَابِكُمْ مِنْ لَا يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً ، وَلَا لَكُمْ عَلَيْهِ إِسْرَةٌ ؛ كَالْمُلُوكِ الَّذِينَ فِي أَقْصَى الْبِلَادِ ؛
نَحْوَ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَأَمْثَالِهَا ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ هَابُوا قُوَّةَ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِنْ لَمْ يَخَافُوا سَطْوَةَ سَيْفِهَا ؛
لَأَنَّهُ شَاعَ وَذَاعَ أَنَّهُمْ قَوْمٌ صَالِحُونَ ؛ إِذَا دَعَا اللَّهُ اسْتَجَابَ لَهُمْ ؛ وَأَنَّهُمْ يَقْهَرُونَ الْأُمَمَ بِالنَّصْرِ
السَّمَاوِيِّ وَالْمَلَأْنِكَةِ ؛ لَا بِسُيُوفِهِمْ وَلَا بِأَيْدِيهِمْ . قِيلَ : إِنَّ الْعَرَبَ لَمَّا عَبَرَتْ دِجْلَةَ إِلَى
الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ الشَّرْقِيِّ بِالْمَدَائِنِ عَبَرَتْهَا فِي أَيَّامِ مَدَّهَا ، وَهِيَ كَالْبَحْرِ الزَّاخِرِ عَلَى خِيُولِهَا
وَبِأَيْدِيهَا رِمَاحِهَا ، وَلَا دُرُوعَ عَلَيْهَا وَلَا بَيْضَ ؛ فَهَرَمَتِ الْفَرَسُ بَعْدَ رَمَى شَدِيدٍ مِنْهَا لِلْعَرَبِ
بِالسَّهَامِ ؛ وَهُمْ يَقْدُمُونَ وَيَحْمِلُونَ ؛ وَلَا تَهْوُلُهُمُ السَّهَامُ ؛ فَقَالَ قَلَّاحُ نَبَطِي ، بِيَدِهِ مَسْعَانَهُ
وَهُوَ يَفْتَحُ الْمَاءَ إِلَى زَرْعِهِ لِأَسْوَارٍ مِنَ الْأَسَاوِرَةِ مَعْرُوفٍ بِالْبَاسِ وَجُودَةِ الرَّمَايَةِ ؛ وَبَلَّغَكُمْ
أَمِثْلَكُمْ فِي سِلَاحِكُمْ يَهْرَبُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْحَاسِرِينَ ؛ وَلِذَلِكَ بِالْقَوْمِ وَالْتِمِيفِ . فَقَالَ لَهُ :
أَقِمْ مِثْعَانَتَكَ ، فَأَقَامَهَا فَرَمَاحًا ، تَفْرُقُ الْحَدِيدَ حَقَّ عِبَرِ التَّمَصُّلِ إِلَى جَانِبِهَا الْآخَرِ ، ثُمَّ قَالَ :
انْظُرْ الْآنَ ، ثُمَّ رَمَى بَعْضَ الْعَرَبِ لِلْمَازِينَ عَلَيْهِ عَشْرِينَ سَهْمًا لَمْ يُصِبْهُ وَلَا فَرَسُهُ مِنْهَا بِسَهْمٍ
وَاحِدٍ ؛ وَإِنَّهُ لَقَرِيبٌ مِنْهُ غَيْرُ بَعِيدٍ . وَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّهَامِ يَسْقُطُ بَيْنَ يَدَيِ الْأَسْوَارِ ،
فَقَالَ لَهُ بِالْفَارَسِيَّةِ : أَعْلَمْتُ أَنَّ الْقَوْمَ مَعْصُوعٌ لَمْ أَقُلْ : نَمَ .

ثم قال عليه السلام : ما لكم لا تفضيرون ، وأنتم تزون عهد الله منقوضة ! وإن من العجب أن ينضب الإنسان ويألف من نقض عهد أبيه ، ولا ينضب ولا يألف لنقض عهد الله وخالفه !

ثم قال لهم : كانت الأحكام الشرعية إليكم ترد مني ومن تلميذي إياكم ، وتتحقق لكم ، ثم تصدر عنكم إلى من تعلمونه إياها من أتباعكم وتلاميذكم ، ثم يرجع إليكم بأن يعملها بنوكم وإخوانكم من هؤلاء الأتباع والتلاميذ ؛ ففررت من الزحف لما أغارت جيوش الشام عليكم ، وأسلمت منازلكم وبيوتكم وبلادكم إلى أعدائكم ، ومكنتم الطلبة من منزلتكم ؛ حتى حكموا في دين الله بأهوائهم ، وعملوا بالشبهة لا بالحجة ، وانسعوا في شهواتهم وما آرب أنفسهم .

ثم أقسم بالله : إن أهل الشام لو فرقوك تحت كل كوكب ليجتمعكم الله ليوم ، وهو شر يوم لهم ؛ وكفى بذلك عن ظهور للسودة وانتقامها من أهل الشام وبنى أمية ، وكانت المسودة المنتقمة منهم عراقية وخراسانية .

(١٠٦)

الأنزل :

ومن كلام له عليه السلام في بعض أيام صفين :

وَقَدْ رَأَيْتُ جَوَلْتَكُمْ ، وَأَنْحِيَا زُكْمَ عَنْ صُفُوفِكُمْ ، تَحْوِزُكُمْ الْجَفَاءُ الطَّنَامُ ،
وَأَغْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَنْتُمْ لَهَا مِمْ الْعَرَبِ ، وَيَا فَيْحُ الشَّرَفِ ، وَالْأَنْفُ لِلْقَدَمِ ،
وَالنَّامُ الْأَعْظَمُ .

وَلَقَدْ شَفَا وَحَاوَحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخْرَقٍ ، تَحْوِزُونَهُمْ كَمَا حَاوَزُكُمْ ،
وَتَزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَرَاكُمْ بِالنَّصَالِ ، وَشَجَرًا بِالرَّمَاكِ تَرْكَبُ أَوْلَاهُمْ .
أَخْرَاهُمْ كَالْإِبِلِ إِلَيْهِمُ الْمَطْرُودَةِ ؛ تَرْتَسِي عَنْ حِيَاضِهَا ؛ وَتَذَادُّ عَنْ تَوَارِدِهَا !

• • •

الْبَرْخ :

جَوَلْتَكُمْ : هزيمتكم . فَأَجَلٌ فِي الْقَمَطِ ، وَكَتَفٌ مِنَ الْقَمَطِ لِلنَّقْرِ ، مَادُّاً عَنْهُ إِلَى لَفْظِ
لَا تَنْفِيرُ فِيهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَأَنَّمَا يَأْكُلَانِ الطَّمَامَ ﴾ ^(١) ، قَالُوا : هُوَ كُنْيَاةٌ عَنْ إِبْرَاهِيمَ
الْمَانِطِ ، وَاجْعَالٌ فِي الْقَمَطِ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : « وَأَنْحِيَا زُكْمَ عَنْ صُفُوفِكُمْ » كُنْيَاةٌ مِنَ الْمَرْبِ أَيْضًا ؛ وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّمًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَبِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الفرقان ٢

(٢) سورة الأهل ١٦

وهذا باب من أبواب البيان لطيف ؛ وهو حُسن التوصل بإيراد كلام غير مزعج ؛
هوذا عن لفظ يتضمن جنها وتقربا .

ومحوزكم : تعمل بهم عن مرا كركم . والجفأة : جمع جاف ؛ وهو القدم الغليظ .
والطعام : الأوغاد . والهاميم : جمع لموم وهو الجواد من الناس والخيول ، قال الشاعر :
لأنحبن يا ضا في منقصة إن الهاميم في أقربها نلق^(١)
والياقنيخ : جمع يافوخ وهو معظم النسب ، تقول : قد ذهب يافوخ الليل ، أى أكثره ،
ويحوز أن يريد به اليافوخ ، وهو أعلى الرأس ، وجمعه ياقنيخ أيضا وأنفقت الرجل : ضربت
يافوخه ، وهذا اليتق ، لأنه ذكر بسده الأنف والسان ، فمثل اليافوخ على الضو
إذا أشبه .

والوحاح : الحرق والحرارات ولقيته بأخرة على « قملة » أى أخيرا .
والحسن القتل ، قال الله تعالى : (إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذِيهِ)^(٢) .
وشعرت زيدا بالرمح : طعنته ، والله يثني « أولام » و « وأخرام » الكتاب .
والهميم : العطاش . وتزاد تصد ونمى ، وقد روى : « الطامة » عوض « الطعام » .
وروى « حشأ » بالهمز من حشأت الرجل أى أصبت حشاه .
وروى « بالنضال » بالضاد المعجمة ، وهو النافلة والمرامة .
وقد ذكرنا نحن هذا الكلام فيما اقتصرناه من أخبار صيغين فيما تقدم من
هذا الكتاب .

(١) القان ١٦ : ٢٩ ، من غير نسخة .

(٢) سورة آل عمران ١٥٢

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام ، وهي من خطب الملاحم :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَتَّعِلِ لِخَلْقِهِ مَخْلَقِهِ ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِمُحِجَّتِهِ ؛ خَلَقَ أَنْطَلَقَ مِنْ
غَيْرِ رَوِيَّةٍ ؛ إِذْ كَانَتْ الرُّوَبَاتُ لَا تَلِيْقُ إِلَّا بِذَوِي الصَّمَائِرِ ؛ وَلَيْسَ بِذِي صَبْرِ فِي
نَفْسِهِ . خَرَقَ عَلَيْهِ بَاطِنَ غَيْبِ السُّرَاتِ ، وَأَحَاطَ بِمَوْضِي عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ .

• • •



الشرح :

الملاحم : جمع ملحمة ؛ وهي الواقعة العظيمة في الحرب ؛ ولما كانت دلائل إثبات
الصانع ظاهرة ظهور الشمس ؛ وصفه عليه السلام بكونه ظهر وتجلي تعلقه ، ودلهم عليه
بخلقهم وإيماهم وإيماده لهم .

ثم أكد ذلك بقوله : « والظاهر لقلوبهم بمحجته » ولم يقل « لعيونهم » لأنه غير
مرئي ؛ ولكنه ظاهر للقلوب بما أودعها من الخبيج الدالة عليه .

ثم نفى عنه الروية والفكر والتمثيل بين خطرين ؛ يعمل على أحدهما ، لأن ذلك
إنما يكون لأرباب الصنائع والقلوب أولى النوازع المختلفة والبواعث المتضادة .

ثم وصفه بأن علمه محيط بالظاهر والباطن والمأماني والمستقبل ، فقال : إن علمه خرق
باطن النيوب المستورة ، وأحاط بالعامض من عقائد السرائر .

• • •

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

أَخْطَرُهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَشُكَاةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَذَوَابَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَسُرَّةِ الْبَطْخَاءِ ،
وَمَصَابِيحِ الظُّلَمَةِ ، وَبَنَائِصِ الْحِكْمَةِ .

•••

الْبَيْتُ

شجرة الأنبياء أولاد إبراهيم عليه السلام ، لأن أكثر الأنبياء منهم : والشكاة :
كثرة غير نافذة ؛ يحمل فيها المصباح [والذوابة] بكثرة من شعر الرأس ، وسرّة البطحاء :
وسطها ، وبدو كعب بن لؤي يغفرون على بني عامر بن لؤي بأنهم سكنوا البطاح ،
وسكنت عامر بالجبال المحيطة بمكة ، وسكن معها بنو فهر بن مالك ، روى أبي عبيدة
ابن الجراح وغيره ، قال الشاعر :

فَعَلَّقَتْ مِنْهَا بِالْبَطْحَاءِ ح وَحَلَّ غَيْرُكَ بِالْغَوَاهِرِ

وقال طريح بن إسماعيل :

أَنْتَ ابْنُ مُسْنَطَحِ الْبَطْحَاءِ وَلَمْ تُطَرِّقْ عَلَيْكَ الْحَيَّ وَالْوَلَجَ^(١)

وقال بعض الطالبين :

وَأَنَا ابْنُ مُسْتَلْجِ الْبَطْحَاءِ إِذَا خُذَا غَيْرِي ، وَدَاحَ عَلَى مَتُونِ غَوَاهِرِ

(١) قيل في الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكان من أحواله . الحى : ما انحص من الأرض ، والوج :
ما اجمع من الأودية ؛ أى لم تكن بينهما بعض حىك ، والبيت في معجم البلدان ٢ : ٢١٤ .

يَنْقُزُ عَنْ رُكْنِهَا وَحَطْبُهَا كَالْجَفْنِ يُنْفَعُ عَنْ سَوَادِ الْفَاظِرِ
كَجِبَالِهَا شَرَفِي، وَمِثْلُ سَهْلِهَا حُلَّتِي، وَهَلْ ظِلَّاهُنَّ بِجَاوِرِي



الأصل :

ومنها :

طَيْبٌ دَوَّارٌ طَيِّبٌ ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَامَهُ ، وَأَتَى مَوَاسِمَهُ ؛ يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ
الْحَاجَةُ إِلَيْهِ ؛ مِنْ قُلُوبٍ تُعْمَى ، وَأُذَانٍ تُصَمُّ ، وَالسِّنِّ بِكُمْ ؛ مُتَتَّبِعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ
الْفَقْدِ ، وَمَوَاطِنَ الْخَيْرِ .



التبنيح :

إنما قال : « دَوَّارٌ طَيِّبٌ » ، لأنَّ الطَّيِّبَ الدَّوَّارَ أَكْثَرُ نَجْرَةٍ ، أَوْ يَكُونُ عَنْهُ
أَنَّهُ يَدُورُ عَلَى مَنْ يَعالِجُهُ ؛ لأنَّ الصَّالِحِينَ يَدُورُونَ عَلَى مَرْضَى الْقُلُوبِ ، فَيُعالِجُونَهُمْ
وَيَقَالُ : إِنَّ الْمَسِيحَ رُئِيَ خَارِجًا مِنْ بَيْتِ مَوْسَى ، قَبْلَ : بِاسْمِنَا ، أَمَّا أَنْ يَكُونَ
هَاهُنَا ! فَقَالَ : إِنَّمَا يَأْتِي الطَّيِّبُ لِلرَّضَى .

والرَّامُ : الْأَدْوِيَةُ الْمُرَكَّبَةُ فِي حَرَاحَاتٍ وَالتَّقْوِصُ . وَلِلْوَاسِمِ : حَمْدًا يُؤْتَمُّ بِهَا
الْخَلِيلُ وَغَيْرُهَا .

نَمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَعالِجُ بِذَلِكَ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ؛ وَهِيَ أَوَّلُ الْقُلُوبِ الْعُمَى ، وَالْأُذَانِ
الصَّمِّ ، وَالْأَلْسِنَةِ الْبُكْمِ ، أَيْ الْخَرَسِ . وَهَذَا قَدِيمٌ صَحِيحٌ حَاضِرٌ ، لِأَنَّ الضَّلَالَ وَخَالَفَةَ

الحق يكون بثلاثة أمور : إما بجهل القلب ، أو بدم سماع للواعظ والحجج ، أو بالإعصاك من شهادة التوحيد وتلاوة التذكرة ، فهذه أصول الضلال ؛ وأما أفعال للعاصي قفوع عليها .

[فصل في التقسيم وما ورد فيه من الكلام]

وصحة التقسيم باب من أبواب علم البيان ؛ ومنه قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ^(١) . وهذه قسمة صحيحة ، لأن المكلفين : إما كافر ، أو مؤمن ، أو ذو النزلة بين المنزلتين ، هكذا قسم أصحابنا الآية على مذاهبهم في الرعيد .

وغيره يقول : المباد إما طامس ظالم لنفسه ، أو مطيعٌ مبادرٌ إلى الخير ، أو مقتصد بينهما .

ومن التسميع أيضا قوله : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً • فَأَصْحَابُ الْيَمِينَةِ مَا أَلْمَمْتُمْ • وَالْيَمِينَةُ • وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَلْمَمْتُمْ • وَالْمَشْأَمَةُ • وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ^(٢) ﴾ ومثل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ الْبَرَقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ^(٣) ﴾ ، لأن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع .

ووقف سائل على مجلس الحسن البصري ، فقال : رحم الله عبدا أعطى من سعة ، أو واسى من كفاف ، أو أثر من قبة ! فقال الحسن : لم تترك لأحد عذرا .

(١) سورة طه ٣٢

(٢) سورة الواقعة ٧ - ١٠

(٣) سورة الرعد ١٢

ومن التخصيات الفاسدة في الشعر قول البعري :

ذَلِكَ وَادِي الْأَرَاكِ فَاحْبِسْ قَلِيلًا مُتْعِمِرًا فِي مَلَامَةٍ أَوْ مُطِيلًا^(١)

قِفْ مَشُوقًا، أَوْ مُسْعِدًا، أَوْ حَزِينًا أَوْ مَبِينًا، أَوْ عَافِرًا، أَوْ عَذُولًا

فالتقسيم في البيت الأول صحيح ، وفي الثاني غير صحيح ، لأنَّ المشوق يكون حزينًا ، والسعد يكون مبينًا ؛ فكذلك يكون عافرا ، ويكون مشوقا ، ويكون حزينًا .
وقد وقع اللحن في مثل ذلك ، فقال :

ظَنَنْتُ ، فَإِنَّ النَّاسَ فِيكَ ثَلَاثَةٌ مُسْتَغْنٍ أَوْ حَاسِدٍ أَوْ جَاهِلٍ^(٢)

فإن المستغنى يكون حاسدا ، والحاسد يكون مستغنيا .

ومن الأبيات التي ليس تقسيمها بصحيح ، ما ورد في شعر الحماسة :

وَأَنْتَ أَمْرٌ إِمَّا أَهْمَنْتُكَ خَالِيًا نَفْسِي ، وَإِمَّا قَلْتَ قَوْلًا بِلَا عِلْمٍ^(٣)

فَأَنْتَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ أَتَيْتَهُ بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْإِثْمَانِ وَالْإِثْمِ

وذلك لأنَّ الإثمَانِ أخص من الإثم ، والإثم شامل لهما ، لأنه أعمُّ منهما ، فقد دخل أحد القسمين في الآخر . ويمكن أن يستفرد به ، فيقال : عَنِ الْإِثْمِ السَّكَدُ نَفْسِي ، وكذلك هو للحن أيضا قوله : « قولا بلا علم » ، كأنه قال له : إيمان أن أكون أقشيت سرى إليك نفسي ، أو لم أقش فكذبت علي ، فأنت فيما أتيت بين أن تكون خائنا أو كاذبا .
ومما جاء من ذلك في النثر قول بعضهم : « من جريح مفرج بدنه ، أو هارب لا ياتممت إلى ورائه » ، وذلك أن الجريح قد يكون هاربا ، والهرب قد يكون جريحا .

وقد أجاد البعري لما قسم هذا المعنى ، وقال :

(١) ديوانه ٢ : ٢١٠

(٢) ديوانه ٣ : ٢٥٩

(٣) لبيد ابن ربيعة ، حاسة ابن تمام مفرج للرزوي ٣ : ١١٣٩

الأصل :

لَمْ يَنْتَضِيُوا بِأَصْوَاهِ الْحِكْمَةِ ؛ وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْمُلُومِ النَّاقِبَةِ ؛ فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ ؛ قَدِ انْجَابَتِ السَّرَائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ ؛ وَوَضَعَتِ تَحِجَّةُ الْخَلْقِ لِيُخَابِعَهَا ، وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا ، وَظَهَرَتِ الْعَلَامَةُ لِمُتَوَسِّمِيهَا .

مَالِي أَرَاكُمُ أَشْبَاحًا بِلَا أَرْوَاحَ ، وَأَرْوَاحًا بِلَا أَشْبَاحَ ، وَنَسَاكَ بِلَا صَلَاحَ ، وَنَجَارًا بِلَا أَرْبَاحَ ، وَأَبْقَاظًا نَوْمًا ، وَشُهُودًا غُيْبًا ، وَمَاطِرَةً تَهْيَاءَ ، وَسَائِمَةً صَمَاءَ ، وَمَاطِقَةً بَكَاءَ .

...



الشرح :

انْجَابَتِ : انْكَشَفَتْ . وَالْحِجَّةُ : الطَّرِيقُ ، وَالْحَابِطُ : السَّائِرُ عَلَى غَيْرِ سَبِيلٍ وَاضِعَةٍ . وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ : أَضَاءَتْ وَأَسْرَقَتْ ، وَمِنْ مَتَلَقَةٍ بِمَعْدُوفٍ ، وَتَقْدِيرُهُ : كَاشَفَتِ عَنْ وَجْهِهَا .

وَالْمُتَوَسِّمُ : الْمُتَفَرِّسُ . أَشْبَاحًا بِلَا أَرْوَاحَ ، أَيْ أَشْبَاحًا لَا أَرْوَاحَ لَهَا وَلَا عُقُولَ ، وَأَرْوَاحًا بِلَا أَشْبَاحَ ؛ يُمْكِنُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْخَلْفَةُ وَالطَّيْشُ ، تَشْبِيهَا بِرُوحِ بِلَا جَدِّ . وَيُمْكِنُ أَنْ يُعْنَى بِهِ تَقْصِيمُ ، لِأَنَّ الرُّوحَ غَيْرَ ذَاتِ الْجَدِّ مَاقِعَةٍ عَنِ الْأَعْمَالِ وَالتَّعْرِيكِ اللَّذِينَ كَانَا مِنْ فَعْلِهَا حَيْثُ كَانَتْ تَدِيرُ الْجَدِّ .

وَنَسَاكَ بِلَا صَلَاحَ : نَسَبَهُمْ إِلَى الْفَلَاكِ . وَنَجَارًا بِلَا أَرْبَاحَ : نَسَبَهُمْ إِلَى الرِّيَاءِ وَإِيقَاعِ الْأَعْمَالِ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا .

ثُمَّ وَصَفَهُمُ بِالْأُمُورِ الْمُتَضَادَّةِ ظَاهِرًا ، وَهِيَ مُحْتَمِلَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ ، فَقَالَ : أَبْقَاظًا نَوْمًا ،

لأنهم أولو بفضة ؛ وهم غفول عن الحق كالنيام ، وكذلك باقيها ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هِيَ لَا تَسْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَسْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ^(١) .

•••

الأصل :

رَايَةُ ضَلَالٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ بِشَمِهَا ، تَكِينُكُمْ بِصَاعِهَا ، وَتَحْطِطُكُمْ بِبَاعِهَا ، فَأَيْدُهَا خَارِجٌ مِنْ أَلْيَةِ ، قَائِمٌ عَلَى الضَّلَّةِ ؛ فَلَا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلَّا ثِقَالَةٌ كَثِفَالَةِ الْفِذْرِ ، أَوْ نَفَاضَةٌ كَنَفَاضَةِ الْيَكْمِ ، نَزْرُكُمْ عَرَكُ الْأَدِيمِ ، وَتَدْوُسُكُمْ دَوْسُ الْحَصِيدِ ، وَتَسْتَخْلِصُ الدُّوَيْنَ مِنْ بَيْنِكُمْ أَسْتَخْلَاصَ الطَّيْرِ الْهَبَّةَ الْهَبِئَةَ مِنْ تَيْنٍ هَزَبِلِ الْهَبِ .



الشرح :

هذا كلام منقطع عما قبله ، لأن الشريف الرضي رحمه الله كان يلتقط الفصول التي في الطبقة العليا من الفصاحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيذكرها ، ويتخلى ما قبلها وما بعدها ، وهو عليه السلام يذكر ههنا ما يحدث في آخر الزمان من الفتن ، كظهور السفيناتي وغيره .

والقطب في قوله عليه السلام : « قامت على قطبها » : الرئيس الذي عليه يدور أمر الجليش . والشعب : القبيلة العظيمة ، وليس التفرق للراية نفسها ، بل لنصارها وأصحابها ، فهدف للضاف ، ومعنى تفرقهم ، أنهم يدعون إلى تلك الدعوة المخصوصة في بلاد متفرقة ، أي تفرق ذلك الجمع العظيم في الأقطار ، داعين إلى أمر واحد ويروي « شعبها » جمع شعبة .

وتقدير : « تكيلكم بصاعها » تكيل لكم ، لحذف اللام ؛ كافي قوله تعالى :
 ﴿ وَإِذَا كَأَنَّهُمْ أَوْ ذَرَئُهُمْ ﴾ ^(١) ، أى كالوا لهم ، أو وزنوا لهم ؛ والمعنى تحمّلكم على دينها
 ودموتها ، وتعاملكم بما يعامل به من استعجاب لها ، ويجوز أن يريد بقوله : « تكيلكم
 بصاعها » يقيمكم أربابها على الدخول فى أمرهم ، ويتلاعبون بكم ، ويرفضونكم
 ويضعونكم كما يفعل كتيال البرّ به إذا كاله صاعه .

ونحبطكم بباعها : تظلمكم وتمسككم ، قائدها ليس على ملّة الإسلام بل مقيم على
 الضلالة ، يقال : ضلّ لك ، وإنه ليؤمنى ضلّة ، إذا لم يوفق الرشاد فى عدّه .

والثفالة : ماثقل فى القدر من الطبيع . والثفاضة : ما سقط من الشيء المفوض .

والعكم : العذل ، والعكم أيضاً عطف يجعل فيه المرأة ذميرتها .

وعركت الشيء : دلكته بقوة (المصيد) الكرم المحصود .

ومعنى استخلاص المعتنة المؤمن أنها تخمته بكايته وأداها ؛ كما قيل : المؤمن مئق

والكافر موق ، رى انحر المرفوع : « آفات الدنيا أسرع إلى المؤمن من النار فى
 بئس العرفج » .

• • •

الأصل :

أَيَنْ تَذْهَبُ بِكُمْ الذَّاهِبُ ، وَتَنْتَبِهُ بِكُمْ الْعَبَّاهِبُ ، وَتَخْذَعُكُمْ الْكَوَازِبُ ؟
 وَمِنْ أَيْنَ تَوَاتُونَ ، وَأَيُّ تَوَافِكُونَ ؟ فَلَئِنْ أَجَلَ كِتَابٌ ، وَلَئِنْ غَيْبَةُ إِيَابٌ .
 فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيكُمْ ، وَأَخْصِرْهُ قُلُوبَكُمْ ، وَاسْتَفِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ .

وَلْيَصْذُقْ رَائِدَ أَهْلِهِ ، وَلْيَجْمَعْ نَحْمَهُ ، وَلْيُخْفِرْ ذِيْنَهُ ؛ فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمْ الْأَمْرَ فَلَقَ
الْخُرَزَةَ ، وَقَرَفَهُ قَرَفَ الصُّنْعَةِ .

التفسير :

العياب : الظلمات ، الواحد غيب . وتقيه بكم : نجماكم تاهين ، عذى الفعل
اللام محرف الجزة ، كما تقول في ذهب : ذهبت به . والنائه : التعبير .
والسكواذب هاهنا : الأمانى ، فحذف للوصوف وأبقى الصفة كقوله :

• إِلَّا بَكْنِي كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبِشْرِ •

أى بكنى غلام هذه صفة .
وقوله : « وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » أطلعه منقطعاً أيضاً عن الأول مثل المصل الذى
تقدم ؛ وقد كان قبله ما ينطبق عليه وبلثتم معه لا محالة . ويمكن على بعد أن يكون
متصلاً بما هو مذكور هاهنا .

وقوله « وَلِكُلِّ غِيْبَةٍ إِيَابٌ » قد قاله عبيد بن الأبرص ، واستثنى من العموم
للوت ، فقال :

وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَثُوبُ وَغَائِبُ اللَّوْتِ لَا يَثُوبُ ^(١)

وهو رأى زنادقة العرب ؛ فأما أمير المؤمنين ، وهو ثانى صاحب الشريعة التى جاءت
بعود اللوتى ، فإنه لا يستثنى ، ويحقق عبيداً فى استثنائه .

والرأى : الذى أمرهم بالاستماع منه ؛ إنما يعنى به نفسه عليه السلام ، ويخالف : رجل

رباني أي مثاله عارف بالرب سبحانه . وفي وصف الحسن لأمر المؤمنين عليه السلام :
« كان والله رباني هذه الأمة وذا فضلها ، وذا قرابتها ، وذا سابقتها » .

ثم قال : وأحضروه قلوبكم ، أي اجعلوا قلوبكم حاضرة عنده ، أي لا تنموا لأنفسكم
بمحض الأجساد وغيبة القلوب ، فإنكم لا تنغمون بذلك : وهتف بكم : صاح ، والرائد :
الذي يتقدم المتحemin لينظر لهم الماء والكلاء . وفي المثل : الرائد لا يكذب أهله .

وقوله : « وليجمع شمله » أي وليجمع عرائمه وأفكاره لينظر ؛ فقد فلق هذا الرباني
لكم الأمر ، أي شق ما كان مهيأ ، وفتح ما كان مغلقا ، كما تفلق الخززة
فيعرف ماؤها .

وترفه ، أي قشره ، كما تقشر الصفة عن عود الشجرة ، وتقلع .



الأصل :

فَإِنَّ ذَلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَسَاجِدَهُ ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاسِكَهُ ؛ وَهَطَمَتِ الطَّاعِيَةُ ،
وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالِ السُّعَى الْمُقْوِرِ ، وَهَدَرَ قَيْنِقُ الْبَاطِلِ بِمَدِّ
كُلُومٍ ، وَتَوَاحَى النَّاسُ عَلَى الْمُجُورِ ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ ، وَتَحَابُّوا عَلَى
الْكُذِبِ ، وَتَبَاغَصَوْا عَلَى الصَّدَقِ . فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظًا ؛ وَالطَّرُفُ قَيْظًا ،
وَتَقَيَّضُ النَّامُ فَيْضًا ، وَتَغَيَّضُ الْكِرَامُ غَيْصًا ، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِيَابًا ،
وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعًا ، وَأَوْسَاطُهُ أَكَالًا ، وَضَرَارُهُ أَمْوَاتًا ، وَغَارَ الصَّدَقُ ، وَفَاضَ
الْكُذِبُ ، وَاسْتُعْمِلَتِ الْوَدَّةُ بِاللِّسَانِ ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ ، وَصَارَ الْفُسُوقُ
نَسَبًا ، وَالْبَغَافُ عَجَبًا ، وَلَيْسَ الْإِسْلَامُ لِنَسِ الْعَرَوِ مَقْلُوبًا .

البُزْج :

تقول : أخذ الباطل مأخذه ، كما تقول عمل عمله ؛ أى قوى سلطانه وقهره ؛ ومثله « ركب الجمل مراكبه » .

وعظمت الطاغية ، أى الطغيان ، فاعلة معنى المصدر ، كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَوْ قَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ ^(١) ، أى تكذيبه ، ويموز أن تكون الطاغية هاهنا صفة فاعل محذوف ، أى عظمت الفئة الطاغية . وقلت الداعية مثله ، أى الفرقة الداعية .

وصال : حمل ووثب ، صوّلا وصوّلة ، يقال : ربّ قول أشدّ من صول ، والصيال والمصاولة هى الموائبة ، صايله صيالا وصيالة ، والمحلان يتصاولان ، أى يتواثبان .

والفتيق : غل الإبل . وهذر : ردّد صوته فى حنجرتة ، وإبل هوادر ؛ وكذلك هذر بالتشديد تهديرا ، وفى النثل : « هو كالمهذر فى العنة » بضرب للرجل يصيح ويحلب وائس وراء ذلك شيء كالمير الذى يحبس فى العنة ؛ وهى المظيرة ، ويمسح من الصراب ، وهو يهدر ، وقال الوليد بن عقبة لمأوية :

قَطَعْتَ الدَّهْرَ كَالسَّيْمِ لِلْعَنَى تَهْذِرُ فِى دَمَشْقَ وَلَا تَرِيمُ ^(٢)

والكظوم : الإمساك والسكوت ، كظم البعير يكظم كظوما ، إذا أمسك البعيرة ؛ وهو كاظم ، وإبل كظوم لا تجمت ، وقوم كظم ما كعون .

وتواخى الناس : صاروا إخوة ، والأصل تآخى الناس ، فأبدلت الهمزة ولوا ، كآزرتة أى أعتته ، ووازرتة .

يقول : اصطالحوا على الفحور ، وتهاجروا على الدين ، أى تعادوا وتقاطعوا .

فإن قلت : فإن من شعار الصالحين أن يهعروا فى الدين ويعادوا فيه ؛

(١) سورة الواقعة ٢

(٢) اللسان ١٥ : ١٧٦ ، وقال : « السيم الذى يربط من لحته ، فيعال بينه وبين ألافه ، ويظيد إذا حاج ، فيدعى حوالى الدار » .

قلت : لم يذهب أمير المؤمنين حيث ظننت ، وإنما أراد أن صاحب الدين مهجور
عندهم ، لأن صاحب الدين مهجور وصاحب الفجور جارٍ عندهم مجرى الأخ في الخلو عليه ؛
والحب له ، لأنه صاحب فجور .

ثم قال : « كان الولد فيضاً » ، أى لكثرة حقوق الأبناء للآباء ، « وصار الطريق فيضاً »
يقال إنه من علامات الساعة وأشراتها .

وأوسطه أكلًا ؛ أى طعامًا ، يقال : ما ذقتُ أكلًا ؛ وفى هذا للوضع إشكال ؛ لأنه
لم يُقبل هذا الحرف إلا فى الجمع خاصة ، كقولهم : ما بها صافر ، فالأجود الرواية الأخرى ؛
وهى « آكلًا » ببد الهزة على « أفعال » جمع أكل ؛ وهو مأكل ، كقفل وأفعال . وقد
روى « أكلًا » بضم الهزة على « فاعل » ؛ وقالوا : إنه جمع « أكل » للأكل كيرقى
وعراق ، وظئر وظئور ، إلا أنه شاذ عن القياس ، ووزن واحد ما يخالف لوزن واحد « أكل »
لو كان جمعا ، يقول : صار أوسط الناس طعمة للولاة وأصحاب السلاطين ، وكان قربة للأسد .
وفار للاء : سئل لتقصه ، وفاض : سئل .

وتشاجر الناس : تنازعوا وهى المشاجرة ، وشَجَرَيْنِ القوم ؛ إذا اختلف الأمر بينهم ،
واشتجروا ؛ مثل تشاجروا .

وصار الفسوق نسبا بصير الفاسق صديق الفاسق ؛ حتى يكون ذلك كالنصيب بينهم ؛
وحق بمعجب الناس من المفاف ؛ قلته وعلمه .

وليس الإسلام لبس القرو ؛ وللمرب عادة بذلك ؛ وهى أن تجعل التخلل إلى الجسد ؛
وتظهر الجلد ؛ وللرأى انعكاس الأحكام الإسلامية فى ذلك الزمان .

(١٠٨)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام :

كُلُّ شَيْءٍ خَائِضٌ لَهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ ؛ غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ ، وَهَزْ كُلِّ ذَلِيلٍ ،
وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَمَقْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ .
مَنْ تَسَكَّلَ تَمِيمَ نَطْقِهِ ، وَمَنْ سَكَّتْ عَلَيْهِ مِيرُهُ ، وَمَنْ حَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ ،
وَمَنْ مَاتَ قَالِيَهُ مُنْقَلَبُهُ .

لَمْ تَرَكَ الْيَمُونَ فَتَحْبِرْ عَنْكَ ؛ بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِينَ مِنْ خَلْقِكَ .
لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ ، وَلَا لِنَفْسَتِهِمْ لِمَنْفَعَةٍ ، وَلَا لِتَشِيقِكَ مَنْ طَلَبَتْ ،
وَلَا لِجِلَّتِكَ مَنْ أَخَذَتْ ، وَلَا لِتَقْصُرُ سُلْطَانُكَ مَنْ عَصَاكَ ، وَلَا لِزَيْدِي مُلْكِكَ مَنْ
أَطَاعَكَ ، وَلَا لِزُورِ أَمْرِكَ مَنْ سَخِطَ قِصَاكَ ، وَلَا لِتُسْتَعْنَى عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى مِنْ أَمْرِكَ .
كُلُّ مِيرٍ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ .

أَنْتَ الْأَبَدُ فَلَا أَمَدَ لَكَ ، وَأَنْتَ لِلنَّهْيِ فَلَا يَحْجِمُ عَنْكَ ، وَأَنْتَ لِلْوَعْدِ فَلَا مُنْجِي
مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ .

بِيَدِكَ مَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ .
سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنُكَ ؛ سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ أَوْ مَا أَصْفَرَ عَظِيمَتِهِ
فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ ؛ وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ ؛ وَمَا أَخْفَرَ ذَلِكَ فِيهَا غَابَ عَنَّا
مِنْ سُلْطَانِكَ ؛ وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا أَصْفَرَ مَا فِي نَهْمِ الْآخِرَةِ ؛

الْبَرْخُ :

قال : كل شيء خاضع لعظمة الله سبحانه ، وكل شيء قائم به ، وهذه هي صفة الخاصة ، أعني كونه غنيا عن كل شيء ، ولا شيء من الأشياء يفتى عنه أصلا .

ثم قال : « غني كل فقير ، وعز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف ، ومفرج كل ملهوف » .
جاء في الأثر : من اعتز بغير الله ذل ، ومن تكبر بغير الله قل ؛ وكان يقال : ليس فقيرا من استغنى بالله . وقال الحسن : واجبا لوط بن أبي الله ! قال : « لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » ^(١) ، أترأه أراد ركننا أشد وأقوى من الله !

واستدل العلماء على ثبوت الصانع سبحانه بما دل عليه أقوى قوله عليه السلام : « ومفرج كل ملهوف » ، وذلك أن النفوس يبدائها تفزع عند الشدائد والخطوب الطارئة إلى الالتجاء إلى خالقها وبارئها ، ألا ترى ^(٢) كيف الغيبة عند تلاطم الأمواج ، كيف يجأرون إليه سبحانه اضطرابا لا اختيارا ، فدل ذلك على أن العلم به يركز في النفس ؛ قال سبحانه : « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ مَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » ^(٣) .

ثم قال عليه السلام : « من تكلم بجميع نطقه ، ومن سكت علم سرته » ، يعني أنه يعلم ما ظهر وما بطن .

ثم قال : « ومن طاش فعله رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه » ، أي هو مدبر الدنيا والآخرة ، والحاكم فيهما .

ثم اعتزل عن الغيبة إلى الخطاب ، فقال « لم ترك القيون » .

(١) سورة هود ٨٠

(٢) سورة الإسراء ٩٧

[فصل في الكلام على الالتفات]

واعلم أن باب الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة باب كبير من أبواب علم البيان، وأكثر ما يقع ذلك إذا اشتدت عناية المتكلم بذلك المعنى المتصل إليه، كقوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ • الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ • مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فأخبر عن غائب، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قالوا: لأن منزلة الحمد دون صفة العبادة، فإنك تحمد نظيرك ولا تعبد، فجعل الحمد للغائب وجعل العبادة للحاضر يخاطب بالكاف؛ لأن كافي الخطاب أشد تصرُّحاً به سبحانه من الإخبار بلفظ الغيبة. قالوا: ولما انتهى إلى آخر السورة، قال: ﴿رِضًا لِلَّذِينَ أُتِمَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ فأسند النعمة إلى مخاطب حاضر، وقال في المصنف: ﴿غَيْرِ الْمُنْصُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، فأسند إلى فاعل غير مستحق ولا معين، وهو أحسن من أن يكون قال: «لم تنصب عليهم»، وفي النعمة: «الذين أتم عليهم».

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ فأخبر به «قالوا» عن غائبين، ثم قال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾^(١)، فأتى بلفظ الخطاب استمظاناً للأمر كالنكر على قوم حاضرين عنده.

ومن الانتقال عن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَخَرَّبَ مِنْهُمُ بِرِيحٌ مَظِيَّةٌ وَقَرَّحُوا بِهَا جَهَنَّمَ﴾ رَجَّحَ عَصِيفٌ...^(٢) الآية.

• • •

(١) سورة مريم ٨٨، ٨٩

(٢) سورة يونس ٢٢

وقائدة ذلك أنه صرف الكلام من خطاب الحاضرين إلى إخبار قوم آخرين بحالهم، كأنه يمدد على أولئك ذنوبهم ويشرح لهؤلاء بنيتهم وعنادهم الحق، ويقبح عندهم ما فعلوه، ويقول: ألا تعجبون من حالهم كيف همونا، فلما رحلناهم، واستجبنا دعاءهم، عادوا إلى بنيتهم! وهذه الفائدة لو كانت الآية كلها على صيغة خطاب الحاضر مفقودة.

•••

قال عليه السلام: ما رأيتك العيون فتعبر عنك، كما يخبر الإنسان عما شاهده؛ بل أنت أزلّ قديم موجود قبل الواصفين لك.

فإن قلت: فأى منافاة بين هذين الأمرين، أليس من الممكن أن يكون سبحانه قبل الواصفين له، ومع ذلك يدرك بالأبصار إذا خلق خلقه، ثم يصفونه رأى عين؟ قلت: بل هاهنا منافاة ظاهرة، (ذلك لأنه إذا كان قديماً لم يكن جسماً ولا عرضاً، وما ليس بحسم ولا عرض نستحيل رؤيته، فبستحيل أن يخبر عنه على سبيل الشاهدة. ثم ذكر عليه السلام أنه لم يخلق الخلق لاستيعاشه وتفرده، ولا استعملهم بالمادة لنفعه؛ وقد تقدم شرح هذا.

ثم قال: لا تطلب أحداً فيسبقك، أى يفوتك، ولا يفلتك من أخذته. فإن قلت: أى فائدة في قوله: «ولا يفلتك من أخذته»، لأن عدم الإفلات هو الأخذ، فكأنه قال: لا يفلتك من لم يفلتك؟ قلت: المراد أن مَنْ أخذت لا يستطيع أن يفلت، كما يستطيع المأخوذون مع ملوك الدنيا أن يفلتوا بحيلة من الحيل.

فإن قلت: أفلتَ فعل لازم، فما باله هذاه؟ قلت: تقدير الكلام: «لا يفلت منك» حذف حرف الجر، كما قالوا: «استجبتك» أى استجبت لك، قال:

• فلم يستجبه عند ذلك بحبيب^(١) •

وقالوا : استغفرت الله الذنوب ، أى من الذنوب ، وقال الشاعر :

استغفرُ الله ذنباً لست بحصية ربُّ المباد إليه الوجهُ والعملُ

قوله عليه السلام : « ولا يردُّ أمرُك من سخطِ قضاك ، ولا يستغنى عنك من تولي عن أمرِك » ، تحته سر عظيم ، وهو قول أصحابنا في جواب قول المجبرة : لو وقع منا مالا يريده لاقتضى ذلك نقصه : إنه لا نقص في ذلك ، لأنه لا يريد الطاعات منا إرادة قهر وإجاء ، ولو أرادها إرادة قهر لوقفت وغلث إرادته لإرادتنا ، ولكنه تعالى أراد منا أن فعل نحن الطاعة اختياراً ، فلا بدل عدم وقوعها منا على نقصه وضعفه ، كما لا يدل بالاتفاق بيننا وبينكم عدم وقوع ما أمر به على ضعفه ونقصه .

ثم قال عليه السلام : « كل سر عندك علانية » ، أى لا يختلف الحال عليه في الإحاطة بالجر والسر ، لأنه عالم لذاته وسببه ذاته إلى كل الأمور واحدة .

ثم قال : « أنت الأبد فلا أمْد لك » ، هذا كلام علوى شريف ، لا يفهمه إلا الراستخون في العلم ، وفيه سعة من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الدهر ، فإن الدهر هو الله » ؛ وفي مناجاة الحكماء لحة منه أيضاً ، وهو قولهم : « أنت الأزل السرمد ، وأنت الأبد الذي لا ينفد » ، بل قولهم : « أنت الأبد الذي لا ينفد » ، هو قوله : « أنت الأبد فلا أمْد لك » ، بمعنى ، ونحن نشرحه ها هنا على موضوع هذا الكتاب ، فإنه كتاب أدب لا كتاب نظر ، فنقول : إنه في العربية محبين : أحدهما أن المراد به : أنت ذو الأبد ، كما قالوا : رجل خالي ، أى ذو خالي ؛ والآخر الخيلاء ، ورجل داء ، أى به داء ، ورجل

(١) صدره :

• وداع دَعَا يَأْمَنُ بِحَبِيبٍ إِلَى النَّدَى •

أما الفاني ٢ : ١٥١ ، من قصيدة لسكب بن سعد النوى يرثي بها أبا اللوار .

حال ، أى فو مال . والحمل الثانى ، أنه لما كان الأزل والأبد لا يتفككان من وجوده سبحانه جملة عليه السلام ، كأنه أحدهما بعينه ، كقولهم : أنتِ الطلاق ؛ لما أراد البالغة فى اليتونة جعلها كأنها الطلاق نفسه ، ومنه قول الشاعر :

• فإِن لِلدَّيِّ رِيْحَةٌ فَرُّ كُوبٍ ^(١) •

وقال أبو الفتح فى "المشتقيات" : استدل أبو على على صرف « مَيِّ » للموضع الخصوص ، بأنه مصدر « مَيِّ مَيِّ » ، قال : قلت له : استدل بهذا على أنه مذكر ، لأن المصدر إلى التذكير افعال : نعم ، قلت : فما تنكر ألا يكون فيه دلالة عليه ، لأنه لا يسكر أن يكون مذكراً سمي به البقعة للوثنة ، فلا ينصرف ، كاسمارة سميتها بحجر وجبل وشيع ومي ، فقال : إنما ذهبت إلى ذلك ، لأنه جيل كأنه الصدر بعينه ، الكثرة ما يمانى فيه ذلك . قلت : الآن سم

()

ومن هذا الباب قوله :

• فإِنَّمَا مَيِّ إِبْتِئَالٌ وَإِدْبَارٌ ^(٢) •

وقوله :

• ومن من الإخلاف فلك والطلل •

وقوله : « فلا معنى منك إلا إليك » قد أخذه القرزنى فقال لماوية :

إليك فررتُ منك ومن زائد ولم أحسب دمي لكماً حلالاً ^(٣)

ثم استعظم واستهول حلقه الذى يراء ، وملكوته الذى يشاهده ، واستعصر واستعقر

(١) لطفة وسدره :

• تَرَادُّ قَلَى دِمَنِ الْخَبَاضِ فَإِن نَفَّ •

(٢) الخشاء ، ديوانها ٧٨ ، وسدره :

• تَرَزَّعُ مَا رَنَعَتْ حَتَّى إِذَا أَذْكَرَتْ •

(٣) ديوانه ٧ : ٦٠٨ .

ذلك ، بالإضافة إلى قدرته تعالى ، وإلى ما غاب عنا من سلطانه . ثم تعجب من سُبُوغ
نصه تعالى في الدنيا ، واستعصر ذلك بالنسبة إلى نعم الآخرة ، وهذا حق لأنه لا نسبة
للمتناهى إلى غير المتناهى .

الأصل :

منها :

مِنْ مَلَائِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَآوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ؛ هُمْ أَهْلُمْ خَلْقِكَ بِكَ،
وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ ؛ لَمْ يَسْكُنُوا الْأَصْلَابَ ، وَلَمْ يُصَلُّوا الْأَرْحَامَ ،
وَلَمْ يُخْلَقُوا مِنْ مَادَّةٍ قَبِيحٍ ، وَلَمْ يَنْشَبْنَهُمْ رَبُّ لِلنُّونِ ؛ وَإِنَّهُمْ عَلَى مَسَكِينِهِمْ مِنْكَ ،
وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ ؛ وَأَسْتَجِجْ أَعْوَانِهِمْ فِيكَ ؛ وَكَثْرَةُ طَاعَتِهِمْ لَكَ ، وَقِلَّةُ غَفْلَتِهِمْ
عَنْ أَمْرِكَ ؛ لَوْ عَابَتُوا كُنْهَ مَا خَفَى عَلَيْهِمْ مِنْكَ ؛ فَحَقُّوا أَعْمَالَهُمْ ؛ وَآزَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ،
وَلَمَّزُوا أَنْفُسَهُمْ لَمْ يَمُذُّوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ .

سُبْعَانِكَ خَالِقًا وَمُصْبُوحًا ؛ بِحُسْنِ بِلَائِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ خَافَتْ دَارًا ، وَجَعَلْتَ فِيهَا
مَادَّةً ، مَشْرَبًا وَمَطْعَمًا وَأَزْوَاجًا ، وَخَدَمًا وَقُصُورًا ، وَأَنْهَارًا وَزُرُوعًا وَبَنَارًا .

ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَائِمًا يَدْعُو إِلَيْهَا ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هِيَ أَجَابُوا ؛ وَلَا فَيَا رَغِبْتَ رَغْبًا ،
وَلَا إِلَى مَا شِئْتَ إِلَيْهِ أَشْتَقُوا . أَقْبَلُوا عَلَى حَيْفَةٍ قَدِ افْتَضَعُوا بِأَكْلِهَا ، وَأَصْطَلَحُوا
عَلَى حُبِّهَا ؛ وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَغْنَى بَصَرُهُ ، وَأَمْرَضَ قَلْبُهُ ؛ فَهُوَ ^(١) يَنْظُرُ بَيْنَ غَيْرِ
صَحِيحَةٍ ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيحَةٍ ؛ قَدْ خَرَقَتْ السَّمَوَاتُ عَقْلَهُ ، وَأَمَاتَتْ الدُّنْيَا قَلْبَهُ ،
وَوَلِيَتْ عَلَيْهَا نَفْسَهُ ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا وَلَيْسَ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا ؛ حَيْثَا زَالَ إِلَيْهَا ، وَحَيْثَا
أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا ؛ لَا يَنْزِلُ مِنْ أَهْلِ بَرٍّ أَجِيرٍ ، وَلَا يَتَعَبُّ مِنْهُ بِوَاعِظٍ ؛ وَهُوَ بَرٌّ أَلْمَاخُودِينَ

قَالِ الْغِيْرَةُ، حَيْثُ لَا إِقَالَةَ لَهُمْ وَلَا رَجْعَةَ؛ كَيْفَ تَزَلَّ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ
 أَهْلِيْهَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنْ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيَّرَ مَوْصُوفٍ
 مَا تَزَلَّ بِهِمْ، أَجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَزِعَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ،
 وَتَفَرَّتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ أَزْدَادَ لِلْوَتِّ فِيهِمْ وَلُجْأً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنَظَرِهِ؛
 وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ يَتَصَرَّهْ، وَبَسْمَعُ بِأَذْيِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَجَاهٍ مِنْ لُبِّهِ،
 يُفَكِّرُ فِيهِمْ أَفْقَى مُرَّةً، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرُهُ؛ وَبَنَدَ كَرُّ أَمْوَالٍ جَمْعَهَا أَغْصَنَ فِي
 مَطَالِيبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُسْتَتْبِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى
 فِرَاقِهَا، تَبَقَّى لِمَنْ قَرَاءَهُ يُنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ لِلنَّاسِ لِنَبِيِّهِ، وَالْعَيْبَةِ
 عَلَى ظَهْرِهِ، وَالْمَرَّةِ قَدْ غَلِقَتْ رُحُوهُ بِهَا، فَهُوَ بِبَصَرِ يَدِهِ نَدَامَةٌ عَلَى مَا أَصْعَرَ لَهُ عِنْدَ
 الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيهَا كَأَن يَرْغَبُ فِيهَا أَيَّامَ مُرِّهِ، وَبَتَقَى أَنَّ الَّذِي كَانَ
 بِمُضِطَّةِهَا وَيَحْتَدُّهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ، قَلَمَ يَرَى الْمَوْتَ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ؛ حَقٌّ
 خَالَطَ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطَلِقُ بِلِسَانِهِ؛ وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدُّ طَرَفُهُ
 بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ؛ يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ، ثُمَّ أَزْدَادَ
 الْمَوْتَ التَّيْمَاتُ بِهٍ، فَتَبَضَّ بَصَرُهُ كَمَا قَبَسَ سَمْعَهُ، وَخَرَجَتْ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ
 جِهَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحِشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ، لَا يُسَمِعُ بِأَكْبَارِهَا،
 وَلَا يُجِيبُ دَاعِيَا، ثُمَّ تَحَلَّوْهُ إِلَى تَحَطُّي فِي الْأَرْضِ، فَاسْأَلُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَأَنْقَطَعُوا
 عَنْ ذَوْرَتِهِ.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالْأَمْرُ مُقَادِيرُهُ، وَالْحَقُّ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ،
 وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءِ وَقَطَرَهَا، وَأَرْجَ الْأَرْضِ
 وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَ بَعْضَهَا نَمَصًا مِنْ هَيْبَةِ جَلَالَتِهِ، وَخَوَّفَ سَعْلَوِيَّتِهِ،
 وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا فَبَعْدَهُمْ بَعْدَ إِخْلَاقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْ

مَسَاكِينِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَهْوَالِ، وَخَفَايَا الْأَفْعَالِ وَجَعَلَهُمْ فَرِيْقَيْنِ: أُنْثَمَ عَلَى هَؤُلَاءِ دَوَّائِثَهُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ. فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَتَانَهُمْ بِجَوَارِهِ، وَخَلَدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لَا يَنْقُصُ النَّزَالُ، وَلَا تَقْصِيرُ يَوْمُ الْحَالِ، وَلَا تَنْوُسُهُمُ الْأَفْرَعُ، وَلَا تَنْقَالُهُمُ الْأَسْقَامُ، وَلَا تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ، وَلَا تُشْخِصُهُمُ الْأَسْفَارُ وَأَمَّا أَهْلُ لَهْوَ النَّفْسِ، فَأَتَزَكَّاهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الْأَيْدِي إِلَى الْأَعْنَاقِ، وَفَرَنَ النَّوَاصِي بِالْأَقْدَامِ، وَالْبَسَهُمْ سَرَائِيلَ الْقَطِرَانِ، وَتَقَطَّعَتِ النَّيِّرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدْ أَشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٌ قَدْ أَطْبَقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلْبٌ وَكَلْبٌ، وَأَهَبَّ سَاطِعٌ، وَقَصَبَتْ هَدِيلٌ، لَا يَطْمَنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يُفَادِي أُسِيرُهَا، وَلَا تُنْصَمُ كَبُولُهَا، لَا مُدَّةٌ لِلدَّارِ فَتَقَى، وَلَا أَجَلٌ لِلْقَوْمِ فَيَقْضَى.



البُزْجُ :

هذا موضع المثل . « في كل شجرة نار ، واستمجد المَرْخُ والعَفَارُ » ، الخطب الوضلية الحسان كثيرة ؛ ولكن هذا حديث بأكل الأحاديث :

محاسن أصناف المعين جنة وما قصبات السبق إلا لمجد

من أراد أن يتعلم الفصاحة والبلاغة ، ويعرف فصل الكلام بعضها على بعض ؛ فليتأمل هذه الخطبة ؛ فإن نسبتها إلى كل فصيح من الكلام - عدا كلام الله ورسوله - نسبة السكواك الليرة الفلكية إلى الحجارة المظلمة الأرضية ؛ ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء ، والجلالة والرواء ، والديباجة ، وما أحدثه من الروعة والرهبة ، والخفاقة والخشية ؛ حتى لو تأملت على زنديق ملحد مصمم على اعتقاد نفي البعث والنشور لهدت قواه ، وأرعبت قلبه ، وأضعفت على نفسه ، وزلزلت اعتقاده ؛ فخرى الله قائلها عن الإسلام أفضل

ما جرى به وليا من أولياته ! فما أبلغ نصرته ! تارة يده وسيفه ، وتارة بلسانه ونطقه ،
وتارة بقلبه وفكره ! إن قيل : جهاد وحرب فهو سيد المجاهدين والمحاربين ، وإن قيل :
وعظ وتذكير ؛ فهو أبلغ الواعظين والذكرين ، وإن قيل : فقه وتفسير فهو رئيس
الفقهاء والمفسرين ، وإن قيل : عدل وتوحيد ، فهو إمام أهل العدل والموحدين :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد^(١)

ثم نعود إلى الشرح ، فنقول : قوله عليه السلام : « أسكنهم سمواتك » ، لا يقتضي
أن جميع الملائكة في السموات ، فإنه قد ثبت أن الكرام الكائنين في الأرض ؛ وإنما
لم يقتض ذلك ؛ لأن قوله : « من ملائكة » ليس من صيغ الموم ؛ فإنه نكرة في
سياق الإثبات : وقد قيل أبدا : إن ملائكة الأرض نمرج إلى السماء ومكناها بها ،
ويتناوبون على أهل الأرض .

قوله : « هم أعلم خلقك بك » ، ليس يعني به أنهم يعلمون من ماهيته تعالى
ما لا يعلمه البشر ؛ أما على قول المتكلمين فلأن ذاته تعالى معلومة للبشر ، والعلم لا يقبل
الأشد والأضعف ، وأما على قول الحكماء ، فلأن ذاته تعالى غير معلومة للبشر
ولا للملائكة ؛ ويستحيل أن تكون معلومة لأحد منهم ؛ فلم يبق وجه يحتمل
عليه قوله عليه السلام : « هم أعلم خلقك بك » إلا أنهم يعلمون من تفاصيل مخلوقاته
وتدبيراته ما لا يعلمه غيرهم ؛ كما يقال : وزير الملك أعلم بالملك من الرعية ، ليس المراد أنه
أعلم بذاته وماهيته ، بل بأفعاله وتدبيره ومراده وغرضه .

قوله : « وأخوفهم لك » ؛ لأن قوتي الشهوة والغضب مرفوعتان عنهم ، وهما منبع

البشر ، وبهما يقع الطمع والإقدام على المعاصي . وأيضا فإن منهم من يشاهد الحنة والنار عيانا ، فيكون أخوف لأنه ليس الخبر كالمعاين .

قوله : « وأقرهم منك » لا يريد القرب المسكاني لأنه تعالى منزله عن المسكان والجملة ؛ بل المراد كثرة الثواب وزيادة التعظيم والتبجيل ؛ وهذا يدل على صحة مذهب أصحابنا في أن لللائكة أفضل من الأنبياء .

ثم نبه على مزبة لم تقتضي أفضلية حنيتهم على جنس البشر ؛ بمعنى الأشرافية ، لا بمعنى زيادة الثواب وهو قوله « لم يكتنوا الأصلاب ، ولم يضمنوا الأرحام ، ولم يخلقوا من ماء مهين ، ولم ينشئهم ريب للنون » ؛ وهذه خصائص أربع :

الأولى أنهم لم يكتنوا الأصلاب ؛ والبشر سكتوا الأصلاب ، ولا شبهة أن ما ارتفع عن محالطة الصورة اللحمية والدموية أشرف مما خالطها ومازجها .

والثانية أنهم لم يضمنوا الأرحام ؛ ولا شبهة أن من لم يخرج من ذلك الوضع المستقذر أشرف ممن خرج منه ؛ وكان أحد بن سهل بن هاشم بن الوليد بن كامكاو بن يزيد جرد بن شهریار ؛ ينحدر على أبناء الملوك بأنه لم يخرج من بطن امرأة ، لأن أمه ماتت وهي حامل به ، فشق بطنها عنه وأخرج ؛ قال أبو الريحان البيروني في كتاب " الآثار الباقية من القرون الخالية " من هذا الرجل : إنه كان بقيه على الناس ، وإذا شتم أحدا ، قال : ابن البضع ؛ قال أبو الريحان ؛ وأول من اتفق له ذلك الملك المعروف بأغسطس ملك الروم ، وهو أول من سمى فيهم قيصر ، لأن تفسير « قيصر » بلفظهم ، شق عنه ، وأيامه تاريخ ، كما أن أيام الإسكندر تاريخ لعظمه وجلالته عندم .

والثالثة أنهم لم يخلقوا من ماء مهين ، وقد نص القرآن العزيز على أنه مهين ؛ وكفى ذلك في تحقيره وضعته ؛ فهم لا يحاله أشرف ممن خلق منه ؛ لاسيما وقد ذهب كثير من العلماء إلى نجاسته .

والرابعة أنهم لا يتشبههم المنتية ، ولا ريب أن من لا تنطوي إليه الأسقام والأمراض ولا يموت ، أشرف ممن هو في كل ساعة ولحظة معرض مقام ، ويصدق موت وحمام .

•••

واعلم أن مسألة تفصيل لللائكة على الأنبياء لها صورتان : إحداهما أن « أفضل » بمعنى كونهم أكثر ثوابا ، والأخرى كونهم أصل بمعنى أشرف ؛ كما تقول : إن الملك أفضل من الأرض ، أي أن الجوهر الذي منه جسيمة الملك أشرف من الجوهر الذي منه جسيمة الأرض .

وهذه الزايا الأربع دالة على تفصيل لللائكة بهذا الاعتبار الثاني .

قوله عليه السلام : « يشتمهم ريب للنون » ، أي يتشتمهم ، والشتم : التفريق ، ومنه قيل للمنتية : شعوب ، لأنها تفرق الجماعات ، وريب للنون : حوادث المهر ، وأصل الريب : ملابسة الإنسان ، أي جاءه بما يكره ، وللقون الدهر نفسه ، والنون أيضا المنتية ، لأنها بمن المدة أي تقطعها ، والن : القطع ، ومنه قوله تعالى : « لَّهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » (١) . وقال لبيد :

• غَيْبٌ كَوَاسِبٌ لَا يَمْنُ طَمَاحُهَا •

ثم ذكر أنهم كثرة عبادتهم وإخلاصهم لو طابوا كونه ماخفي عليهم من الباري تعالى لحقروا أعمالهم . وزرؤا على أنفسهم ، أي طابوها : تقول زريت على فلان ، أي حبه وأزريت بخلان أي قصرت به .

(١) سورة فصلت ٨

(٢) سورة :

• لعنر قَهْدٌ تَنَازَعَ شِلْوُهُ •

لعنر : القدر : القدر في الضر ؛ وهو العراب . والقهد : الأيس . واليس : الدواب ، واليسة لون فيه عيبه بالنبذة ، وكواسب : تكسب المبد . وقوله : « ما يمن طامها » ، أي ما ينص . (المقاتل بصرح التبريزي ١٤٥) .

فإن قلت : ما هذا الكنه الذى خفى عن الملائكة ؛ حتى قال : « لو عاينوه لحقروا عبادتهم ، ولعلخوا أنهم قد قصرُوا فيها ؟ »

قلت : إن علوم الملائكة بالبارئ تعالى نظرية كعلوم البشر ، والعلوم النظرية دون العلوم الضرورية فى الجلاء والوضوح ، فأمر المؤمنين عليه السلام بقول : لو كانت علومهم بك وبصفاتك إثباتية والسلبية والإضافية ضرورية ، عوض علومهم هذه المتحققة الآن ؛ التى هى نظرية ولا نكشف لم ما ليس الآن على حد ذلك الكشف والوضوح . ولا شبهة أن العبادة والخدمة على قدر المعرفة بالمعبود ، فكأنما كان العابد به أعرف ، كانت عبادته له أعظم ، ولا شبهة أن العظيم عند الأعظم خفي .

فإن قلت : فما معنى قوله : « واستمعوا أهوائهم فيك » ، وهل للملائكة هوى ؟ وهل تستعمل الأهواء إلا فى الباطل ؟

قلت : الهوى : الحب وميل النفس ، وقد يكون فى باطل وحق ، وإعما يعمل على أحدهما بالقرينة ، والأهواء تستعمل فيهما ، ومعنى استمعوا أهوائهم فيه : أن دواعيهم إلى طاعته وخدمته لا تنارعها الصوارف ، وكانت مجتمعة مائلة إلى شق واحد .

فإن قلت : الباء فى قوله : « بحسن بلائك » بماذا تتعلق ؟

قلت : الباء هاهنا لتسهيل معنى الكلام ، كقوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ » (١) ، أى لأنهم ، فكأن متعلقة بمافى « سبحانه » من معنى الفعل ، أى أسبغك لحسن بلائك . ويجوز أن تتعلق بمعبود ، أى يعبد لك .

ثم قال : « خلقت داراً » أى الجنة . والمأدبة والمأدبة ، بفتح الهمزة وضمة : الطعام الذى يدعى الإنسان إليه ، أدب زيد القوم ، يأدبهم بالكسر ، أى دعاهم إلى طعامه ، والآدب الداعى إلى طعامه ، قال طرفة :

تَحْنُ فِي فِي الْمَشْتَاءِ تَذْعُو الْجَفَلِ لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ^(١)

وفي هذا الكلام دلالة على أن الجنة الآن مخلوقة ، وهو مذهب أكثر اصحابنا .

ومعنى قوله : « وزروعا » أى وغروسا من الشجر ، يقال : زرعت الشجر ، كما يقال :

زرعت البر والشعر ، ويجوز أن يقال : لزروع : جمع زرع وهو الإنبات ، يقال : زرعه الله

أى أبته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ * أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ

الزَّارِعُونَ^(٢) . ولو قال قائل : إن في الجنة زروعا من البر والقطنة^(٣) لم يبعد .

قوله : ثم أرسلت داعيا معنى الأنبياء . وأقبلوا على حبة ، يعنى الدنيا ، ومن كلام الحسن

رضي الله عنه : إنما ينهارشون على حبة .

وإلى قوله : « ومن عشق شيئا أعشى بعصر » نظر الشاعر فقال :

وَعَيْنُ الرَّحْمَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيَّةٌ كَأَنَّ عَيْنَ السَّحْطِ تَبْدَى لِلسَّوَا^(٤)

وقيل لحكيم : ما بال الناس لا يرون عيب أنفسهم ، كما يرون عيب غيرهم ؟ قال : إن

الإنسان عاشق لنفسه ، والماشق لا يرى عيوب المشوق .

قد حرقت الشهوات عقله ، أى أفسدته كما تخرق الثوب فيفسد .

وإلى قوله : « فهو عبدها ولن في يديه شيء » نظر ابن جرير ، فقال :

هَبِيدُ ذِي الْمَالِ وَإِنْ لَمْ يَطْمَعُوا مِنْ مَالِهِ فِي نَفْسِهِ نَشَى الصَّدَا

وَمِنْ أَمَلَتْ أَعْدَاءُ وَإِنْ شَارَكَهُمْ فِي أَعْدَاءِ وَحَوَى

(١) ديوانه ٦٨ . للشتاء : يبرد الشتاء والبرد ، والجفل : أن يمد بدعوته إلى طعام ولا يخلص أحدا والاكتفار ، أن يدعو النقي ، وهو أن يحصم ولا يحصم .

(٢) سورة الواقعة ٦٣ ، ٦٤

(٣) القطنة : ما سوى الحنطة والشعر والربيع والتمر ، القاموس .

(٤) لعبد الله بن معاوية : زهر الآداب ٨٥

وإلى قوله : « حينما زالت زال إليها ، وحينما أقبلت أقبل عليها » نظر الشاعر ، فقال :

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوما به اهلبوا

يمظّمون أخا الدنيا فإن وثبت يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا

والمرّة: الاغترار والمفلة ، والعار: العاقل ، وقد اضررت بالرجل ، واغتره زبد ما

أناه على غيرة منه ، ويجوران بمعنى بقوله : « لماخودين على المرّة » الحداثة والشبيبة ، يقول :
كان ذلك في غراتي وغرتي ، أي في حداثتي وصباي .

قوله : « سكرة الموت وحسرة الموت » ، أي الحسرة على ما فاتهم من الدنيا ولذاتها ،
والحسرة على ما فاتهم من التوبة والدم واستدراك فارط المعاصي .

والولوج : الدخول ، ولّج يلج .

قوله . « وبقاء من لئه » أي لئه بقى لم يندم ، وبرى « وقاء » بالنون ، والبقاء :
الذفافة ، أي لئه غير مضمور .

أغمض في مطالعها ، أي ناهل في دبه في اكتسابه إياها ، أي كان ينفى نفسه
بتأويلات ضمنية في استغلال تلك الطالب والمكاسب ، فذاك هو الإغماض ، قال تعالى :
« وَلَسَّمْ بِأَخْذِهِ إِلَّا أَنْ تُفِضُوا فِيهِ »^(١) ، ويمكن أن يحمل على وجه آخر ، وهو
أنه قد كان يحتال بحيل غامضة دقيقة في تلك الطالب حتى حصلها واكتسبها .

قوله عليه السلام : « وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها » ، أي من وجوه مباحة
وذوات شبهة ، وهذا يؤكد الحمل الأول في « أغمض » .

والقبمات : الآثام ، الواحدة تيمة ومثلها الثباعة ، قال :

لَمْ يَحْذَرُوا مِنْ رَبِّهِمْ سُوءَ الْمَوَاقِبِ وَالْجَبَاحِ (١)

واللهنا : المصدر من هنيء الطعام وهنؤ بالكسر والضم ، مثل قه وقه ، فإن كسرت قلت : « يهنا » ، وإن ضمنت قلت : « يهنؤ » ، والمصدر « هناة » و « هبنا » ، أى صار هيناً ، وهنأتى الطعام يهنؤنى ويهنئنى - ولا نظير له في الهموز - هنأ وهنأ ، وهنئت الطعام ، أى تهنأت به ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ (٢) .
والسب : الحل ، والجمع أهباء .

وغلق الرهن ، أى استغفقه للرهن ، وذلك إذا لم يفتكك في الوقت للشروط ، قال زهير :

وَفَارَقَكَ بِرَهْنٍ لَا فَكَاءَ لَهُ . يَوْمَ الْوَدَاعِ فَأَمْسَى الرَّهْنُ قَدْ غَلِقَا (٣)
فإن قلت : فامعنى قوله عليه السلام : « قلم غلقت رهونه بها » في هذا اللوح ؟ قلت : لما كان قد شارف الرحيل واشفق على الفراق ، وصارت تلك الأموال التي جمعها مستعقة لغيره ، ولم يبق له فيها تصرف ، أشبهت الرهن الذي غلق على صاحبه ، فخرج من كونه مستعقاً له ، وصار مستعقاً لغيره وهو الرهن .

وأصغر : انكشف ؛ وأصله الخروج إلى الصحراء والبروز من الكمن .
رجع كلامهم : ما يترجمونه بينهم (٤) من الكلام . ارداد اللوت الخياطة به ؛ أى التصاقا .
قد أوحشوا ، أى جعلوا مستوحشين ، والمستوحش : للهموم الفزع ؛ ويروى « أو حشوا من جانبته » ، أى خلواته وأقصرها ، تقول : قد أوحش للنزل من أهله ، أى أقصر .
وخلا إلى خط في الأرض ، أى إلى خط ، سماء خطاً أو خطاً لدرجته ؛ بمعنى اللحد ؛

(١) السان ٩ : ٢٨٥ ، وقيل :

أَكَلْتُ حَبِيفَةً رَبِّهَا رَمَنَ التَّقَمِّمِ وَالْجَبَاحَةِ

(٤) ساقطة من ب .

(٢) ديوانه ٢٣

(٣) سورة النساء ٤

ويروى : « إلى محط » بالحاء للهمة ؛ وهو النزل ، وحط القوم ، أى نزلوا .
والخلق آخرُ الخلق بأوله ؛ أى تساوى الكل في شمول اللوت والفتاء لهم ، فالتحق
الآخر بالأول .

أما السماء : حَرَ كَهَا ، ويروى : « أمار » ؛ والموران : الحركة . وفطرها : شقها . وأرج
الأرض : زلزلها ، تقول : رجّت الأرض ، وأرجتها الله ، ويجوز « رجها » ، وقد روى « رج
الأرض » بغير همزة ؛ وهو الأصح ، وعليه ورد القرآن : ﴿ كَلَّا إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ
رَجًّا ﴾ ^(١) .

أرجعها : جعلها راجفة أى مرندة متزلزة ، رجفت الأرض ، ترجف ، والرجفان :
الاضطراب الشديد ؛ وسمى البحر رجفا لاضطرابه ، قال الشاعر :

• حق نهب الشمس في الرجف •

ونسفها : قلعتها من أصولها . وذلك بمصها بعضا : صدمه ودقه حتى بكسره وبسوته
بالأرض ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَجِئْتَ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ قَدْ كُتِبَ دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ ^(٢) .
ميزم ، أى فصل بينهم ، فصلهم فريقيين : سعداء وأشتقاء ، ومنه قوله تعالى :
﴿ وَأَمْتَارُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ^(٣) ، أى انفصلوا من أهل الطاعة .

يظعن : يرحل . تنوهم الأفراع : تعاودهم ، ونرض لم الأخطار : جمع خطر ، وهو
ما يشرف به على الهلكة .

(١) سورة الواقعة ٤

(٢) لطرود بن كعب الخزاعي ، من أبيات يرث فيها عبد المطلب ؛ أوردها صاحب السان ١١ : ١٢
وابن هشام ١ : ١١٧ (على هامش الروس الألف) وسدره :

• اللَّطِيمُونَ اللَّحْمَ كُلَّ عَشِيَةٍ •

(٣) سورة الحاقة ١٤

(٤) سورة يس ٥٩ .

وتُشخصهم الأسفار : تخرجهم من منزل إلى منزل ، شخص الرجل وأشخصه غيره .
وغل الأيدي : جعلها في الأغلال ، جمع غل بالضم ؛ وهو القيد . والقيران : الهناء ،
قطرت البعير أي طليته بالقيران ، قل :

• كَمَا قَطَرَتْ لَهُنَّ الرَّجُلُ الطَّالِي ^(١) •

وبعير مقطور ؛ وهذا من الألفاظ القرآنية ، قال تعالى : ﴿ سَرَّائِلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ
وَتَفَشَّى وَجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ ^(٢) ؛ وللعنى أن النار إلى القيران سرية جدا .
ومقطعات النيران ، أي ثياب من النيران ، قد قطعت وفصلت لم ؛ وقيل : المقطعات :
قصار الثياب . والكلب : الشدة . والجلب والقجب : الصوت . والقصيف :
الصوت الشديد .

لا يُقَمِّمُ كِهولها : لا يكسر قهودها ، الواحد كبل .
ثم ذكر أن عذابهم سرمدي ، وأنه لا نهاية له ، ثمؤذ بالله من عذاب ساعة واحدة ،
فكيف من العذاب الأبدى !

[موازنة بين كلام الامام علي وخطب ابن نباتة]

ونحن نذكر في هذا اللوضع فصولا من خطب الخطيب الفاضل عبد الرحيم بن نباتة
رحمه الله ؛ وهو الفائز بمصبات السبق من الخطباء ؛ والناس غرام عظيم بخطبه وكلامه ؛
ليعامل الناظر كلام أمير المؤمنين عليه السلام في خطبه ومواعظه ؛ وكلام هذا الخطيب المتأخر

(١) لا يرى القيس ، ديوانه ٣٣ ، وصدره :

• أَبْقُنِي وَقَدْ شَمَعْتُ نَوَادِيهَا •

(٢) سورة ابراهيم ٥٠

الذي قد وقع الإجماع على خطابه وحسنها ، وأن مواضعه هي الغاية التي ليس بعدها غاية .
فن ذلك قوله :

« أيها الناس ! تجهزوا فقد ضرب فيكم بوق الرحيل ، وابرزوا فقد قربت لكم نوب
التعويل ، ودهموا التملك بخديج الأباطيل ، والركون إلى التسويف والتعليل ؛ فقد سمعتم
ما كثر الله عليكم من قصص أبناء القري ، وما وعظكم به من مصارع من سلف من
الورى ؛ مما لا يترض لورى البصائر فيه شك ولا مراء ؛ وأنتم معرضون عنه إعراضكم مما
يختلف ويختار ؛ حتى كأن ما تعلمون منها ضللت أحلام الكرى ، وأيدي الناي قد فطمت
من أعماركم أوثق الرما ، وهجست بكم على هول مطلع كربه القري ؛ فالتقري رحكم الله
عن حبال المطب القهري ، وانظروا مغاور الملكات بمواضع الشرى ، وقفوا على
أحداث المنزلين من شناخيب الذرا ، النجول يوازع أم حور كرى ، المشغولين بما
عليهم من الموت جرى ، واكثفوا عن الوجوه للنساء أطباق الزرى ، تجدوا ما بقى منها هجرة
لمن يرى . فرحم الله امرأ رحم نفسه فكاهها ، وجعل منها إليها مشتكاها ؛ قبل أن تعلق به
خطا حليف للنون ، وتصدق فيه أراجيف الظنون ، وتشرق عليه بمائها مقل الميون ؛ ويلحق
بمن دثر من القرون ، قبل أن يبدو على لناكب عمولا ، ويندو إلى محل المصاب متقولا ،
ويكون من الواجب مستولا ، وباقدوم على الطالب الغالب مشغولا . هناك يرفع الحجاب ،
ويوضع الكتاب ، وتقطع الأسباب ، وتذهب الأحباب ، ويمنع الإعتاب ، ويجمع من ق
عليه العقاب ، ومن وجب له الثواب ، فيضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة
وظاهره من قبله العذاب . »

فلينظر النصف هذا الكلام وما عليه من أثر التوليد ؛ أولا بالنسبة إلى ذلك الكلام
العربي المحض ، ثم لينظر فيها عليه من الكسل والرخاوة ، والفتور والبلادة ، حتى كأن ذلك

الكلام لعامر بن الطفيل^(١) مستثماً شيئاً^(٢) ، راكباً جواده ، وهذا الكلام للدلال
الديني^(٣) المحدث ، آخذاً زمارته ، متأسطاً دقة .

والمع ما في « بوق الرحيل » من السفسفة واللفظ العامي الثث . واعلم أنهم كلهم
هابوا على أبي الطيب قوله :

فإن كان بعضُ الناس سيفاً له رية فني الناس بوقات لها وطبول^(٤)
وقالوا : لا تدخل لفظة « بوق » في كلام بفتح أبدا .

والمع ما على قوله : « القهقري القهقري » متكررة من المجنة ، وأهجن منها
« أم حبو كرى »^(٥) . وأين هذا اللفظ الخوش الذي تفوح منه روائح الشبح
والقيصوم ؛ وكأنه من أعرابي قح قد قديم من نجد لا يفهم محاوراة أهل الحضرة ، ولا أهل
الحضرة يفهمون حواراه ؛ من هذه الخطبة التي ألفها التي تكاد أن تنتهي من لينها ،
وتتساقط من ضيقها !

ثم المع هذه الفقر والسجعات ، التي أرها « القهقري » ثم « الرا » ثم « يقري » ثم
« الكرى » إلى قوله : « عبرة لمن يرى » ، هل ترى تحت هذا الكلام معنى لطيفاً ،
أو مقصداً رشيقاً ؛ أو هل نجد اللفظ نفسه لفظاً جبرلاً فصيحاً ، أو هذا مسولاً وإتماماً
ألفاظ قد ضُمَّ بعضها إلى بعض ، والطائل تحتها قليل جداً . وتأمل لفظة « مرا » فإنها معدودة
في اللغة ، فإن كان قصرها فقد ركب ضرورة مستهجنة ، وإن أراد جمع « مرية » فقد خرج

(١) عامر بن الطفيل بن مالك بن جسر بن كلاب ، الحامري ، ابن عم لبيد ؛ أحد فرسان العرب
ونفاكهم . واطر أخباره في خزائن الأدب ١ : ٤٧٣ .

(٢) الفكة بالسكسر ؛ السلاح .

(٣) الدلال الديني ، واسمه ناقد ، وكنته أبو زيد ، كان من أهل المدينة ، وأخذ طرقات ثلاثة كانوا
بها : طويس ، والدلال ، وعب ، كان حب أندسهم ، والدلال أصغرهم ؛ واطر أخباره في الأغانى ؛
٢٦٩ - ٣٠١ .

(٤) ديوانه ٣ : ١٠٨ .

(٥) أم حوكري : من أسماء الباهية عديم

من الصناعة ، لأنه يكون قد عطف الجمع للفرد ، فيصير مثل قول القائل : « ما أخذت منه ديناراً ولا دراهم » ، في أنه ليس بالمتحسن في فن البيان .

ومن ذلك قوله :

« أيها الناس ، حصص الحق » ، فما من الحق مناص ، وأشخص الخلق ؛ فما لأحد من الخلق خلاص ، وأنتم على ما يواعدكم من الله حرامس ، ولكم على موارد الملكة اختصاص ؛ وفيكم عن مقاصد البركة احتكاس ؛ كأن ليس أمامكم جزاء ولا قصاص ، ولجوارح الموت في وحش نفوسكم اختصاص ؛ ليس بها عليها تأب ولا احتياص » .

فليتأمل أهل المعرفة بعم الفصاحة والبيان هذا الكلام بعين الإصاف ، يملوا أن سطرأ واحداً من كلام « نهج البلاغة » يساوي ألف سطر منه ، بل يزيد ويُرِي على ذلك ؛ فإن هذا الكلام ملق عليه آثام كُتِفَتْ وَهَجَةٌ ظَاهِرَةٌ ، يعرفها العالم فضلاً عن العالم .

ومن هذه الخطبية :

« هاجروا رحمكم الله وثبروا للرافد ، وادخروا طيب للكتيب تخلصوا من انتقاد الناقد ، واغتصموا فسحة للهل قبل انسداد للقاصد ، واقتصموا سُبُل الآخرة على قلة الرفاق والسامد » .

فهل يجد متصفح الكلام لهذا الفصل عُذوبة ، أو معنى يُمدح الكلام لأجله ؟ وهل هو إلا ألقاظ مضموم بعضها إلى بعض ، ليس لها حاصل ؛ كما قيل في شعر ذي الرمة : « برغلياء ونقط عروس »^(١) !

ومن ذلك قوله :

« فياه من واقع في كَرْب الحشارج ، مصارع لسكرات الموت معالج ا حتى دَرَج على تلك الدارج ، وقدم بصعيفته على ذي المارج » .

(١) من كلام جرير في وصف شعر ذي الرمة ، وانظر التوشيح للرزباني ١٧١ .

وغير خاف ما في هذا الكلام من التكلف .

ومن ذلك قوله :

« فكأنكم بمنادى الرحيل قد نادى في أهل الإقامة ، فاتجمعوا بالصغار بحجة القيامة ،
 يطول الأوائل منهم الأواخر ، وينشع الأكاير منهم الأصاغر ، ويلتحق العوامر من ديارهم
 بالفوامر ، حتى تبتلع جبينهم الحقر ولقابر » .
 فإن هذا الكلام ركيك جدا ، لوقاله خطيب من خطباء قرى السواد لم يستحسن
 منه ؛ بل ترك واسترذل .

ولعل عائباً يميم علينا فيقول : شرعتم في اللقابة والموازنة بين كلام أمير المؤمنين
 عليه السلام ، وبين كلام ابن نباتة ؛ وهل هذا إلا عنزة قول من يقول : السيف أمضى من
 العصا ؛ وفي هذه غصاصة على السيف !
 فنقول : إنه قد اشتملت كتب المتكلمين على اللقابة بين كلام الله تعالى وبين كلام
 البشر ، ليبينوا فضل القرآن وزيادة فصاحته على فصاحة كلام العرب ؛ نحو مقايستهم بين
 قوله تعالى : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ »^(١) وبين قول القائل : « القتل أتق للقتل »
 ونحو مقايستهم بين قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ »^(٢)
 وبين قول الشاعر :

فإن عرصوا بالشر فاصفح نكرما وإن كتبوا عنك الحديث فلا نسل

ونحو إبرادهم كلام مُسَبِّلة ، وأحمد بن سليمان المرسي ، وعبد الله بن المقفع ، فصلاً
 فصلاً ، والموازنة واللقابة بين ذلك وبين القرآن المجيد ، وإيضاح أنه لا يبلغ ذلك إلى درجة

(١) سورة البقرة ١٧٩

(٢) سورة الأعراف ١٩٩

القرآن العزيز ، ولا يقاربها ، فليس بمستغرب منا أن نذكر كلام ابن ثباتة في معرض إيرادنا كلام أمير المؤمنين عليه السلام لتظهر قضية كلامه عليه السلام ، بالنسبة إلى هذا الخطيب الفاضل ، الذي قد اتفق للناس على أنه أَوْحَدُ عصره في قته .

واعلم أننا لا نذكر فضل ابن ثباتة وحسن أكثر خطبه ، ولكن قوماً من أهل النصيحة والسناد ، يزعمون أن كلامه يساوى كلام أمير المؤمنين عليه السلام ويمثله ، وقد انتشر بعضهم في ذلك ، فأحببت أن أبين للناس في هذا الكتاب أنه لانسبة لكلامه إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وأنه بمنزلة شعر الأبله وابن المعلم بالإضافة إلى زهير والثابتة .



واعلم أن معرفة التصحيح والأفصح ، والرشيق والأرشق والخلو والأحلى ، والعالى والأعلى من الكلام أمر لا يدرك إلا بالتوق ؛ ولا يمكن إقامة الدلالة المنطقية عليه ؛ وهو بمنزلة جاريتين : إحداهما بيضاء مشربة حمرة دقيقة الشفتين ، نقية الثفر ، كحلاء العينين ، أسيلة الخلد ، دقيقة الأنف ، معتدلة القامة ، والأخرى دونها في هذه الصفات والحاسن ؛ لكنها أحلى في العيون والقلوب منها ، وأليق وأصلح ، ولا يدري لأي سبب كان ذلك ، ولكنه بالتدقيق والشاهدة يُعرف ، ولا يمكن تعليله ، وهكذا الكلام ؛ نعم يبقى الفرق بين اللوضعين . أن حسن الوجوه وملاحظتها وتفصيل بعضها على بعض يدركه كل من له عين صحيحة ، وأما الكلام فلا يعرفه إلا أهل الذوق ، وليس كل من اشتغل بالنحو واللمة أو بالفقه كان من أهل الذوق . ومن يصلح لانتقاد الكلام ؛ وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان ، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر ، وصارت لهم

بذلك دُرْبَةً وَمَلَكَةً تَامَةً ، فَإِلَى أَوْلَئِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَرْجِعَ فِي مَعْرِفَةِ الْكَلَامِ وَفَضْلِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ ، إِنْ كُنْتَ عَادِمًا لَذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ .

• • •

الْأَصْلُ :

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

قَدْ حَقَّرَ اللَّهُ نِيًّا وَصَغَّرَهَا ، وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ زَوَّاهَا عَنْهُ اخْتِيَارًا ، وَبَطَلَهَا لِبَيْرِهِ اخْتِقَارًا ، فَأَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ نِيًّا بِقَلْبِهِ ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ هَيْئِهِ ؛ لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاسًا ، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَامًا . بَلَغَ عَنْ رَبِّهِ مُنْذِرًا ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِرًا ، وَدَهَا إِلَى الْجَنَّةِ مَبْشَرًا ، وَخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحْذِرًا .

• • •

الْمَبْنِي :

قَتَلَ ، مَشَدَّدٌ ، لِلتَّكْثِيرِ ، « قَتَلْتُ » أَكْثَرُ مِنْ « قَتَلْتُ » ؛ فَيَقْتَضِي قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « قَدْ حَقَّرَ اللَّهُ نِيًّا » زِيَادَةَ تَحْقِيرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَهَا ، وَذَلِكَ أُبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَتَهْرِيفِهِ .

قَوْلُهُ : « وَصَغَّرَهَا » ، أَيْ وَصَغَّرَهَا عَنْدَ غَيْرِهِ ، لِيَكُونَ قَوْلُهُ : « وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا » مُطَابِقًا لَهُ ، أَيْ أَهْوَنَ هُوَ بِهَا وَهَوَّنَهَا عَنْدَ غَيْرِهِ .

وَزَوَّاهَا : قَبَضَهَا ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « زُوِّبْتُ لِي الْأَرْضُ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا » .

وَقَوْلُهُ : « اخْتِيَارًا » ، أَيْ قَبَضَ اللَّهُ نِيًّا عَنْهُ بِاخْتِيَارٍ وَرِضًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِذَلِكَ ، وَعَلِمَ بِمَا فِيهِ مِنْ رَفْعَةٍ قَدَرَهُ ، وَمَنْزِلَةٍ فِي الْآخِرَةِ .

والرياش والريش بمعنى ، وهو اللباس الفاخر كالحرير والحرام واللبس واللباس ،
وقرى : ﴿ وَرِيَاشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ حَيْرٌ ﴾ ^(١) ويقال : الريش والرياش : اللال
والخشب والعاش ، وارتاش فلان : حسنت حاله . ومعدرا ، أى مهالما ، أعذر فلان في
الأمر ، أى بالغ فيه .

الأصل :

نَحْنُ شَجَرَةُ النَّبُوَّةِ ، وَحَطَّ الرِّسَالَةِ ، وَخُتِفَ الْمَلَائِكَةُ ، وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ ، وَيَتَابِعُ
الْحُكْمِ ؛ نَامِرُهَا وَحَبِيبُهَا يَفْتَقِرُ الرَّحْمَةَ ، وَعَدُوُّهَا وَمُبْغِضُهَا يَفْتَقِرُ السَّطْوَةَ .



الشرح :

هذا الكلام غير ملتصق بالأول كل الالتصاق ، وهو من النمط الذي ذكرناه مراراً ؛
لأن الرضى رحمه الله يقتضب فصلاً من حطبة طويلة ، فيوردها إيراداً واحداً ، وبعضها
منقطع عن البعض .

نقوله عليه السلام : « نحن شجرة النبوة » ، كأنه جعل النبوة كشجرة أخرجتها
شجرة بنى هاشم . وحطَّ الرسالة : منزلها . وخُتِفَ للملائكة : موضع اختلافها في صعودها
ونزولها ، وإلى هذا المعنى نظر بعض الطالبين فقال : يفخر على بنى عم له ليسوا
بهاطلين :

هل كان يعتمد البراق أبوهم أم كان جبريل عليه يُنزِّلُ
أم هل يقول له الإله مُشافهاً بالوحي : قم بأيتها للزمل

(١) سورة الأعراف ٢٦ وهي قراءة عامم ، وطر تفسير القرطبي ٧ : ١٨٤ .

وقال آخر يمدح قوما فاطمين :

وبطرقه الوحي وهنا وأنتم ضجيمان بين يدي جبرئيل

يعني حسنا عليه السلام وحسينا عليه السلام .

واعلم أنه إن أراد بقوله : « عن مختلف لللائكة » جماعة من جملته رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلا ريب في صحة القضية وصدقها ، وإن أراد بها نفسه وابنته فهي أيضا صحيحة ؛ ولكن مدلوله مستنبط ، فقد جاء في الأحبار الصحيحة ، أنه قال . « يا جبريل ، إنه متى وأنا منه » ، فقال جبريل : وأنا منك . وروى أبو أيوب الأنصاري مرفوعا : « لقد صلت لللائكة علي وعلى سبع سنين لم تصل علي ثالث لنا » ؛ وذلك قبل أن يظهر أمر الإسلام ويتسمع الناس به .

وفي خطبة الحسن بن علي عليه السلام لما قبض أبوه : « لقد فارقت في هذه الليلة رجلا لم يسبقه الأولون ، ولا يدره الآخرون ، كان يمشي رسول الله صلى الله عليه وآله للعرب وجبريل من يمينه وميكائيل من يساره » .

وجاء في الحديث أنه سُمع يوم أحد صوت من الهواء من جهة السماء ، يقول : « لاسيف إلا فو الفقار ، ولا قى إلا علي » ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « هذا صوت جبريل » .

فأما قوله : « وسادن العلم ، وينابيع الحكم » يعني الحكمة أو الحكم الشرعي ، فإنه وإن عني بها نفسه وخصته ، فإن الأمر فيها ظاهر جدا ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » ، فمن أراد المدينة فليأت الباب » ، وقال : « أقضاكم علي » والقضاء أمر يستلزم علوما كثيرة .

وجاء في الخبر أنه بعث إلى اليمن قاضيا ، فقال : يا رسول الله ، إنهم كهول وذوؤأسنان

وأنا فتى، وربما لم أصبُ فيما أحكم به بينهم، فقال له : « اذهب فإن الله سيثبت قلبك ويهدي لسانك » .

وجاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَنَبِيَهَا أَيْدُنْ وَاعِيَةٌ ﴾ ^(١) : سألت الله أن يجعلها أذنك ففعل . وجاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ^(٢) أنها أنزلت في عليّ عليه السلام وما خص به من العلم . وجاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَنُكَانَ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلَوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ^(٣) : أن الشاهد عليّ عليه السلام .

وروى المحدثون أنه قال لقاطمة : « زوّجتك أقدّمهم سيّما ، وأعظمهم حِلماً ، وأعظمهم علماً » . وروى المحدثون أيضاً عنه عليه السلام أنه قال : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى نُوْحٍ فِي هَزْمِهِ ، وَمُوسَىٰ فِي عِلْمِهِ ، وَعِيسَىٰ فِي وَرَعِهِ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ » .

وبالجملة فخاله في العلم حال رفيعه جداً لم يلحقه أحد فيها ولا قاربه . وحقّ له أن يصف نفسه بأنه سادن العلم وينابيع الحكم ، فلا أحد أحقّ بها منه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله .

فإن قلت : كيف قال : « عدونا ومبغضنا ينتظر السطوة » ، ونحن نشاهد أعداءه ومبغضيه ، لا ينتظرونها !

قلت : لما كانت منتظرة لهم ومطلومايقين حلولها بهم ، صاروا كالتعطين لها . وأيضاً فإنهم ينتظرون الموت لأهالة الذي كلّ إنسان ينتظره ؛ ولما كان الموت مقدّمة العقاب وطريقاً إليه جعل انتظاره انتظار ما يكون بعده .

(١) سورة الحاقة ١٢

(٢) سورة النساء ٥٤

(٣) سورة هود ١٧

(١٠٩)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ،
وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الْإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ ؛ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ ، وَإِقَامُ
الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا أَلَمَّةٌ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيصَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ
جَنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ ، وَحَجُّ الْبَيْتِ وَأَعْتِمَارُهُ ، فَإِنَّهُمَا بَنَفَيَانِ الْفَقْرِ وَبِرَحْصَانِ الذَّنْبِ ،
وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثَرَةٌ فِي الْمَالِ وَمَنْفَعَةٌ فِي الْأَحْلِ ، وَصَدَقَةُ السَّرِّ فَإِنَّهَا تُكْمِرُ
الْغُلُوبَةَ ، وَصَدَقَةُ الْعَلَامِيَةِ فَإِنَّهَا تَذْقَعُ مَيْتَةَ السُّوءِ ، وَصَنَائِعُ الْمُرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي
مَصَارِعَ الْهَوَانِ .

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ وَأَرْغَبُهَا فِيهَا وَعَدَدُ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ
أَصْدَقُ الْوَعْدِ ؛ وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ ، وَأَسْتَنْوُوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا
أَهْدَى السُّنَنِ ، وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ
الْقُلُوبِ ، وَأَسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِعَاءُ الصُّدُورِ ، وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْقَصَصِ .
وَأَنَّ الْعَالِمَ الْعَامِلَ يَمِيرُ عَلَيْهِ كَالْجَاهِلِ الْخَائِرِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ ؛ بَلِ الْحُجَّةُ
عَلَيْهِ أَكْثَرُ وَالْحُسْرَةُ لَهُ أَكْثَرُ ؛ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ الْيَوْمَ .

• • •

الشرح :

ذَكَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَمَانِيَةَ أَشْيَاءَ ، كُلُّهَا مُبْتَغَى وَاجِبٌ .

أولها : الإيمان بالله ورسوله ، وبمعنى بالإيمان هاهنا مجرد التصديق بالقلب ، مع قطع النظر عما عدّا ذلك من التلفظ بالشهادة ، ومن الأعمال الواجبة ، وترك القبائح . وقد ذهب إلى أن ماهية الإيمان هو مجرد التصديق القلبي جماعة من المتكلمين ؛ وهو وإن لم يكن مذهب أصحابنا ، فإن لم أن يقولوا : إن أمير المؤمنين عليه السلام جاء بهذا اللفظ على أصل الوضع القنوي ؛ لأن الإيمان في أصل المعنى التصديق ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ ^(١) ، أى لست بمصدق لنا ؛ لأن كنا صادقين ، ولأن كنا كاذبين . وحيث عليه السلام به على أصل الوضع القنوي لا يمتثل مذهباً في معنى الإيمان ؛ لأننا نذهب إلى أن الشرع استحدث هذه اللفظة معنى ثانياً ، كأنذهب إلى معنى الصلاة والزكاة وغيرها ، فلا منافاة إذاً بين مذهبنا وبين ما أطلقه عليه السلام .

وثانيها : الجهاد في سبيل الله ، وإنما قدمه على التلفظ بكلمتي الشهادة ، لأنه من باب دفع الضرر عن النفس ، ودفع الضرر عن النفس مقدم على سائر الأعمال المتعلقة بالجوارح . والتلفظ بكلمتي الشهادة من أعمال الجوارح ؛ وإنما أخره من الإيمان ، لأن الإيمان من أفعال القلوب ؛ فهو خارج عما يقدم عليه ، ودفع الضرر من الأفعال المختصة بالجوارح ، وأيضاً فإن الإيمان أصل الجهاد ، لأنه ما لم يعلم الإنسان على ماذا يجاهد لا يجاهد ، وإعماله ذروة الإسلام ، أى أهله ، لأنه ما لم تحصن دار الإسلام بالجهاد لا يمكن المسلمون من القيام بوظائف الإسلام ؛ فكان إذاً من الإسلام بمنزلة الرأس من البدن .

وثالثها : كلمة الإخلاص ؛ يعنى شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله ، قال : فإنها الفطرة ؛ يعنى هي التي فطر الناس عليها ؛ والأصل للكلمة الأولى لأنها التوحيد ، وعليها فطر البشر كلهم ، والكلمة الثانية تبع لها فأجريت مجراها ، وإعلاخورت

هذه الخصلة عن الجهاد ، لأن الجهاد كان هو السبب في إظهار الناس لها ونطقهم بها ؛ فصار كالأصل بالنسبة إليها .

ورابعها إقام الصلاة أي إدامتها ، والأصل « أقام إقواما » ، فحذفوا عين الفعل ، وتارة يموتضون عن العين للفتوحة هاء ، فيقولون : « إقامة » . قال : فإنها لله ، وهذا مثل قول النبي صلى الله عليه وآله : « الصلاة عماد الدين ، فمن تركها فقد هدم الدين » . وخامسها إيتاء الزكاة ، وإنما أخرها عن الصلاة لأن الصلاة أكد اقتراضا منها ؛ وإنما قل في الزكاة « فإنها فريضة واجبة » ، لأن الفريضة لفظ يطلق على الجزء المتيقن للمقدر في السائمة ، باعتبار غير الاعتبار الذي يطلق به على صلاة الظاهر لفظ الفريضة ؛ والاعتبار الأول من القطع ، والثاني من الوجوب ، وقال : فإنها فريضة واجبة ؛ مثل أن يقول : فإنها شيء مقطوع من المال موصوف بالوجوب .

وسادسها صوم شهر رمضان ؛ وهو أضف وجوباً من الزكاة ، وجعله جنة من العقاب ، أي ستره .

وسابعها الحج والعمرة ، وهما دون فريضة الصوم ، وقال : إنها ينفيان الفقر ، ويرتحيان الذنب ، أي يسئلانه ؛ رخصت الثوب ، وثوب رخيص . وهذا الكلام يدل على وجوب العمرة ؛ وقد ذهب إليه كثير من الفقهاء العلماء .

وثامنها صيلة الرحم وهي واجبة ، وقطيعة الرحم محرمة ، قال : فإنها مثناة في المال ، أي تثرى وتسكره .

ومنساء في الأجل ، أي تنسؤه وتؤخره ، ويغال : نسأ الله في أجلك . ويجوز أنساء بالهمزة .

فإن قلت : فما الحجة على تقديم وجوب الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصوم ، ثم الحج ؟

قلت : أما الصلاة ، فلأن تاركها يقتل ، وإن لم يجحد وجوبها ، وغيرها ليس كذلك ؛ وإنما قدمت الزكاة على الصوم لأن الله تعالى قرنها بالصلاة في كثير من الكتاب العزيز ، ولم يذكر صوم شهر رمضان إلا في موضع واحد ، وكثرة تأكيد الشيء وذكره دليل على أنه أمم ، وإنما قدم الصوم على الحج ، لأنه يتكرر وجوبه ، والحج لا يجب في العمر إلا مرة واحدة ، فدل على أنه أمم عند الشارع من الحج .

ثم قال عليه السلام : « وصدقة السر » ، فخرج من الواجبات إلى النوافل . قال : « فإنها تكفر الخطيئة » ، والتكفير هو إسقاط عقاب مستحق بثواب أزيد منه أو توبة وأصله في اللغة الستر والتغطية ، ومنه الكافر ؛ لأنه يغطي الحق ، وسمى البحر كافرا لتغطيته ما تحته ، وسمى الفلاح كافرا لأنه يغطي الحب في الأرض المحروقة .

ثم قال : « وصدقة الملاية » ، فإنها تدفع كهيئة السوء كالرق والمدم وغيرها . قال : « وصنائع المروءة » ، فإنها تنقي مصارع الهوان « كأشر الروم للعسل ، أو كأخذ الظلمة لمير المستحق للأخذ .

ثم شرع في وصايا أخر عددها . والهدى : السيرة ، وفي الحديث : « واهدوا هدى عمار » ، يقال : هدى فلان هدى فلان ، أى سار سيرته .

وسمى القرآن حديثا لأنها لقول الله تعالى : « نَزَّلَ أَحْسَنَ الْخَبِيرِ كِتَابًا مُنَشَّأً » ^(١) ؛ واستدل أصحابنا بالآية على أنه محدث ، لأنه لا فرق بين حديث ومحدث في اللغة . فإن قالوا : إنما أراد أحسن الكلام ، قلنا : لمصرى إنه كذلك ، ولكنه لا يطلق على الكلام القديم لفظة حديث ؛ لأنه إنما سمي الكلام والمحاورة والمخاطبة حديثا ؛ لأنه أمر يتعدد حالا غالا ، والقديم ليس كذلك .

ثم قال : « تفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب » ؛ من هذا أخذ ابن عباس قوله : « إذا قرأت آية حم ، وقعت في روحة ديثات » .

ثم قال : « فإنه شفاء الصدور » ، وهذا من الألفاظ القرآنية^(١) .
ثم ساء قصصا ، اتباعا لما ورد في القرآن من قوله : ﴿ تَحْنُ نَحْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾^(٢) .

ثم ذكر أن العالم الذي لا يصل بعله كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله .
ثم قال : « بل الحجة عليه أعظم » ، لأنه يعلم الحق ولا يصل به ، فالحجة عليه أعظم من الحجة على الجاهل ، وإن كانا جميعا محجوجين ، أما أحدهما فيعلمه ، وأما الآخر فجهلته من أن يعلم .

ثم قال : « والحسرة له أزم » ، لأنه عند الموت يتأسف ألا يكون عاِلا بما علم ، والجاهل لا يتأسف ذلك الأسف .
ثم قال : « وهو عند الله أوم » ، أى أحق أن يلام ، لأن المتكبر عالم بالقوة ، وهذا عالم بالقول ، فاستحقاقه اللوم والمقاب أشد .

(١) وهو قوله تعالى في سورة يونس ٥٧ : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ .

(٢) سورة يوسف ٣

(110)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأفضل:

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ أَعْدِرُكُمْ أَهْلَ نَبَا ، فَلَهَا حُلُوةٌ خَيْرَةٌ ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، وَتَحَبَّبَتْ
بِالْمَاجِلَةِ ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ ، وَتَحَلَّتْ بِالْأَمَلِ ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْمُرُورِ . لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا ،
وَلَا تُؤْمِنُ فَبَجَعَتْهَا . خَرَارَةٌ ضَرَارَةٌ ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ ، نَافِذَةٌ بَائِدَةٌ ، أَكَّالَةٌ خَوَالَةٌ ،
لَا تَدُومُ . إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أَمْنِيَةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرَّضَاءِ بِهَا . أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَخَلَّتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ
الْرياحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۝ (١) ۝

لَمْ يَكُنْ أَمْرٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلَّا أَغْطَاهَا حَبْرَةٌ، وَلَمْ يَلْقَ مِنْ صَرَائِهَا بَعْلًا،
إِلَّا مَنَعَتْهُ مِنْ صَرَائِهَا ظَهْرًا؛ وَلَمْ تَطْلُ فِيهَا دَيْعَةً وَخَاءً، إِلَّا هَتَفَتْ عَلَيْهِ مُرَّةً بَلَاءً.
وَحَرَىٰ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُتَقَرِّبَةٌ، أَنْ تُنِيبَ لَهُ مُتَكَرِّرَةٌ، وَإِنْ جَارِبٌ مِنْهَا
أَعْدُوْبٌ وَأَحْلَوِي، أَمْرٌ مِنْهَا جَارِبٌ قَاوِي ۝ ۱

لَا يَنَالُ أَمْرُوهُنَّ مِنْ خَضَارِثِهَا رَفْعًا ، إِلَّا أَرْهَقَتْهُنَّ مِنْ نَوَائِبِهَا نَقَبًا ، وَلَا يَمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ ؛ إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ .
غَرَارَةٌ ؛ غُرُورٌ مَا فِيهَا ، فَائِيَةٌ ؛ فَإِنْ مِنْ عَلَيْهَا ، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَاجِهَا إِلَّا التَّحَوُّي .

مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرُ بِمَا بُؤِثَتْهُ ، وَمَنْ اسْتَكْثَرُ مِنْهَا اسْتَكْثَرُ بِمَا بُؤِثَتْهُ ،
وَزَالَ عَمَّا كَيْلِيلِ عَنَّةُ .

كَمْ مِنْ وَارِثٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ ، وَذِي طُلُأٍ بِنَدٍ قَدْ مَرَعَتْهُ ، وَذِي أَبْنَةٍ قَدْ جَمَلَتْهُ
حَقِيرًا ؛ وَذِي تَحْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا

سُلْطَانَهَا دَوْلُ ، وَعَيْشُهَا رَيْقُ ، وَعَذْبُهَا أَجَاجُ ، وَحُلُوهَا صَبْرُ ، وَغِذْوُهَا حِمَامُ ،
وَأَسْبَابُهَا رِمَامُ . حَيْثَا يَمْرُضُ مَوْتُ ، وَصَحْبُهَا يَمْرُضُ سَمُ . مُلْكُهَا مَسْلُوبُ ،
وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبُ ، وَمَوْفُورُهَا مَسْكُوبُ ، وَجَارُهَا تَحْرُوبُ .

أَلَسُمْ فِي مَسَاكِينٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَارًا ، وَأَبْنَى آثَارًا ، وَأَبْنَدَ أَمَالًا ،
وَأَعَدَّ عَدِيدًا ، وَأَكْتَفَ جُنُودًا انْصَبُّوا إِلَيْنَا أَيْ نَسْبُدْ ، وَأَنْزُرُوا أَيْ إِنْشَارُ ، ثُمَّ
ظَلَمُوا عَنْهَا بِمَقَرٍّ زَادَ مُبْلَغُ ، وَلَا ظَهَرَ قَاطِعُ . قَدْ بَلَغَكُمْ أَنَّ إِلَيْنَا سَخَتْ لَهُمْ
نَفْسًا بِخِدْيَةٍ ، وَأَعَاثَهُمْ بِمَوْتَةٍ ، أَوْ أَحْسَنْتَ لَهُمْ صَعْبَةً أَيْ بَلْ أَرْهَقْتَهُمْ بِالْقَوَارِجِ ،
وَأَوْهَقْتَهُمْ بِالْقَوَارِجِ ، وَضَمَضْتَهُمْ بِالتَّوَارِثِ ، وَهَفَرْتَهُمْ بِالنَّاخِرِ ، وَوَمِطْتَهُمْ بِالنَّاسِمْ ،
وَأَعَاثَتْ عَلَيْهِمْ رَبِّبُ الْمُنُونِ . قَدْ رَأَيْتُمْ تَفَكَّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا ، وَأَثَرَهَا وَأَخْلَدَ
إِلَيْهَا ، حِينَ ظَلَمُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبْدِ .

وَهَلْ زَوَّدْتَهُمْ إِلَّا السَّفْبَ ، أَوْ أَحْسَنْتَهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ ، أَوْ نَوَّرْتَ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ ،
أَوْ أَهَقَبْتَهُمْ إِلَّا الدَّمَامَةَ

أَفْهَيْدُ تَوَارِثُونَ ؛ أَمْ إِلَيْنَا تَعْلَمُونَ ، أَمْ عَادِيهَا تَحْرِصُونَ ؛
فَبِئْسَتْ إِلَهًا زِلْمَنُ لَمْ يَتَّهِمَهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا قَلْبٌ وَجَلَّ مِنْهَا ؛
فَاعْمَلُوا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنْكُمْ تَارِكُوهَا ، وَطَاعِنُونَ عَمَّا . وَأَنْظُرُوا فِيهَا بِالْأَذِينِ
قَالُوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِثَا قُوَّةٍ ﴾ ^(١) ، حُجِّلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا ، وَأَنْزُرُوا

الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعُونَ ضِيْفَانًا ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّنِيعِ أُجْنَانٌ ، وَمِنَ الدَّرَاسِ اسْتَفَانٌ ،
وَمِنَ الرِّفَافَةِ جِيرَانٌ . فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُحِبُّونَ دَاعِيَا ؛ وَلَا يَمْنَعُونَ ضِيَا ، وَلَا يُبَالُونَ
مَنْذَبَةً . إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ فُحِطُوا لَمْ يَهْتَطُوا ، جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ ، وَجِيرَةٌ
وَهُمْ أَبْقَادٌ ، مُتَدَانُونَ لَا يَتَزَاوَرُونَ ، وَفَرِيضُونَ لَا يَتَفَكَّرُونَ .

حُلُمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْمَانُهُمْ ، وَجَهْلَاءٌ قَدْ مَاتَتْ أَفْقَادُهُمْ ؛ لَا يُحْشَى فَجَعُهُمْ ؛
وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ . اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنًا ، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا ، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً ،
وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً ، فَجَاءَهَا كَمَا فَارَتْهَا ، حُمَاةٌ مُرَاةٌ قَدْ ظَلَمَتُوا عَيْنَهَا بِأَعْمَالِهِمْ ، إِلَى
الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ ، وَالْآرِ الْبَاقِيَةِ ، كَمَا قَالَ سُبْعَانَةُ وَتَمَالَى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُبْدُءُهُ
وَهَذَا عَشْرًا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ^(١) .



الْبَرْخ :

خَيْضَرَةٌ ، أَيْ نَاضِرَةٌ ، وَهَذِهِ اللفظة من الألفاظ النبوية ، قال النبي صلى الله عليه وآله :
« إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَيْضَرَةٌ ، وَإِنْ اللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ فِيهَا ، فَنَافِعَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ! » .
وَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، كَأَنَّ الشَّهَوَاتِ مُسْتَدِيرَةٌ حَوْلَهَا ، كَمَا يَحِفُّ الْمَوْجُ بِالنِّيَابِ ،
وَحَفَّتْ حَوْلَهُ يَحْفُونَ حَفًّا : أَطَافُوا بِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ
حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ ^(٢) .

قوله : « وَنَحَبَّتْ بِالْعَاجِلَةِ » ، أَيْ نَحَبَّتْ إِلَى النَّاسِ بِكُونِهَا لَذَّةً عَاجِلَةً ، وَالنُّفُوسُ مَفْرَمَةٌ
مَوْالَةٍ بِحُبِّ الْعَاجِلِ ، لِحَذَفِ الْجَارِ وَالْجُرُورِ الْقَائِمِ مَقَامَ الْقَمُولِ .
قوله : « وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ » ، أَيْ أَهْبَتْ أَهْلَهَا ؛ وَإِنَّمَا أَهْبَتُهُمْ بِأَمْرِ قَلِيلٍ لَيْسَ بِدَائِمٍ .

(١) سورة الأنبياء ١٠٤

(٢) سورة الزمر ٧٥

قوله : « ونحلت بالآمال » من الحنية ، أى تزيت عند أهلها بما يؤملون منها .

قوله : « وتزيت بالفرور » ، أى تزيت عند الناس بفرور لاحقيقة له .

والخبرة : السرور . وحالة : متغيرة . وناعمة : فانية . وبائدة : منفضية . وأكالة :

قتالة ، وغوالة : مهلكة . والنول : ماغال ، أى أهلك ؛ ومنه المثل : « المصب عول الحلم » .

ثم قال : إنها إذا تنامت إلى أمنية ذوى الرغبات فيها لا تتجاوز أن تكون كما وصفها الله تعالى به وهو قوله : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا لِّلْخِيَاةِ الَّلهِ نَبَاتًا كَمَا أُنْزِلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ .

فاحتلط ، أى قاتل بنبات الأرض وتكاثف به ، أى سبب ذلك للماء وبنزوله عليه ؛ ويموز أن يكون تقديره : فاحتلط بنبات الأرض ، لأنه لما عذاه وأعماه ، ضد صار مختلطاً به ، ولما كان كل واحد من المختلطين مشاركاً لصاحبه فى مستى الاختلاط جاز « فاحتلط به نبات الأرض » ، كما يجوز : فاحتلط هو بنبات الأرض .

والهشيم : ما تهشم وتحطم ، الواحدة هشيمة . وتذروه الرياح : تطيره . وكان الله على ما يشاء ، من الإشاء والإفشاء ، مقتدراً .

قوله : « من يلق من سرّاها بطناً » إما خص السرّاء بالبطن ، والسرّاء بالظهر ، لأن الملاقاة بالبطن ملاق بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهره . مدير عنك . وقيل : لأن الترس بطنه إليك وظهره إلى عدوك ، وقيل : لأن للشىء فى بطون الأودية أسهل من السير على الطرّاب والآكام .

وطئه السحاب بطله ، إذا أمطره مطراً قبلاً ، بقول : إذا أعطت قليلاً من الخير أعقبته ذلك بكثير من الشر ، لأن التهان الكثير الماطر ، هنن يهتن بالكسر ، هتتا وهتونا وهتانا .

قوله : « وحرى » ، أى جدير وخلق ، يقال : بالحرى أن يكون هذا الأمر كذا ، وهذا الأمر تحرراً لذلك ، أى مقمناً ، مثل تحجاة ، وما أحرأه مثل ما أحجأه ، وآخر به ، مثل أخرج به ، وتقول : هو حرى أن يفعل ذلك بالفتح ، أى جدير وقين ، لا يثنى ولا يجمع ، قال الشاعر :

وَمَنْ حَرَىٰ آلَا يُثْبِنَكَ قَرَّةً وَأَنْتَ حَرَىٰ بِالْفَارِحِينَ ثَلِيبٌ^(١)

فإذا قلت : هو حرى بكسر الراء وحرى بتشديد هاء على « فمیل » ثبتت وجمعت ، قلت : ما حريبان وحرىبان ، وحررون مثل عمون ، وأحرأه أيضاً ، وفى للشدّد حرّيون وأحرأه ، وهى حرية وحرية ؛ ومن حرّيات وحرّيات وحرأها .

فإن قلت : فهلا قال : « وحرية إذا أصبحت » ، لأنه يخبر عن الدنيا ؟

قلت : أراد شأنها ، فذكر ، أى وشأنها خلق أن يفعل كذا .

واعذوب : صار عذبا ، واسلألى : صار حلواً ، ومن هاهنا أخذ الشاعر قوله :

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا خُضْرَةٌ آتُكُةٌ إِذَا خُضِرَتْ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبٌ
فَلَا تَكْتَحِيلُ هَيْئَكَ مِنْهَا بَسْرَةٌ عَلَى ذَاهِبٍ مِنْهَا فَإِنَّكَ ذَاهِبٌ

وارتفع « جانب » المذكور بعد « إن » لأنه عامل فعل مقدر يفسره الظاهر ؛ أى

وإن اعذوب جانباً منها ، لأن « إن » تقتضى الفعل وتطلبه فهى : كـ « إذا » فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾^(٢) .

وأمر الشيء ، أى صار مرأ . وأوئى : صار وياً ، ولئن الهز ، لأجل السجع .

والرقب : مصدر رغبت فى الأمر رغبة ورغبا ، أى أردته .

يقول : لا ينال الإنسان منها إرادته إلا أرهقه تعباً ، يقال : أرهقه إثناء ، أى تحله وكلفه .

(١) البيت فى اللسان ١٨ : ١٨٨ ، من غير نسبة .

(٢) سورة الانشقاق ١

فإن قلت : لم خصّ الأمن بالجنّاح والخوف بالقوادم ؟

قلت : لأنّ القوادم مقاديمُ الرّيش ، والراكب عليها برّض خطر عظيم وسقوط قريب ، والجنّاح يسترويق البرد والأذى ، قال أبو نؤاس :

نَفَطَيْتُ مِنْ دَهْرِي نَظْلُ جَنَاحِهِ فَعَسَتْ أَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي ^(١)
فَلَوْ تَسَالُ الْأَيَّامَ مَا اسْمَى لِمَا دَرَتْ وَأَبْنَى مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

والهاء في « جناحه » ترجع إلى المدح ^(٢) بهذا الشعر .

وتؤيّد : تهلكه ، والآية : الكدر . والرّاق ، بفتح النون ، مصدر رَنَقَ الماء ، أي تكدّروا بالكسر الكدر ، وقد روى هاهنا بالفتح والكسر ، فالكسر ظاهر ، والفتح على تقدير حذف المضاف ، أي ذو رَنَقٍ .

وماء أجاج : قد جمع المرارة والمُلُوحة . أج الماء يورّج أجاجا . والصير ، بكسر الباء : هذا النبات المرّ نفسه ، ثم سُمّي كلّ مرّة صبراً ، والكسام : جمع سَمٍ لهذا القتال ، يقال سَمٌ وسُمٌ ، بالفتح والضم ، والجمع سهام وسُوم .

ورمام : بالية ، وأسبابها : حبالها . وموفورها : ذو الوفرة والثروة منها ، والمهروب : السلوب ، أي لا تسمى جاراً ولا تسمى .

ثم أخذ قوله تعالى : (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ) ^(٣) قال : « السّم في مساكين من كان قبلكم أطول أعماراً » ، نصب « أطول » ، لأنه خبر كان ، وقد دنا الكتاب الصادق على أنهم كانوا أطول

(١) ديوانه ٩٧

(٢) هو محمد بن الفضل بن الربيع .

(٣) سورة إبراهيم ٤٥ .

أعماراً بقوله: ﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا نَحْسِينَ عَامًا ﴾ ^(١) ، وثبت بالعيان أنهم أبقى آثاراً ؛ فإن من آثارهم الأهرام والإيوان ومثارة الإسكندرية وغير ذلك . وأما صدُ الآمال فترتب على طول الأعمار ، فكما كانت أطول كانت الآمال أبعد ، وإن عني به علوُ الهِمم ، فلا ريب أنهم كانوا أعلى همّاً من أهل هذا الزمان ؛ وقد كان فيهم مَنْ مَلَكَ معمورة الأرض كلها ، وكذلك القول في « أعداء عديداً ، وأكثف جنوداً » ، والعديد : العدو الكثير ؛ وأعداء منهم ، أى أكثر .

قوله : « ولا ظهر قاطع » ، أى قاطع لسافة الطريق .

والتقوادم : الثقلات ، فدحاه الذين أتقاه ؛ ويروى « بالتقوادم » بالثقاف ؛ وهى آفة تظهر فى الشجر ، وصدوع تظهر فى الأسنان .
وأوهنتهم : جعلتهم فى الوهن (ينضح الماء) وهو حبل كالطُول ^(٢) ويمجوز التمسكين ، مثل نهر ونهر .

والتقوادم : الحن والهواهى ؛ وسميت التهيئة قارعة فى الكتاب المزيّن من هذا المعنى وضعتهم : أذلهم ، قال أبو ذؤيب :

• أنى ريب الدهر لا أنضع ^(٣) •

وضعت البناء : أهدمته .

وعقرتهم للمناخر . ألصقت أنوفهم بالقر ، وهو التراب والناسم : جمع منيس ، بكسر السين وهو خف البعير .

(١) سورة المكوث ١٤

(٢) الطول ، أو الطيل : حبل طويل يشد به فائحة الهابة .

(٣) ديوان الهذابين ١ : ٣ ؛ وصدرة :

• وَنَجْدَى لِلشَّامِيِّينَ أَرْيَهُمْ •

ودان لها : أطاعها ، ودان لها أيضا : ذل . وأخذ إليها : مال ، قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ
أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ^(١) .

والسَّغْب : الجوع : يقول : إنا زودتهم الجوع ، وهذا مثل ، كما قال :

• ومدحته فأجازني الحرمانا •

ومعنى قوله : « أو نورت لهم إلا الظلمة » : أى بالظلمة ؛ وهذا كقوله : « هل زودتهم
إلا السَّغْب » . وهو من باب إقامة الصدّة مقام الصدّة ، أى لم تسمح لهم بالنور بل بالظلمة .
والضنك : الضيق .

ثم قال : فهتت الهار ، وحذف الضمير المائد إليها وتقديره « هي » كما قال تعالى :
﴿ نِمَّ الْمَبْدُ ﴾ ^(٢) ، وتقديره : « هو » .

ومن لم يتهمها : من لم يسؤ ظمناً بها . والصفيح : الحجارة . والأحنان : القبور ، الواحد
جَنَن ، والجَنُون : المقبور ، ومنه قول الأهرابية : « فله درك من جَنُونِ فِي جَنَنٍ » . والأكنان :
جمع كَنَ : وهو السَّتر ، قال تعالى : ﴿ وَجَمَلَ لَكُمْ مِنْ أَجْنَالٍ أَكْنَانًا ﴾ ^(٣) .

والرفات : العظام البالية . والندبة : الندب على الميت . لا يزالون بذلك : لا يكثرثون
به . وجيدوا : مطروا ، وقحطوا : انقطع للطرف عنهم فأصابهم القحط ، وهو الجذب وإلى
معنى قوله عليه السلام : « فهم جيرة لا ينجيهم داعيا ، ولا ينجون ضيا ، جميع وهم آحاد ،
وجيرة وهم أبعاد ، متدانون لا يتزاورون ، وقريبون لا يتقاربون » نظر البعثرى ، فقال :

(١) سورة الأعراف ١٧٦

(٢) سورة م ٣٠

(٣) سورة النحل ٨١

بَنَّا أَنْتِ مِنْ مَجْفُوتَةٍ لَمْ تَوْتَبِي وَمُهْجُورَةٍ فِي هَجَرِهَا لَمْ تَنْتَبِي^(١)
وَمَازِحَةٍ وَالِدَارِ مَعَهَا قَرِيبَةٌ وَمَاقُرَّتْ ثَاوِي فِي التَّرَابِ مَقْتَبِي^(٢)
وَقَدْ قَالَ الشُّعْرَاءُ وَالْخُطَبَاءُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرًا، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الرُّضِيِّ أَبِي الْحَسَنِ رَحِمَهُ
اللَّهُ فِي مَرثِيته لِأَبِي إِسْمَاعِيلَ الصَّائِي :

أَعَزَّزْتُ عَلَى بَانَ زَلَّتْ بِمَنْزِلٍ مِثْلَهِ الْأَعْجَادِ بِالْأَوْغَادِ^(٣)
فِي عَصَبَةٍ جُنِبُوا إِلَى آجَالِهِمْ وَاللَّهْرُ يُجْعَلُهُمْ عَنِ الْإِزْوَادِ
ضَرَبُوا بِمَدْرَجَةِ الْفَنَاءِ قَبَابَهُمْ مِنْ فُتْرِ أَطْنَابٍ وَلَا أَوْتَادِ
رَكَّبْتُ أَنَاخُوا لَا يَرَجِي مِنْهُمْ قَصْدُ الْإِسْهَامِ وَلَا إِجْمَادِ
كَرِهُوا النُّزُولَ فَأَنْزَلْتَهُمْ وَقَعَةً لِلدَّهْرِ نَارَةٌ بِكُلِّ مَقَادِ
فَتَهَانُوا عَنْ رَحْلِ كُلِّ مَذَلٍّ وَكُتِلُوا حَوَا عَنْ سَرَجِ كُلِّ جَوَادِ
بَادُونَ فِي صُورِ الْجَمْعِ وَلَهُمْ مَقَرُّونَ تَفَرَّدَ الْأَحَادِ
قَوْلُهُ : « بَادُونَ فِي صُورِ الْجَمْعِ ... » الْيَتِ ، هُوَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « جَمْعُهُمْ أَحَادٌ » بِمِثْلِهِ .
وَقَالَ الرُّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَيْضًا :

مَتَوَسِّدِينَ عَلَى الْخُدُودِ كَأَنَّهَا كَرَعُوا عَلَى ظُلُمٍ مِنَ الصَّبَاءِ^(٤)
صُورٌ ضَمِنَتْ عَلَى الْعَمِيونَ بِحُسْنِهَا أَسْبَتْ أَوْفَرُهَا مِنْ الْبُؤْسَاءِ^(٥)
وَنَوَاطِرِ كَحَلِّ التَّرَابِ جَفُونَهَا قَدْ كُنْتُ أَخْرُسُهَا مِنَ الْأَقْدَاءِ
قَرَّبْتُ ضَرَاتِهِمْ عَلَى زُؤَارِهَا وَتَأَوَّا عَنْ الطَّلَابِ أَيْ تَنَاءِ^(٦)

(١) ديوانه ١ : ٤٩

(٢) ديوانه لوحة ١٢٩ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات

(٣) ديوانه لوحة ١١٦ من مَرثِيته لَوَالِدِهِ .

(٤) لَطْفًا : مَلَا حُلَّتْهَا . وَالْبُؤْسَاءُ : التُّرْبَةُ الرَّحْوَةُ

(٥) الْفُرَاخُ : جَمْعُ ضَرِيحٍ ، وَهُوَ الْقَبْرِ .

قوله : « قربت خرائمهم . » البيت هو معنى قوله عليه السلام : « وجيرة ، وم
أبعاد » بيته .

ومن هذا المعنى قول بعض الأعراب : ^(١)

لكل أناس مقبر في ديارهم ^(٢) فهم ينتقصون ، والقيود تزيد
فكانت ترى من دار حتى قد أخربت وقبر بأكناف التراب جديد ^(٣)
م جيرة الأحياء ، أما مزارم ^(٤) فدان ، وأما للثقي فبيد
ومن كلام ابن نباتة : « وحيدا على كثرة الجيران ، بعيدا على قرب السكان » .

ومنه قوله : « أسير وحشة الانفراد ، خير إلى اليسر من الزاد ، جار من لا يجير ،
وخيف من لا يجير ، حلوا ولا يرون ركبانا ، وأزلوا ولا يدعون ضيفانا ، واجتمعوا
ولا يسكنون جيرانا ، واحتشدوا ولا يسدون أمواتنا ، وهذا كلام أمير المؤمنين عليه السلام
بيده المذكور في هذه الخطبة ، وقد أحسنه مصالحة .

ومنه قوله : « طعنهم طعن الحصيد ، وغيتهم تحت الصميد ، فبطون الأرض لم
أوطان ، وم في خراسا قطان ، همروا فأحربوا ، واقربوا فاعتربوا ، واصطحبوا
وما اصطحبوا » .

ومنه قوله : « غيبا كأشهاد ، عصبا كأحاد ، هوذا في ظلم الأحاد ، إلى
يوم التناد » .

(١) لبداف بن ثعلبة الحلي : حاسة ابن تمام - بمرح للردوف ٨٩١
(٢) الحاسة :

• لكل أناس مقبر يفنائهم •

(٣) رواية الحاسة :

وما إن يزال رسم دار قد اخلقت ويئت لميت بالقاء جديد

(٤) الحاسة : « أما جوارم » .

واعلم أن هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب " البيان والتبيين ^(١) " ،
ورواها لفطري بن القحافة ، والناس يروونها لأمر المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها
في كتاب " المونق " لأبي عبيد الله الرباعي مروية لأمر المؤمنين عليه السلام ؛ وهي
بكلام أمير المؤمنين أشبه ؛ وليس يمدحني أن يكون فطري قد حطب بها بعد أن
أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ؛
وقد لقي فطري أكثرهم .

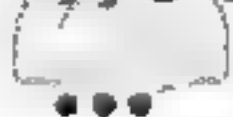
(١) البيان والتبيين ٢ : ١٢٦ - ١٢٩ ؛ وهي أيضا بنسبتها إلى فطري في القصد ١ : ١٤٩ ،
وسبح الأعشى ١ : ٢٢٣ ، وعيون الأخبار ٢ : ٢٥٠ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٠ .

(١١١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام : يذكر فيها ملك الموت وتوفية الأفس :

هَلْ يُحْسِبُ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا ، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَدًا ؟ بَلْ كَيْفَ تَتَوَفَّى
الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ! أَيْلِجُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسٍ جَوَارِحِيهَا ، أَمْ الرُّوحُ أَجَابَتُهُ بِإِذْنِ
رَبِّهَا ، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي اخْتَارِهَا ؟
كَيْفَ يَصِفُ إِلَهُ مَنْ يَسْتَحَرُّهُ مِنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ ؟



الشرح :

أما مذهب جمهور أصحابنا ؛ وهم النافون بنفس الناطقة ؛ فمقدم أن الروح جسم لطيف
بخاري ، يكوّن من الطفا أجزاء الأضدية ، ينمذ في العروق للصوارب ، والحياء عرض
قائم بالروح وحال فيها ؛ فللداغ روح دماغية وحياء حاققة فيها ؛ وكذلك القلب ، وكذلك
الكبد ؛ ومقدم أن ملك الموت أعوانا تقبض الأرواح بحكم النياة عنه ؛ لولا ذلك لتمذّر
عليه وهو جسم أن يقبض روحين في وقت واحد في الشرق والغرب ؛ لأن الجسم الواحد
لا يكون في مكانين في وقت واحد . قال أصحابنا ؛ ولا يبعد أن يكون الحفظة الكاتبة
هم القابضين للأرواح عند انقضاء الأجل ، قلوا ؛ وكيفية القبض ولوج الملك من القم إلى
القلب ، لأنه جسم لطيف هوائي لا يحدّر عليه النفوذ في الخارق الضيقة ، فيخالط الروح

التي هي كالشيبة به ، لأنها جسم لطيف بخارية ، ثم يخرج من حيث دخل وهي معه ، وإنما يكون ذلك في الوقت الذي يأذن الله تعالى له فيه ؛ وهو حضور الأجل ، فالزموا على ذلك أن يفوح الملك في الماء مع العريق ؛ ليقبض روحه تحت الماء ؛ فالتزموا ذلك ، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلل الملك الماء في مسام الماء ؛ فإن فيه مسام ومنافذ ، وفي كل جسم على قاعدتهم في إثبات الماء في الأجسام .

قالوا : ولو فرضنا أنه لا مسام فيه ، لم يبعد أن يلجعه الملك فيوسع لنفسه مكانا كما يلجعه الحجر والسمك وغيرها ، وكالريح الشديدة التي تفرغ ظاهرا البحر فتصغره ، وتغمره ، وقوة الملك أشد من قوة الريح .

ثم نعود إلى الشرح فنقول :

الملك أصله « مَلَك » بالهمز ، ووزنه « مَفْعَل » والميم زائدة ، لأنه من الألوكة والألوك ؛ وهي الرسالة ، ثم قلبت الكلمة وقلبت اللام قفيل ملاك ، قال الشاعر :
فلستُ للإنسي ولكن للملاك قفيل من جَوِّ السماء بصوب^(١)
ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال ، قفيل : « ملك » ، فلما جمع ردت الهمزة إليه ، فقالوا : ملائكة وملائك ، قال أمية بن أبي الصلت :

وَكَأَنَّ يَرْقِعَ وَالْمَلَائِكَ حَوْلَهَا سَدِيرٌ تَوَاكَلَهُ الْقَوَائِمُ أَجْرَدُ^(٢)
والتوفي : الإماتة وقبض الأرواح ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾^(٣) .

والتقسيم الذي قسمه في وفاة الجنين حاصر ؛ لأنهم مع فرضنا إتياء جسما يقبض الأرواح التي في الأجسام ؛ إما أن يكون مع الجنين في جوف أمه فيقبض روحه عند حضور أجله ،

(١) اللسان ١٢ : ٢٧٤ من غير نية .

(٢) اللسان ٦ : ٢٠ .

(٣) سورة الزمر ٤٢ .

أو خارجاً عنها . والقسم الثاني ينقسم قسمين : أحدهما أن يبلغ جوف أمه لقبض روحه فيقبضها ، والثاني أن يقبضها من غير حاجة إلى التلوج إلى جوفها ؛ وذلك بأن تطعمه الروح وتكون مسخرة إذا أراد قبضها امتدت إليه قبضها . وهذه القصة لا يمكن الزيادة عليها ، ولو قسمها واضح للنطق لما زاد .

ثم خرج إلى أمر آخر أعظم وأشرف مما ابتدأ به ، فقال : « كيف يصف الله من يعجز عن وصف مخلوق مثله » ! وإلى هذا المرض كان يترامى ، وإياه كان يقصد ؛ وإنما مهد حديث الملك والجنين توطئة لهذا المعنى الشريف ، والسرة الحقيقية .

[فصل في التخلص وسياق كلام للشعراء فيه]

بهذا الفن يسميه أرباب علم البيان للتخلص ، وأكثر ما يقع في الشعر ، كقول أبي نواس :

تقول التي من يشأ خف مركي	هزبر حينا أن نراك تسير ^(١)
أما دون مصر للمعنى منقلب	بلى ، إن أسهب المعنى لكثير
فلت لها واستعجلتها بواحد	جرت ، فجري في جريهن عيبر
فريبي أكثر حاسدك برحق	إلى بلد فيه انطبيب أمير

ومن ذلك قول أبي تمام :

يقول في قومي صبحي وقد أخذت	يتا الشرى وخطأ للهربة القود ^(٢)
أطليع الشمس تبني أن تؤم بنا	فلت كلاً ولكن مطلع الجود

(١) ديوانه ٩٩ ، من قصيدة يمدح فيها الحبيب بن عبد الرحمن الرادي ، أمير مصر .

(٢) ديوانه ٢ : ١٣٠ ، قومي : بلد بين العراق وخراسان .

ومنه قول البحري:

هل الشلب لم^١ بي فراجعة^٢ أؤامه لي في أعقاب أبي^٣ !
لو أنه نائل غمر^٤ يجاد^٥ به إذن تطلبت^٦ عند ابن بسطام

ومنه قول المتنبي : وهو يفتزل بأعرابية ، ويصف بخيلها وجبينها وقلة مطعمها ؛ وهذه كلها من الصفات المدحوة في النساء خاصة^(٧) :

في مقلتي رشا تديرها بدوية^٨ فتنت^٩ بها الحلال^(١٠)
تشكو الطعام طول هجرتها^{١١} وصدودها ، ومن الذي تصل^{١٢} !
ما سأرت في القصب من لبن تركته ، وهو الميك والعمل
قالت : ألا نصحرقت لها^{١٣} أخليني أن الهوى ثيل^{١٤}
لو أن فناخر^{١٥} صبحكم^{١٦} وهرزت^{١٧} وحدك عاقه المزك^(١٨)
وتفرقت عنكم^{١٩} كتابه^{٢٠} أن الملاح حوابع^{٢١} قتل^{٢٢}
ما كنت فاعلة^{٢٣} وضيغكم^{٢٤} ملك^{٢٥} اللوك وشأنك^{٢٦} الهخل^{٢٧}
أتمنن^{٢٨} قرى^{٢٩} فتمنعي^{٣٠} أم تبتذلين^{٣١} له الذي يسأل^{٣٢}
بل لا يحمل^{٣٣} بحيث^{٣٤} سل^{٣٥} به يحمل^{٣٦} ولا جور^{٣٧} ولا وجل^{٣٨}

وهذا من لطيف التخلص ورشيقة ، والتخلص مذهب الشعراء ، والمتأخرون يستعملونه كثيراً ، ويتفاحرون فيه ويتناضلون ، فأما التخلص في الكلام للنشور فلا يكاد يظهر لتصفح الرسالة أو الخطبة إلا بعد تأمل شديد ؛ وقد وردت منه مواضع في القرآن العزيز ؛ فمن

(١) للثمل السائر ٢ : ٢٦٥

(٢) ديوانه ٣ : ٣٠١ ؛ من قصيدة يمدح فيها ركن الدولة .

(٣) الرها ؛ ولد الفيلية الصبر . والحلل : جمع حلة ؛ وهي الثوب المحتشمون في بيوت مجتمعة لقول :
والبدوية : الساكنة البدو .

(٤) فناخر ؛ هو اسم عند الدولة . وصبحكم : أياكم صباحاً للغارة .

أيها وأظهرها أنه تعالى ذكر في سورة الأعراف الأمم الخالية ؛ والأنبياء للماضي من آدم عليه الصلاة والسلام ، إلى أن انتهى إلى قصة موسى ، فقال في آخرها بعد أن شرحها وأوضحها : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا مِمَّنْ ظَنَّتْ لَهُمْ رِجَّةٌ قَالَتْ لَهُمْ قُلُوبُهَا مَا لَكُم مِّنْ قَبْلِ وَإِنِّي لَأَتْلُو عَنَكُم آيَاتِي أَنْهَبِكُمْ عَنِ مَقْعَدِ الشَّقَاءِ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنِ اشَاءَ وَيَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَافْقَرْنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَافِرِينَ • وَاسْكُتْ لَنَا فِي هَذِهِ أَلَدُنَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنُ اشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاسْكُتْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ • الَّذِينَ يَنْبَغُونَ الرَّسُولَ الَّذِي الْأُمِّيُّ الَّذِي يَجِدُونَ مَكْتُوبًا حِنْدَهُمْ فِي التَّوَارِثِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَبِنَهَائِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِعِلِّهِمْ أَهْلُ الطَّيِّبَاتِ وَبِعَزْمِهِمُ الْمُحْسِنَاتِ وَبِإِصْرِهِمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزِمُوا وَبِعِزَّتِهِمُ وَأَنْبَغُوا الثَّوْرَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ • ﴾ (١).

وهذا من التخصصات الطليقة للسجدة .

[فصل في الاستطراد وإيراد شواهد للشعراء فيه]

واعلم أن من أنواع علم البيان نوعاً يسمى الاستطراد ، وقد يسمى الالتفات ، وهو من جنس التخصيص وشبيه به ، إلا أن الاستطراد هو أن تخرج بعد أن تمهد ما تريد أن تمهده إلى الأمر الذي تروم ذكره فذكره ، وكأنك غير قاصد لذكره بالذات ، بل قد حصل ووقع ذكره بالمرض عن غير قصد ، ثم تدعه وتتركه ، وتعود إلى الأمر الذي كنت في تمهيدك ، كالقيل عليه ، وكان لي حتماً استعادت بذكره ، فمن ذلك قول البعري وهو يصف فرساً :

(١) سورة الأعراف ١٥٥ - ١٥٧

وأغرّ في الزّمن البهيم مُجْجِلٌ قد رَحَّتْ مِنْهُ قَلَى أَغْرَ مُجْجِلٌ^(١)
 كالهِسْلِ البَسِيٍّ إِلَّا أَنَّهُ في الحسن جاء كصودةٍ في هيسْلٍ
 وإني الضلوع بشدّ عقد حزامه يومَ اللقاء على سَيْمٍ مَخُولٍ
 أخواله لمرستمين بخارسٍ وجدوده للثُّبْمِينَ بِمُوكِلٍ
 يهوى كاهوت الثُّقَابِ وقد رأت صيدا، وينتصب انتصاب الأجدلِ
 معوجس برفيقين كأنما تُرَيَانٍ من ورق عليه مكللٍ
 ماين يماف قدّى ولو أوردته يوما خلائق خَدَوْبِهِ الأحول
 ذَنْبٌ كاحْتَبِ الرِّشَاءِ يَنْبِ عَنْ عُرْفٍ، وعرف كالقناع للسَّهْلِ
 حَذْلَانُ يَنْفُضُ حَذْرَةً فِي عُرْتِهِ يَقِي نَسِيلَ حُجُولِهَا فِي جَنْدَلٍ
 كالرائع النّشوان أكثر منيب عِرْفًا على التّن البعيد الأطولِ
 ذهب الأعلى حيث نذهب مقلةً فِيهِ يَنَظُرُهَا حديد الأسفلِ
 هرج الصَّهْلِ كَأَنَّ فِي نَفْسِهِ نَبْرَتُ مَعْبِدٍ فِي الثَّقِيلِ الأوّلِ
 مَلَكُ القلوب، فإن بدا أعطينه نَظَرَ الحُبِّ إِلَى الحَيِّبِ المُقْبِلِ

ألا تراه كيف استطرد بذكر خَدَوْبِهِ الأحول الكاتب، وكأنه لم يقصد ذلك؛
 ولا أرادته وإنما جَرَّتْهُ القافية، ثم ترك ذكره وعاد إلى وصف الفرس؛ ولو أقسم إنسان أنه
 ما بنى القصيدة منذ اختعها إلا على ذكره، ولذلك أتى بها عَلَى رُوى اللام، لكان
 صادقا. فهذا هو الاستطراد.

ومن الفرق بينه وبين التخلّص أنك في التخلّص متى شرعت في ذكر المدح

أو اللجوء تركت ما كنت فيه من قبل بالسكينة وأقبلت على ما تخلصت إليه من المديح والمجاء بيتا بعد بيت ؛ حتى تنقضي القصيدة ، وفي الاستطراد نمر على ذكر الأمر الذي استطردت به مرورا كالبرق الخاطف ؛ ثم تركه وتساء ، وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصد قصد ذلك ، وإنما عرض عروضا . وإذا فهمت الفرق فاعلم أن الآيات التي تلونها إذا حقت وأمعنت النظر ، من باب الاستطراد ، لا من باب التعلل ، وذلك لأنه تعالى قال بعد قوله : ﴿ وَأَتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٠﴾ وَفِي قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٠١﴾ وَقَطَّنَا هُمْ أَثَدُّ عَشْرَةِ آبِلَاطٍ أُمَّةً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْخَجَرَ فَانْجَبَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَسْلًا وَقَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَكَانُوا كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ . فساد إلى ما كان فيه أولا ، ثم مر في هذه القصة ، وفي أحوال موسى وبنو إسرائيل حتى قارب الفراغ من السورة .

ومن لطيف التعلل الذي يكاد يكون استطرادا ، لولا أنه أفسده بالخروج إلى

المدح ، قول أي تمام في قصيدته التي يمدح بها محمد بن الهيثم التي أولها :

أَسْقَى طُلُوبَهُمْ أَجَشُّ هَرِيمٍ	وَعَدَّتْ عَلَيْهِمْ نَصْرَةً وَنَعِيمٍ ^(١)
ظَلَمْتُكَ ظَالِمَةُ الْبَرَى ظُلُومُ	وَالظُّلُمُ مِنْ دِي قُدْرَةٍ مَذْمُومُ
رَعَمَتْ هَوَاكَ عَفَا الْمَدَاءُ كَاغَفَتْ	مِنْهَا طُلُولُ بِاللَّوَى وَرَسُومُ

(١) سورة الأعراف ١٥٨ - ١٦٠ .

(٢) ديوانه ٣ : ٢٨٩ .

لا والذي هو عالم أن لننوي صبراً وانت أبا الحسين حريم
ما حلت عما تهدين ولا غدت^(١) نفسي على ألف — والكموم

فلو أتم متفرلاً لكان مستطرداً لاحتاجة ، ولكنه تقضى الاستطراد ، وغنى يده في
للدح ، فقال سد هذا البيت :

محمد بن الميثم من شبانة محمد إلى جنب الثمك مقبم
ملك إذا نسب الندي من ملنقى طرفية فهو أح له وحيم
ومضى على ذلك إلى آخرها .

ومن الاستطراد أن يحتال الشاعر في ذكر ما يروم ذكره ، بوصف أمر ليس من
غرضه ، ويدمج العرض الأصلي في ضمن ذلك وفي غرضه ؛ وأحسن ما يكون ذلك إذا
صرح بأنه قد استطرد ومنه في (شعره على ذلك) ، كما قال أبو إسحاق الصائفي في أبيات
كتبها إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عهد الدولة ، كتبها إليه إلى شهرار
وأبو إسحاق في بغداد ، وكانت أخبار فتوح عهد الدولة بفارس وكرمان وما والاها
متواصلة مترادفة إلى العراق ، وكتب عبد العزيز واصله لها إلى عمر الدولة مختار والصائفي
يحببها :

باركك الجسرية العذابة الأجد بطوى الهامة من سهل إلى جلد
أبلغ أبا قاسم - نفسي العذابة - مقالة من أخ للعق متمم
في كل يوم لكم فتح يشد به بين الأنام بذكر التمدد المضد
وما لنا مثله لمكننا أبداً بجمع محواب الحامد السكد
فأنت أكتب مني في الفتوح وما تجري محباً إلى شأوي ولا آمدي

(١) الديوان :

• ما رلت عن منن الوداد ولا غدت •

وما ذممتُ ابتدائي في مكانية ولا جوابكم في القرب والبُعد
 لكنني رمت أن أثني على ملكٍ مستطرد بمدح فيه مطرد
 ولقد ظُرف وملح أبو إسحاق في هذه الأبيات ، ومتى خلا أو قرى عن الظرف
 وللملاح ، وقد كان ظرفا ولباقة كله ا

وليس من الاستطراد ما زعم ابن الأثير للوصل في كتابه المسمى " بالمثل " (١) السائر ، أنه
 استطراد ؛ وهو قول بعض شعراء اللوصل بمدح قرواش بن القلند ، وقد أمره أن يهت بهجاء
 وزيره سليمان بن فهد ، وحاجبه أبي جابر ومعتبه نمرود بالرقبيدي ، في ليلة من ليالي الشتاء
 وأراد بذلك التعابة والولع بهم ، وم في مجلس في شراب وأنس ، فقال وأحسن
 فيما قال :

وليل كوجه الرقبيدي ظلمة وورد أغانيه وطول قرويه
 سرّيت ونومي فيه نومٌ مشرد كمقل سليمان بن فهد وديده
 على أولقي فيه التفات كأنه أبو جابر في خبطه وجنونه
 إلى أن بدا ضوه الصباح كأنه سنا وجه قرواش وضوء جبينه
 وذلك لأن الشاعر قصد إلى هاء كل واحد منهم ، ووضع الأبيات لذلك ، وأمره
 قرواش رئيسهم وأمرهم بذلك ، فعمام ومدحه ولم يستطرد . وهذه الأبيات تشبيهات
 كلها مقصود بها الهجاء ، لم يأت بالعرض في الشعر كما يأتي الاستطراد .
 وهذا غلط من مصنف الكتاب .

(١١٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَحْذَرُكُمْ أَهْلَانِيَا قُلُوبَهَا مَنُورٌ قُتْمَةٌ ، وَلَيْسَتْ بِدَارٍ مُنْعَةٍ ؛ قَدْ تَزَيَّنَتْ بِفُرُورِهَا ،
وَفَرَّتْ بِزِينَتِهَا . دَارُهَا تَقْلَى رَتْبَهَا فَحَلَطَ حَلَالُهَا بِحَرَامِهَا ، وَخَيْرُهَا بِشَرِّهَا ، وَحَيَاتُهَا
بِمَوْتِهَا ، وَخُلُوعُهَا بِعِزِّهَا . لَمْ يُصِفْهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَنْ أَعْدَائِهِ .
خَيْرُهَا زَهِيدٌ ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ ، وَجَمْعُهَا بِنَفْدٍ ، وَمُلْكُهَا بِسَلْبٍ ، وَعَمِيرُهَا بِفَرْبٍ . فَمَا
خَيْرُ ذَلِكَ تَنْقُضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ ، وَتَحْمِلُ بِهَوْنٍ كَيْفَا فَنَاءِ الزَّادِ ، وَمَدَّةِ تَمْقِطِغِ انْقِطَاعِ
السَّيْرِ !

أَجْتَلُوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ ، وَأَسْأَلُوهُ مِنْ آدَاءِ حَقِّهِ كَمَا سَأَلَكُمْ ،
وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ التَّوْبَةِ إِذَا نَكَمْتُمْ قَبْلَ أَنْ يَدْعِيَ بِكُمْ .
إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي أَهْلَانِيَا تَسْكِي قُلُوبَهُمْ وَإِنْ صَحَّحُوا ، وَيَشَقُّ خُزْنُهُمْ وَإِنْ
فَرَحُوا ، وَيَكْتُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنْ اُعْتَبَلُوا بِمَا رُزِقُوا .
قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجِلِ ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الْآمَالِ ، فَصَارَتْ
أَهْلَانِيَا أُمَّكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ ، وَالْعَاقِبَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ ؛ وَلَئِنَّمَا أَنْتُمْ
إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ ؛ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا حُبُّ السَّرَائِرِ ، وَسُوءُ الْعَمَائِرِ ؛ فَلَا
تَوَازَرُونَ وَلَا تَنَاصَحُونَ ، وَلَا تَبَازِلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ .

مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْبَسِيرِ مِنْ أَهْلَانِيَا تُذَرِّكُونَهُ ، وَلَا يَحْزَنُكُمْ الْكَثِيرُ مِنْ
الْآخِرَةِ تُحْزَمُونَهُ ؛ وَبُغْيُكُمْ الْبَسِيرُ مِنْ أَهْلَانِيَا يَفُوتُكُمْ ؛ حَتَّى يَنْتَبِينَ ذَلِكَ فِي

وَجُوهِكُمْ، وَقَلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ اسْمَاءُهَا دَارُ ثَقَائِكُمْ، مَوْكُنْهَا مَقَامُهَا
بَاقِي عَلَيْكُمْ.

وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقِيلَ أَخَاهُ يَمًا يَخَافُ مِنْ قَبِيلِهِ؛ إِلَّا خَشَافَةٌ أَنْ
يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ.

قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْعِ الْآجِلِ، وَحُبِّ الْمَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لِدُنَّةِ عَلَى
لِسَانِهِ، صَنِيعَ مَنْ فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهِ، وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ.

البَيْتُخُ :

قوله عليه السلام : « فإياها منزلُ قُلُومَةٍ » يَهْمُ القَاف وسكون اللام ، أى ليست
بمستوطنة . ويقال : هذا مجلس قُلُومَةٍ ، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرة بعد مرة .
ويقال : هم على قُلُومَةٍ ، أى على رحلة ، ومن هذا الباب : قولهم : فلان قُلُومَةٍ ، إذا كان
يقطع عن سراحه ، ولا يثبت في المبطش والصراع ، والقلمة أيضا : للسال العارية ، وفي
الحديث : « يشى للال القلمة » .

والنَجْمَةُ : طلب الكلأ في موضعه ، وفلان ينتجع الكلأ ، ومنه انتجعت فلانا ،
إذا أتيتَه تطلب معروفه

ثم وصف هوان الدنيا على الله تعالى ، فقال : « من هوانها أنه خلط حلالها بحرامها... »
الكلام ، مراده تفضيل الدار الآنية على هذه الحاضرة ، فإن تلك صفوكلها وخيركلها ؛
وهذه مشوبة ؛ والكدر والشر فيها أغلب من الصفو والخير . ومن كلام بعض الصالحين :
من هوان الدنيا على الله أنه لا يعمى إلا فيها ، ولا ينال ما عنده إلا بتركها . ويروى :
« ولم يضمن بها على أعدائه » ، والرواية المشهورة « من أعدائه » ، وكلاهما مستعمل .

والزهيد : القليل ، والمتيد : الحاضر ، والسير : سير المسافر .

ثم أمرهم بأن يحملوا الفرائض الواجبة عليهم من جُملة مطلوباتهم ، وأن يسألوا الله من الإحسان والتوفيق على القيام بحقوقه الواجبة كما سألهم ، أى كما ألزمهم وافترض عليهم ، فسمى ذلك سؤالاً لأجل اللطافة بين الفطنين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ^(١) ، وكما قال النبي صلى الله عليه وآله : « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَقَّ تَمَلُّوا » وكما قال الشاعر :

أَلَا لَا يَمَلُّنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجَمَّلَ قَوْقَ جَهْلٍ أَتْلَاهِلِينَا ^(٢)

ثم أمرهم أن يسمعوا أنفسهم دعوة الموت قبل أن يحصر الموت ، فيعمل بهم . ومثل قوله : « تبكى قلوبهم وإن ضحكوا » قول الشاعر ، وإن لم يكن هذا المقصد بعينه قصد :

كَمْ فَاقَةٍ مَسْتَوِدَةٍ بِمَرَّةٍ وَضُرُورَةٍ قَدْ غَطَّيْتَ بِتَجَمُّلٍ
وَمِنْ ابْتِسَامٍ تَحْتَ قَلْبٍ شَجٍ قَدْ خَامَرَتْهُ لَوْعَةٌ مَا تَنْحَلِي

ولقت : البفض : واعتبطوا : فرجوا .

وقوله : « أملك بكم » مثل « أؤلى بكم » . وقوله : « والعاجلة أذهب بكم من الآجلة » أى ذهبت العاجلة بكم واستولت عليكم أكثر مما ذهبت بكم الآخرة ، واستولت عليكم .

ثم ذكر أن الناس كلهم مخلوقون على فطرة واحدة ، وهى دين الله وتوحيده ؛ وإنما اختلفوا وتفرقوا باعتبار أمر خارجى عن ذلك ؛ وهو حيث سرائرهم وسوء ضمائرهم ، فصاروا إلى حال لا يتوازرون ، أى لا يتعاونون ، والأصل الهمز ، آزرت ، ثم قلب الهمزة واواً ، وأصل قوله : « فلا توازرون » « فلا تتوازرون » فحذفت إحدى الناديين ، كقوله تعالى : ﴿ مَالِكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ ^(٣) ، أى لا تناصرون ، والتبادل : أن يعود بعضهم على بعض بما له ويبدله .

(٢) لمرو من كثوم ، من العلقات بشرح التبريزى ٢٣٨ .

(١) سورة الشورى ٤٠ .

(٣) سورة الصافات ٢٥ .

ومثل قوله عليه السلام « ما بالكم تفرحون بكذا ، ولا تحزنون لكذا ، ويقلقكم اليسير من الدنيا بفوتكم » من هذا قول الرضى رحمه الله :

نقصُ الجديدين من عمرى يزيدُ على ما ينقصُ على الأيام من مالى ^(١)
 دهرٌ تؤثرُ فى جسمى نوائبه فما اهتمامى أنْ أودى بسرىالى
 والضمير فى « يخاف » راجع إلى الأخ لا إلى المستقبل له ؛ أى ما يخافه الأخ من مواجهة نعيمه .

قوله : « وصارَ دينُ أحدكم لُعقةً على لسانه » أخذه الفرزدق ، فقال للحسين بن عليّ عليه السلام ، وقد لقيه قادمًا إلى العراق ، وسأله عن الناس : « أما قلوبهم مُهلك ، وأما سيوفهم فمهلك ، والدين لُعقةٌ على السنهم ، فإذا امتنعوا قلَّ الديّانون » ، والمفظة مجاز ، وأصل اللُعقة شئ قليل يُؤخذ باللمعة من الإماء ، يصب ديبهم بالزّارة والقلة كنك اللعقة ؛ ولم يمنع بأن جعله لُعقة حتى جعله على السنهم فقط ، أى ليس فى قلوبهم .

(١١٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْحَمْدُ بِالنِّعَمِ ، وَالنِّعَمُ بِالشُّكْرِ ؛ تَحْمَدُهُ عَلَى آلَائِهِ ؛ كَمَا
تَحْمَدُهُ عَلَى نَلَائِهِ ، وَتَسْتَعِينُهُ عَلَى هَذِهِ الْفُوسِ الْبِطَاءِ هَمَّا أَمَرَتْ بِهِ ، السَّرَّاعِ إِلَى
مَانِهَيْتِ عَنْهُ . وَتَسْتَعِينُهُ بِمَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ ، وَأَخْصَاهُ كِتَابُهُ ؛ عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ ؛
وَكِتَابٌ غَيْرُ مُعَادِرٍ . وَتُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانٌ مِنْ عَيْنِ الْغُيُوبِ ، وَدَقِيقَةٍ عَلَى الْمَوْعُودِ ؛
إِيمَانًا تَقِي إِخْلَاصُهُ الشِّرْكَ ، وَتَقِينُهُ الشُّكَّ . وَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَبْدُكَ وَرَسُولُهُ ، شَهَادَتَيْنِ تَصِيدَانِ الْقَوْلَ ،
وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ ؛ لَا يَخِفُ مِيزَانُ تَوْضَعَانِ فِيهِ ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانُ تَرْفَعَانِ مِنْهُ .

• • •

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَادُ ؛ زَادٌ مُبْلِغٌ ، وَمَعَادٌ
مُنْجِعٌ ؛ دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَائِعٍ ، وَوَعَاَهَا خَيْرٌ دَائِعٍ ؛ فَأَنْتَمِعَ دَائِعِيهَا ، وَفَارَ دَائِعِيهَا .
عِبَادَ اللَّهِ ؛ إِنْ تَقَوَّى اللَّهُ حَتَّى أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَحَارَمَتْ ، وَالزَّمَتْ قُلُوبَهُمْ تَخَافَتَهُ ؛ حَتَّى
أَشْهَرَتْ لِبَاءَ لِيَهُمْ ؛ وَأَغْلَقَتْ هَوَاجِرَهُمْ ، فَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ ، وَالرَّيَّ بِالظُّلْمِ ،
وَأَسْتَقَرُّوا الْأَجَلَ ، فَبَادَرُوا الْعَمَلَ ، وَكَدَّبُوا الْأَمَلَ ، فَلَا حَفْلَ الْأَجَلَ .
ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَخَنَاءٍ ، وَغَيْرِ وَغَيْرٍ ؛ فَمِنْ الْعَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتَرٌ ^(١) قَوْتُهُ ،
لَا تَخْطِي سِبَاغَهُ ، وَلَا تُؤَسِّي جِرَاحَهُ ، يَرْمِي الْخَلْقَ بِالْمَوْتِ ، وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ ،
وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ ؛ آكِلٌ لَا يَشْبَعُ ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ . وَمِنْ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْكَ يَجْتَمِعُ

(١) مخطوطة التهج : « موتر » بالشديد .

مَالًا بِأَسْكُنْ، وَبَنِي مَالًا يَسْكُنْ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لَا مَالًا تَحُلْ، وَلَا
بِنَاءَ قَلْبٍ.

وَمِنْ غَيْرِهَا أَنْ تَرَى الرَّحْمَ مَغْبُوطًا، وَالْمَغْبُوطُ مَرْحُومًا؛ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نَيْمًا
زَلًّا، وَبُؤْسًا تَزَلُّ.

وَمِنْ غَيْرِهَا أَنْ لَرَّءُ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ، فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ؛ فَلَا أَمَلٌ يَذُرُّكَ،
وَلَا مُوَأَّلٌ يُتْرَكُ. فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا عَزَّ سُرُورُهَا، وَأَظْلَمَ أَرْيَئُهَا، وَأَضْعَى قَيْئُهَا
لَا جَاءَ يَرُدُّ، وَلَا مَضَى يَرْتَدُّ؛ فَسُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقْرَبَ الْخَلْقُ مِنَ اللَّيْلِ لِلْحَقَائِدِ
بِهِ، وَأَبْعَدَ اللَّيْلِ مِنَ الْخَلْقِ لَا مَطَاعِيهَ عَنَّهُ!

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرِّهِ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا
ثَوَابُهُ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعَةٌ أَكْثَرُ مِنْ عِبَادِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِبَادَةُ
أَكْثَرُ مِنْ سَمَاعِهِ؛ فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْيَمَانِ السَّامِعُ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْغَيْبُ.
وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ، خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ
وَزَادَ فِي الدُّنْيَا، فَكُمُ مِنْ مَقْصُودِ رَابِعٍ، وَمَزِيدِ خَاسِرٍ!

إِنَّ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نَهَاهُمْ عَنْهُ، وَمَا أُجِلَ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا
حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، فَذَرُّوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا أَسْفَعَ، فَقَدْ تَكَلَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ،
وَأَمَرَهُمْ بِالْعَمَلِ؛ فَلَا يَكُونَنَّ لِلضُّمُونِ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْ لِي بِكُمْ مِنَ الْفَرُوضِ عَلَيْكُمْ
عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ اعْتَرَضَ الشُّكُّ، وَدَخَلَ الْهَيْبَةُ، حَتَّى كَانَ الَّذِي ضَمِنَ لَكُمْ
قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ، وَكَانَ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وَضَعَ عَنْكُمْ. فَبَادِرُوا الْعَمَلَ،
وَخَافُوا نَفْثَةَ الْأَجَلِ، فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنَ رَجْعَةِ الْعُمُرِ، مَا يُرْجَى مِنَ رَجْعَةِ الرُّزْقِ.
مَافَاتِ الْيَوْمِ مِنَ الرُّزْقِ رُجَى غَدًا زِيَادَتُهُ، وَمَافَاتِ أَمْسٍ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يَرْجَ الْيَوْمُ

رَجَعْتُهُ . الرَّجَاءُ مَعَ الْبُغْضِ ، وَالْيَأْسُ مَعَ الْإِذْنِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَلَا تَكُونُوا
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝

الْبَرْخُ

لقائل أن يقول : أما كونه واصل الحمد له من عبادته بالتمسك به عابدهم فمعلوم ؛ فكيف قال :
إِنَّهُ يَصِلُ النِّعَمُ الْمَذْكُورَةُ بِالشُّكْرِ ، وَالشُّكْرُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادَةِ ؛ وليس من أفعاله ليكون
واصلًا لنعم به ۝

وجواب هذا القائل ، هو أنه لما وثق العباد بالشكر بعد أن جعل وجوبه في حقوقهم
مقررًا ، وبعد أن أقدمهم عليه ، صار كأنه القائل لهم ، فأضافه إلى نفسه توشعًا ، كما يقال :
أطام الأمير الحمد ، وقتل الوالي القصر ؛ فأما حمده سبحانه على البلاء كحمده على الآلاء
فقد تقدم القول فيه . ومن الكلام المشهور : « سبحان من لا يحمده على المكروه سواء » ،
والسر فيه أنه تعالى إنما يفعل المكروه بنا لمصالحنا ، فإذا حمدناه عليه فأما حمدناه على
نعمته أمم بها ، وإن كانت في الظاهر بلية وألما .

فإن قلت : فقد كان الأحسن في البيان أن يقول : « حمده على بلائه ، كأنحمده على آلائه » .
قلت : إنما عكس لأنه جاء باللفظين في معرض ذكر النعم والشكر عليها ، فاستهجن
أن يلقبها بلفظة الحمد على البلاء للنافرة التي تكون بينهما ، فقال : حمده على هذه الآلاء
التي أشرنا إليها ؛ التي هي آلاء في الحقيقة . وهذا ترتيب صحيح منتظم .

ثم سأل الله أن يميته على النفس البطيئة عن المأمور به ، السريعة إلى المهمل عنه ومن
دعاء بعض الصالحين : اللهم إني أشكو إليض عدوًا بين جنبي قد غلب علي .
وفسر قوم من أهل الطريقة والحقيقة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا

الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غَاظَةً ﴿١٠﴾ قَالُوا : أَرَادَ مُجَاهَدَةُ النُّفُوسِ .
ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله : « أبت الأرض إلا حبَّ المال والشرف ، وإن
حبَّهما لأذهبُ بدين أحدكم من دثين صاريين باتا في زريبة غم إلى الصباح ، فإذا
يبقيا ن بها ! »

ثم شرع في استغفار الله سبحانه من كل ذنب ، وعبر عن ذلك بقوله . « بما أحاط به
علمه ، وأحصاه كتابه » ؛ لأنه تعالى عالم بكل شيء ، ومحيط بكل شيء ؛ وقد أوضح ذلك
بقوله : « علم غير قاصر ، وكتاب غير معادر » ، أى غير متق شيئا لا يحصىه ، قال تعالى :
﴿ مَا أَهَذَا الْكِتَابِ لَا يُمْادِرُ صَعِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُحْصَاهَا ﴾ (١) .

ثم قال : « ونؤمن به إيمان من عاين وشاهد » ، لأن إيمان العيان أحسن
وأوثق من إيمان الخبر ، فإنه ليس الخبر كالعيان ؛ وهذا إشارة إلى إيمان العارفين الذين هو
عليه السلام سيدهم ورئيسهم ؛ ولذلك قال : « لو كشف العطاء ما ارددت يقينا » .
وقوله : « نصدقان القول » إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَمْتَدُّ الْقُلُوبُ الطَّيِّبُ
وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٢) وروى : « نصدقان القول » بالسین ، أى ما شهادتان
بالقلب يماصدقان الشهادة باللسان ، ويصدقانها

ثم ذكر أنهما شهادتان لا يحن ميزانهما فيه ، ولا ينقل ميزان رفعا عنه .
أما إنه لا ينقل ميزان رفعا عنه ؛ فهذا لا كلام فيه ؛ وإعنا الشأن في القصيدة الأولى ، لأن
ظاهر هذا القول يشعر بمذهب المرحنة الخالص ؛ وهم أصحاب مقاتل من سليمان ، القائلون إنه
لا يبصر مع الشهادتين معصية أصلاً ، وإنه لا بد من دخول النار من في قلبه ذرة من الإيمان ،

(١) سورة التوبة ١٢٣

(٢) سورة الكهف ١٩

(٣) سورة طه ١٠ .

ولم هل ذلك احتجاج قد ذكرناه في كتب الكلامية ، فنقول في تأويل ذلك إنه لم يحكم بهذا على محرم الشهادتين ، وإنما حكم بهذا على شهادتين مقيدتين ، قد وصفهما بأنهما يصعدان القول ، ويرفعان العمل ، وثبت الشهادتان المقيدتان بذلك القيد ، إنما هما الشهادتان اللتان يقارنهما فعل الواجب وتحبب التقيح ، لأنه إن لم يقارنهما ذلك لم يرتفع العمل ، وإذا كان حكمه عليه السلام بعد خفة مبرر هاميه ، إنما هو على شهادتين مقيدتين لا مطلقتين ، فقد اطل قول من يحمل هذا الكلام حجة المرحنة

ثم أخذ في الوصاة بالتقوى ، وقال : إنما الزاد في الدنيا الذي يزود منه لسفر الآخرة وسها للمعاذ ، مصدر من عدت مكدا ، أي لجأت إليه واعتصمت به .

ثم وصفها - أعنى الزاد والمعاد - فقال : « زاد مُتْلَخ » ، أي يبلُك المقصد والغاية التي تسافر إليها ، ومعاد منجم ، أي يصادف حته النجاح .

دعا إليها أسمع داع : يعنى البارى سبحانه ؛ لأنه أشد الأحياء إسما لما يدهوم إليه وبناء أفضل هاهنا من الرأى ، كما جاء ما أعطاه فقال : وما أولاد المعروف وأت أكرم لى من زيد ، أى أشد إكراما ؛ وهذا المكان أفقر من غيره ، أى أشد إفقارا ، وفى المثل « أفلس من ابن للذلق »^(١) ، ورأى : « دعا إليها أحسن داع » ، أى أحسن داع دعاء ، ولا بد من تقدير هذا للميز لأنه تعالى لا توصف ذاته بالحسن ، وإنما يوصف بالحسن أفعاله .

ووعاها خير واع ، أى من وطأها عنه تعالى وعقلها وأجاب تلك الدعوة ، فهو خير واع . وقيل : عنى بقوله : « أسمع داع » رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعنى بقوله : « خير واع » نفسه ، لأنه أنزل فيه : « وَتَعَبَّيْهَا أَذُنٌ وَأَعْيَةٌ »^(٢) والأوّل أظهر .

(١) فى القاموس : « وابن للذلق من عبد شمس لم يكن يجد بيت ليه ، ولا أبوه ولا أجداده ، فليل : « أفلس من ابن للذلق » .

(٢) سورة الحاقة ١٢

ثم قال : « فاسمع داعيتها » أى لم يبق أحداً من المكلفين إلا وقد أحسمه تلك الدعوة وفازوا عليها ، أفلح من فهمها وأجاب إليها ، لا بد من تقدير هذا ؛ وإلا فأى فوز يحصل لمن فهم ولم يحبب والتقوى : خشية الله سبحانه ومرافقة في السر والعلن ، والخشية أصل الطاعات ، وإليها وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ^(١) وقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ^(٢) . قوله : « حتى أسهرت ليلاليهم » ، وأخليات هواهرم « من قول العرب « نهاره صائم ، وليله قائم » ؛ نقلوا الفعل إلى الظرف ، وهو من باب الاتساع الذى يحرون فيه الظروف بحرى للفعول به ، فيقولون : الذى سهرته يوم الجمعة ، أى سرت فيه ، وقال :

• وهوم شهداءه سليا وطامرا ^(٣) •

أى شهداء فيه سليا ، وقد اتسعا فأضافوا إلى الظروف فقالوا :

• يا سارق اللبنة أهل الدار ^(٤) •

وقال تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرٌ أَكْثَرُ أَلْفِيلٍ وَالْأَنْهَارِ ﴾ ^(٥) فأخرجوها بالإضافة عن الظرفية . قوله عليه السلام : « فأخذوا الراحة النصب » يروى : « فاستبدلوا الراحة » والنصب : المنصب . واستقربوا الأجل : رأوه قريبا .

فإن قلت : لماذا كرر لفظة « الأجل » ، وفي تكرارها مخالفة لقن البيان ؟ قلت : إنه استعملها في اللوضمين بمعنىين مختلفين ، فقوله : « استقربوا الأجل » يعنى للذة . وقوله : « فلا حظوا الأجل » يعنى الموت فيه .

(٢) سورة الطلاق ٢

(١) سورة المجرات ١٢

(٣) الكتاب ١ : ٩ ، ونبه لصح بن طبر ، وكتب :

• قليل سوى طعن النبال نوافله •

(٤) الكتاب لبيد ١ : ٨٩ ، ونبه إلى جس الزبار .

(٥) سورة سبأ ٢٢ .

ويروى : « موتري » و « وموتري » بالشديد . ولا تؤمى جراحه : لانطب
ولا تصلح ، أسوت الجرح ، أى أصلحته . ولا ينقع : لا يروى ؛ شرب حتى قمع ، أى شفى
عليه ، وماء ناعم ؛ وهو كالناجع ، وما رأيت شربة أقمع منها .

والى قوله عليه السلام : « يجمع مالاً يأكل ، ويبقى مالاً يسكن » نظر الشاعر ، فقال :
أموالنا قدوى الميراث نجمعها ودورنا ظراب الدهر نبتئها
وقال آخر :

ألم تر حوشباً أمسى يبئى ببناء نفعه لبي بقية
يؤمل أن يصير عمر نوح وأمر الله بطريق كل ليله

قوله : « ومن غيرها أملك ترى المرحوم مبهوطاً والمعبوط مرحوماً ، أى بصير الفقير غنياً
والغنى فقيراً ، وقد فسرهم قوم فقالوا : أولاد أملك ترى من هو فى باطن الأمر مرحوم ، مبهوطاً
وترى من هو فى باطن الأمر مبهوطاً ، مرحوماً ، أى تحسب ذلك وتنحيلة ؛ وهذا التأويل
غير صحيح ، لأن قوله بعده : « ليس ذلك إلا سيأزل ، وبؤساً تزل » ، بكذبه وبصدق
التفسير الأول .

واضح فيئها ، من أضى الرجل إذا برز الشمس . ثم قال : « لاجأ يركد ولا ماض
يرتد » أى يسترد ويسترجع ، أحده أبو الصاهية فقال :

فلا أنا راجع ما قد مضى لي ولا أنا دافع ما سوف يأتى

والى قوله : « ما أقرب الحى من الميت لعناقه به ، وما أبعد لليت من الحى
لإقطاعه عنه » نظر الشاعر ، فقال :

يا بعيداً عني وليس بعيداً من خلقى به سمع قريب

صيرتُ بين الوردى غريبا كما أنتك تحت الثرى وحيد غريب
فإن قلت : ما وجه تقسيمه عليه السلام الأمور التي عددها إلى الفناء والمنا ،
والغير والمبر ؟

قلت : لقد أصاب الثمرة وطبق المنفصل ؛ ألا تراه ذكر في الفناء رمى المهر الإنسان
عن قوس الردى ، وفي الفناء جمع مالا يأكل ، وبناء مالا يسكن ، وفي المير الفقر بعد الفنى
والفنى بعد الفقر ، وفي المير انقطاع الأجل الأمل ؛ فقد ماط بكل لفظة ما يناسبها .
وقد نظر بعضُ الشراء إلى قوله عليه السلام : « ليس شيء بشر من الشر إلا عقابه » ،
وليس شيء بخير من الخير إلا ثوابه » فقال :

خير البضائع للإنسان مكرمة . تقضى وتركو إذا بارت بضائعه
فان خير خير ، وخير منه فاعلم . والشر شر ، وشر منه حسنة
إلا أن أمر المؤمنين عليه السلام استثنى العقاب والثواب ، والشاعر جعل مكاهما
طاعل الخير والشر .

ثم ذكر أن كل شيء من أمور الدنيا للرغبة وللرهبة ، سماعه أعظم من حياته ،
والآخرة بالعكس ؛ وهذا حق ؛ أما القضية الأولى فظاهرة ، وقد قال القائل :
أهتز عند تمنى وصلها طربا . ورب أمنية أحسلى من الظفر
ولهذا يحرص الواحد منا على الأمر ، فإذا سلمه برّد وفر ، ولم يحده كما كان يظن في
اللذة . ويوصف لنا البلد البعيد عنا بالغصب والأمن والعدل ، وسباح أهله ، وحسن سانه ،
وغار فرجاله ، فإذا سافرنا إليه لم يحده كما وصّف ؛ بل رعا وجدا القليل من ذلك ، ويوصف
لنا الإنسان الفاضل بالعلم بفنون من الآداب والحكم ، ويبالغ الواصفون في ذلك . فإذا
احتبرناه وجدناه دون ما وصّف ؛ وكذلك قد يخاف الإنسان حبسا أو ضربا أو نحوهما فإذا
(١٧ - نهج ٧)

وقع فيها هان ما كان يتخوفه ، ووجد الأمر دون ذلك ، وكذلك القتل ولوث ؛ فإن ما يستعظمه الناس منها حدث أمرها في الحقيقة ، وقد قال أبو الطيب - وهو حكيم الشمره :
 كل مالم يكن من الضئيل في الأثر فليس سهل فيها إذا هو كائن^(١)

ويقال في الثلث : ليسج الخوف تأمن . وأما أحوال الآخرة فلا ريب أن الأمر فيها بالضد من ذلك ؛ لأن الذي يقصده الناس من الجنة ، أنها أشجار وأنهار وما كول ومشروب ، وجماع ، وأمرها في الحقيقة أعظم من هذا وأشرف ، لأن ملاذها الروحية المقارنة لهذه الملاذ المضادة لها أعظم من هذه الملاذ بطلقات عظيمة ، وكذلك أكثر الناس يتوهمون أن عذاب النار يكون أليما وينقضي ؛ كما ينصب إليه المرتبة ، أو أنه لا عذاب بالنار لمسلم أصلا ؛ كما هو قول الخليل من المرتبة ، وأن أهل النار يملكون عذابها فلا يستصرون به إذا تطاول الأمد عليهم ؛ وأمر العذاب أصعب مما يظنون ؛ خصوصا على مذهبنا في الوعيد ؛ ولو لم يكن إلا آلام النفوس باستشمارها سقط الله تعالى عليها ، فإن ذلك أعظم من ملاقة جرم النار لبدن الحي .

وفي هذا الموضع أبحاث شريفة دقيقة ، ليس هذا الكتاب موضوعا لها .
 ثم أمرهم بأن يكفوا من حيان الآخرة ونعيمها بالسمع والخبر ، لأنه لا سبيل ونحن في هذه الدار إلى أكثر من ذلك .

والى قوله : « ما خص من الدنيا وزاد في الآخرة ؛ خير مما خص من الآخرة وزاد في الدنيا » نظر أبو الطيب ، فقال ، إلا أنه أخرج في مخرج آخر :
 بلاد ما اشبهت رأيت فيها فليس يفونها إلا كرام^(٢)

(١) ديوانه ٤ : ٢٤٩

(٢) ديوانه ٤ : ٧٣

فَلَا كَانَ نَقْصُ الْأَهْلِ فِيهَا وَكَانَ لِأَهْلِهَا مِنْهَا التَّكْمُلُ !

ثم قال : « فكم من منقوص في دينه وهو راح في آخرته ، وكم من مزيد في دينه وهو خاسر في آخرته » . ثم قال : « إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتهم عنه ، وما أحل لكم أكثر مما حرّم عليكم » ؛ الجلة الأولى هي الجلة الثانية بعينها ، وإنما أتى بالثانية تأكيداً للأولى وإيضاحاً لها ، ولأن فن الخطابة والكتابة هكذا هو ، وينظم كلنا الجلتين معنى واحد ، وهو أن فيا أحل الله غنى مما حرّم ، بل الحلال أوسع ؛ ألا ترى أن للباح من الآكل والشارب أكثر عدداً وأجناساً من المحرّمات فإن المحرّم ليس إلا الكلب والخنزير وأشياء قليلة غيرها ، والمحرّم من المشروب الخمر وموها من السكر ؛ وما عدا ذلك حلال أكله وشربه ، وكذلك القول في النكاح والتسرى ، فإنها طريقتان متهمتان إلى قضاء الوطر ، والتفاح طريق واحد والطريقتان أكثر من الطريق الواحد .

فإن قلت : فكيف قال : « إن الذي أمرتم به » فسمي الباح مأموراً به ؟

قلت سمى كثير من الأصوليين الباح مأموراً به ، وذلك لاشتراكه مع للأمر به في أنه لا حرج في فعله ، فأطلق عليه اسمه . وأيضاً فإنه لما كان كثير من الأمور التي عدناها مندوباً أطلق عليه لفظ الأمر ، لأن الندوب مأمور به ؛ وذلك كالنكاح والتسرى وأكل اللحوم ؛ التي هي سبب قوة البدن ، وشرب ما يصلح للزواج من الأشربة التي لا حرج في استعمالها . وقال بعض العقلاء نهيه : يابى ؛ إنه ليس كل شيء من اللذة ناهي أهل الخسارة بخسارتهم إلا ناهي أهل المروءة والصيانة بمروءتهم وحيانتهم ؛ فاستقروا بستر الله ودخل إنسان على علي بن موسى الرضا عليه السلام ، وعليه ثياب مرتفعة القيمة ؛ فقال : يا ابن رسول الله ، أتلبس مثل هذا ؟ فقال له : مَنْ حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟

ثم أمر بالسبل والعبادة ، ونهى من الحرص على طلب الرزق ، فقال : إنكم أمرتم بالأول وضمن لكم الثانى ؛ فلا تجعلوا للضمون حصوله لئلا هو المحصوص بالحرص والاجتهاد ؛ بل ينبغي أن يكون الحرص والاجتهاد فيما أمرتم بمسلكه وهو العبادة . وقد جهتم قوم أنه ارتفع « طلبه » بـ « للضمون » ؛ كقولك : للضروب أخوه ؛ وهذا غلط لأنه لم يضمن طلبه ، وإنما ضمن حصوله ؛ ولكنه ارتفع ؛ لأنه مبتدأ وخبره أولى ؛ وهذا المبتدأ والخبر في موضع نصب ، لأنه خبر « يكونن » أو ارتفع لأنه بدل من « للضمون » ؛ وهذا أحسن وأولى من الوجه الأول ؛ وهو بدل الاشتغال .

ثم ذكر أن رجة العمر غير مرجوة ، ورجة الرزق مرجوة ؛ أوضح ذلك بأن الإنسان قد يذهب منه اليوم درهم فيستبصر ؛ أى يكتسب عوضه في الدينار ، وأما « أس » نفسه فتستحيل أن يعود ولا يفتل ، لأن الفد وتؤد المد محسوب من عمره ؛ وليس عوضاً من الأس القاهب . وهذا الكلام يقتضى أن العمر مقدور ، وأن المكاسب والأرزاق إنما هي بالاجتهاد ، وليست محصورة مقدرة ، وهذا يناقض في الظاهر ما تقدم من قوله : « إن الرزق مضمون فلا تحرصوا عليه » ، فاحتاج الكلام إلى تأويل ، وهو أن العمر هو الظرف الذى يوقع لكلف فيه الأعمال للوجهة له للعبادة العظى ، المخصصة له من الشقاوة العظى ؛ وليس له ظرف يوقعها فيه إلا هو خاصة ، فكل جزء منه إذا غاب من غير عمل لما بعد الموت ، فقد مات على الإنسان بغوائره مالا سبيل له إلى استنساكه بعينه ولا احترام مثله ، لأن المثل الذى له إنما هو زمان آخر ، وليس ذلك في مقدور الإنسان ، والزمان للمستقبل الذى يعيش فيه الإنسان لم يكتسبه هو لينسب إليه ، فيقال : إنه حصله عوضاً عما انقضى وذهب من عمره ؛ وإنما هو فضل غيره ؛ ومع ذلك فهو معد ومهيأ لأفعال من العبادة توقع فيه ، كما كان الجزء الماضى معداً لأفعال

توقع فيه ، فليس أحدهما موضوعاً عن الآخر ولا قائماً مقامه ، وأما المنافع الدنيوية كالأكل ،
والشارب والأموال ، فإن الإنسان إذا فاتته شيء منها قَدَّرَ على ارتجاعه بعينه ، إن كانت
عنده باقية ، ومالا تبقى عينه يقدر على اكتساب مثله ، والرزق وإن كان مضموناً من الله
إلا أن الحركة فيه نصيباً ، أما أن يكون شرطاً أو أن يكون هو بذاته من أثر قدرة
الإنسان ، كعركته واعتماده وسائر أفعاله ، ويكون الأمر بالتوكل والنهي عن الاجتهاد في
طلب الرزق على هذا القول ، إنما هو نهى عن الحرص والجشع والتهالك في الطلب ؛
فإن ذلك قبيح يدل على دناءة الهمة وسقوطها .

ثم هذه الأغراض الدنيوية إذا حصلت أمثالها بعد ذهابها قامت مقام الذهاب ، لأن
الأمر الذي يراد الذهاب له يمكن حصوله بهذا للكتيب ؛ وليس كذلك الزمان الذهاب
من العمر ، لأن العبادات والأعمال التي كان أمر معيناً لها ، لا يمكن حصولها اليوم ، على
حدِّ حصولها أمس ، فافترق البايان : باب الأعمال ، وباب الأرزاق .

وقوله : « الرجاء مع الجاني ، واليأس مع الماضي » ، كلام يجري مجرى النثر ، وهو
تأكيد للمعنى الأول ، وجعل الجاني مرحباً ، لأنه لا يعلم غيبه ، قال الشاعر :

مَا مَضَى قَاتَ وَالْقَدْرُ عَيْبُ وَقَدْ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

وقوله : « حق تقاته » ، أى حق تقيته ، أى خوفه ، انتقى بتقى تقية وتقاة ، ووزنها

« قُعْلَةٌ » وأصلها الياء ، ومثلها آخى نعمة : وأنهم نعمة .

(١١٤)

ومن خطبة له عليه السلام في الاستسقاء :

الأصل :

أَللّهُمَّ قَدْ أَنْصَحْتُ جِبَالَنَا، وَأَغْبَرْتُ أَرْضَنَا، وَهَأَنْتِ دَوَابُّنَا، وَتَحَدَّرْتَ فِي مَرَابِضِهَا،
وَجِئْتَ بِجَمِيعِ الشُّكَايِ عَلَى أَوْلَادِهَا، مَوَلَّتِ التَّرَدُّدُ فِي مَرَاتِبِهَا، وَالْحَيْنَ إِلَى مَوَارِدِهَا !
أَللّهُمَّ فَارْحَمْ أَيْنَ الْآثَةِ ، وَحَيْنَ الْحَالَةِ !

أَللّهُمَّ فَارْحَمْ حَبْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا ، وَأُنْيَسَهَا فِي مَوَالِجِهَا !
أَللّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ أَقْتَسَرَتْ هَلَكُنَا حَدَايِرُ السَّيْنِ ، وَأَخْلَفَتْنا عَمَائِلُ
الْجُودِ ؛ فَكُنْتَ الرَّجَاءَ الْمُهْدِئِينَ ، وَالْتِلَاحَ لِمُسْتَقِيمِ .

مَدْعُوكَ حِينَ قَطَعَ الْأَمَامُ ، وَمُنِيعَ الْعِمَامِ ، وَهَلَكَ السَّوَامُ ؛ أَلَا تَوَاحِدُنَا يَا هَالِكَنَا ؛
وَلَا تَتَّحِدُنَا بِذُنُوبِنَا ؛ وَأَنْشُرْ هَلِكُنَا بِرَحْمَتِكَ بِالسَّحَابِ الْمُنْتَفِعِ ، وَالرَّبِّيعِ الْمُنْدِقِ ،
وَالنَّبَاتِ الْمُوْتِقِ ، سَحَابًا وَابِلًا ، نُحْيِي بِهِ مَقْدَمَاتَ ، وَتَرُدُّ بِهِ مَقْدَمَاتَ .

أَللّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ نُحْيِيَّةَ مُرُوبَةٍ ، تَامَّةَ هَامَةٍ ، طَيِّبَةَ مُبَارَكَةٍ ، هَيِّئْ لَنَا مَرِيئَةً مَرِيئَةً ،
زَاكِيًا نَبْتَهَا ، ثَامِرًا فَرْعَهَا ، نَاصِرًا وَرَقَهَا ، تُفِيضُ بِهَا الضَّعِيفُ مِنْ عِبَادِكَ ، وَتُحْيِي بِهَا
الْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ !

أَللّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ تُسَبِّبُ بِهَا عِبَادُنَا ، وَتُحْيِي بِهَا وَهَادُنَا ، وَتُخْضِبُ بِهَا جَنَابُنَا ،
وَتُقِيلُ بِهَا ثِمَارُنَا ، وَتَمِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا ، وَتَنْدِي بِهَا أَفَاصِينَا ، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا ؛
مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ ، وَعَطَايَاكَ الْخَرِيبَةِ ، عَلَى بَرِيَّتِكَ الرَّمِيَّةِ ، وَوَحْشِكَ الْمَهْمَلَةِ . وَأَنْزِلْ
هَلَكُنَا سَمَاءَ مُخْصِيَّةٍ ، يَذَرُّهَا هَاطِئَةً ، بِدَائِعِ الْوَدْقِ مِنْهَا الْوَدْقَ ، وَتَحْفِزُ الْقَطَرُ مِنْهَا

الْقَطَرُ ، غَيْرَ خَلْبٍ بَرَقَهَا ، وَلَا جَهَامٍ عَارِضُهَا ، وَلَا قَزَعٍ رَبَابُهَا ، وَلَا شَفَانٍ ذِهَابُهَا ،
حَقٌّ يُنْصَبُ لِإِمْرَأَةٍ الْمُجْدِبُونَ ، وَيَحْيَا بِرَگَتِهَا لَسِيْتُونَ ؛ فَإِنَّكَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ
مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ لَوْا ، وَتَذْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ أَوْلَى الْخَمِيدُ .

• • •

قال الشريف الرضي رحمه الله تعالى :

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَنْصَاخَتْ حِبَالُنَا » ، أَيْ تَشَقَّقَتْ مِنَ الْعُحُولِ ، يُقَالُ : أَنْصَاخَ
التَّوْبُ ، إِذَا انْشَقَّ . وَيُقَالُ أَيْضًا : أَنْصَاخَ اللَّبْتُ ، وَمَصَاخَ وَصَوَّحَ ؛ إِذَا جَفَّ وَيَبَسَ ؛
كَلَّةٌ يَمْتَنِي .

وقوله : « وَهَامَتْ دَرَابُنَا » أَيْ عَطِشَتْ ، وَالْهَيْامُ : الْمَطْشُ .

وقوله : « حَدَايِدُ السَّيْنِ » مَرْجِعُ حِدَابَيْهَا ، وَهِيَ الدَّائِقَةُ الَّتِي أَنْصَاهَا السَّيْرُ ، فَتَبَّهَ
بِهَا السَّنَةُ الَّتِي فَشَا فِيهَا الْجَذْبُ ، قَالَ ذُو الرِّمَّةِ :

حَدَايِدُ مَا تَنَفَّكَ إِلَّا مُنَاخَظَةٌ قَلَى الْخَسْفِ أَوْ قَرَمِي بِهَا بَلَدٌ أَقْرَأُ^(١)

وقوله : « وَلَا قَزَعٌ رَبَابُهَا » ، الْقَزَعُ : الْقِطْعُ الصَّغَارُ لِلتَّفَرُّقَةِ مِنَ السَّحَابِ .

وقوله : « وَلَا شَفَانٍ ذِهَابُهَا » فَإِنَّ تَقْدِيرَهُ : « وَلَا ذَاتُ شَفَانٍ ذِهَابُهَا » ، وَالشَّفَانُ

الرَّيْحُ الْبَارِدَةُ ، وَالذَّهَابُ : الْأُمْطَارُ اللَّيْنَةُ ، فَحُذِفَ « ذَاتُ » لِيَلِمَ السَّامِعُ بِهِ .

• • •

البُزْج :

يُحْوزُ أَنْ يَرِيدَ بِقَوْلِهِ : « وَهَامَتْ دِرَابُثًا » مَعْنَى غَيْرِ مَا فَسَّرَهُ الشَّرِيفُ الرُّضَى رَحِمَهُ
اللَّهُ بِهِ ، وَهُوَ لُدُّودُهَا وَذَهَابُهَا عَلَى وَجْهِهَا لِشِدَّةِ الْحُلِّ ، يَقُولُ : هَامَ عَلَى وَجْهِهِ ، يَهِيمُ
هَيَّاءً وَهَيَّانًا .

وَالرَّابِضُ : مَبَارَكُ السَّمِ ، وَهِيَ لَهَا كَالْوِاطِنِ لِلْإِبِلِ ، وَاحِدُهَا مَرَبِضٌ ، بِكَسْرِ الْبَاءِ
مِثْلَ مَجْلِسٍ . وَتَجَمَّتْ : صَرَخَتْ . وَحُمِلَ الضَّيِيرُ فِي « أَوْلَادِهَا » أَنْ يَرْجِعَ إِلَى النِّكَالِ ،
أَيَّ كَسْبِجِ النِّكَالِ عَلَى أَوْلَادِهِمْ ، وَحُمِلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْعَوَابَةِ ، أَيْ وَتَجَمَّتْ عَلَى
أَوْلَادِهَا كَسْبِجِ النِّكَالِ ، وَإِنَّمَا وَصَفَهَا بِالتَّحْيِيرِ فِي مَرَابِضِهَا ، لِأَنَّهَا لِشِدَّةِ الْحُلِّ تَصْغِيرُ
فِي مَبَارِكِهَا ، وَلَا تَدْرِي مَاذَا تَصْنَعُ : إِنَّ نَهْضَكُمْ لَتَرَعَى لَمْ تَجِدْ رَعِيًا ، وَإِنْ أَقَامَتْ كَانَتْ
إِلَى انْقِطَاعِ الْمَادَّةِ أَقْرَبُ !

قَوْلُهُ : « وَمَلَّتِ التَّرْدُدُ فِي مَرَاتِسِهَا ، وَالْحَيْنَ إِلَى مَوَارِدِهَا » ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا أَكْثَرَتْ
مِنَ التَّرْدُدِ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي كَانَتْ تَهْدِي مَرَاتِسِهَا فِيهَا فَلَمْ تَجِدْ مَرْتَمًا ، فَلَمَّتِ التَّرْدَادَ إِلَيْهَا ،
وَكَذَلِكَ مَلَّتِ الْحَيْنَ إِلَى النَّدْرَانِ وَاللُّوَارِدِ الَّتِي كَانَتْ تَعْتَادُهَا لِقُشْرَبِ ، فَإِنَّهَا حَقَّتْ إِلَيْهَا
لَمَّا قُدَّتْهَا ، حَتَّى ضَجَعَتْ وَبَلَسَتْ فَلَمَّتْ بِمَا لَا فَائِدَةَ لَهَا فِيهِ .

وَالْآتَةُ وَالْحَاتَةُ : الشَّاءُ وَالنَّاقَةُ ، وَيُقَالُ : مَا لَهُ حَاتَةٌ وَلَا آتَةٌ . وَأَصْلُ الْأَتَيْنِ صَوْتُ
الرَّيْضِ وَشِكْوَاهُ مِنَ الْوَجْبِ ، يُقَالُ : أَنْ يَتَنَّ أَيْنَتَا وَأَنَا وَأَنَا وَأَنَا .

وَاللُّوَالِجُ : لِلدَّخْلِ ؛ وَإِنَّمَا ابْتَدَأَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذِكْرِ الْأَنْعَامِ وَمَا أَصَابَهَا مِنَ الْجَذْبِ
اِقْتِضَاءً بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَلِمَادَةِ الْعَرَبِ ، أَمَّا سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ فَإِنَّهُ قَالَ : « لَوْلَا الْبِهَائِمُ الرِّثَمُ ، وَالصَّبِيَانُ الرِّضْعُ ، وَالشَّيْوُخُ الرِّكْعُ ، لَصَبَتْ

عليكم العذاب صَبًا » ، وقد ذهب كثير من الفقهاء إلى استعجاب إخراج البهائم في صلاة الاستسقاء . وتقدير دعائه عليه السلام : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ حَرَمْتَنا العَيْثَ لِسوءِ أَعْمَالِنَا ، فَارْحَمْ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي لَا ذَنْبَ لَهَا ، وَلَا تَوَاخُذْهَا بِذُنُوبِنَا وَأَمَّا عَادَةُ الْعَرَبِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَصَابَهُمُ الْخُلْ اسْتَسْقَوْا بِالْبَهَائِمِ ، وَدَعَوْا اللَّهَ بِهَا وَاسْتَرْحَمُوهُ لَهَا ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَحْمِلُ فِي أَذْنَابِ الْبَقَرِ السَّلْعَ وَالْعُشْرَ ^(١) ، وَيَصْعَدُ بِهَا فِي الْجِبَالِ وَالنَّالِاعِ الْعَالِيَةِ ، وَكَانُوا يُسْقَوْنَ بِذَلِكَ ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

أَجْعَلْ أَنْتَ بَيِّنُورًا مَلْعَةً ذَرِيصَةً لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالطَّرِ ^(٢)

طَعَنَكَ : رَدِّفَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَأَصْلُ عَكَّرَ عَطَفَ . وَالْمَكْرَةُ . الْمَكْرَةُ ، وَفِي الْحَدِيثِ : قَالَ لَهُ قَوْمٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، يَحْنُ الْفَرَارُونَ . فَقَالَ : « بَلْ أَنْتُمْ الْمَكَّارُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ^(٣) .

وَالْيَتِ الْقَدَى ذَكَرَهُ الرُّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدَى الرِّمَةِ ، لَا أَعْرِفُهُ إِلَّا « حَرَّاجِيحٌ » ، وَهَكَذَا رَأَيْتُهُ مَحْمُودُ بْنُ الْخَشَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَالْحَرْحُوجُ : النَّاقَةُ الضَّامِرَةُ فِي طَوْلٍ .
وَفِيهِ مَسْأَلَةٌ نَحْوِيَّةٌ ، وَهِيَ أَنَّهُ كَيْفَ نَقَصَ النَّفْيَ مِنْ « مَا تَنْفَكُ » وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ ، كَمَا لَا يَحُورُ مَارِالُ زَيْدٍ إِلَّا قَائِمًا ؟ وَجَوَابُهَا أَنَّ تَنْفَكَ هَاهُنَا تَامَةٌ ، أَيْ مَا تَنْفَصِلُ ، وَمِنَاحَةٌ مَنصُوبَةٌ عَلَى الْحَالِ .

قَوْلُهُ : « وَأَخْلَفْتَنَا بِحَايِلِ الْجُودِ » ، أَيْ كَلَّمَا شِئْنَا رِقًا ، وَاحْتَلْنَا مَسْعَابًا ، أَخْلَفْنَاوَلَمْ يَخْطُرْ .
وَالْجُودُ : الْمَطَرُ الْعَزِيزُ . وَرَوَى : « بِحَايِلِ الْجُودِ » بِالضَّمِّ .

(١) السَّلْعُ : نَبَاتٌ ، وَقِيلَ : شَجَرٌ مَرٌّ . وَالْعُشْرُ : شَجَرٌ مِنَ الْعَصَاءِ ، وَلَهُ صَنِيعٌ خَلَوٌ .

(٢) الْقِسْمَانِ ١٠ : ٢٥ ، وَنُسِبَ إِلَى الْوَرْدِ النَّاسِ

(٣) الْتَهْيَاةُ لِابْنِ الْأَثِيرِ ٣ : ١٢٠ ؛ قَالَ فِي شَرْحِهِ : « أَيْ الْكَارَرُونَ إِلَى الْغَرْبِ ، وَالْمَطَّافُونَ نَهْمًا ؟ يَقَالُ الرَّجُلُ الْقَدَى يُولِي مِنَ الْحَرْبِ ثُمَّ يَكُرُّ رَاجِعًا إِلَيْهَا : عَكَرَ وَاعْتَكَرَ » .

والبئس : ذو البؤس . والبلاغ للبئس ، أى الكفاية للطالب .

وتقول : قنط فلان ، بالفتح ، يقنط ويقنط ، بالكسر والغم ، فهو قانط . وفيه لمة أخرى قنيط بالكسر ، يقنط قنطاً ، مثل تيب بقمب نمياً ، وقناطة أيضاً ، فهو قنيط . وقرئ : ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَاطِينَ ﴾ ^(١) .

وإنما قال : « ومنع الغمام » ؛ فبنى الفعل للمفعول به ؛ لأنه كره أن يضيف المنع إلى الله تعالى ، وهو منبع النعم ، فالتعنى حسن الأدب أنه لم يسم الفاعل . وروى « منع الغمام » ، أى ومنع الغمام القطر ، فحذف المفعول . والسوام : المال الراعى .

فإن قلت : ما الفرق بين « تواخذنا » وبين « تأخذنا » ؟

قلت : التواخذة دوت الأخذ ؛ لأن الأخذ الاستئصال ، والتواخذة عقوبة وإن قلت .

والسحاب المبيق : المتبعج بالطر ، ومثله التهمق ، ومثله السماق . والربيع الممدق : الكثير . والنبات المونق : المعجب .

وانتصب « سحاً » على الصدر . والوايل : المطر الشديد .

ثم قال : « نَحْمِيْ بِهِ مَقْدَمَاتِ » ، أى يكاد يتلف بها من الزرع . وترد به مافات ، أى يستدرك به الناس ما فاتهم من الزرع والحراث .

والسقى مؤنثة ؛ وهى الاسم من سقى . والمريضة : الخصبية .

و « نامراً فرعها » : ذو نمر ، كما قالوا : لابن وتامر ؛ ذو لبن وتمر .

وتنمش : ترفع . والتجاء : جمع تجد ، وهو ما ارتفع من الأرض . والوهاد : جمع وهد ، وهو المظلل منها ؛ وروى : « نجادنا » بالنصب على أنه مفعول .

قوله : « وتندى بها أقاصينا » ، أى الأبعاد منا ، وندى بها : ينفع ، ندرت بكذا ، أى اكتمت .

والضواحي : النواحي القريبة من المدينة العظمى . وللرمة : الفقيرة ، أرمل افقر وقد زاده . ووحشتك المهمة : التى لا راعى لها ولا صاحب ولا مشفق .

وسماء غصّة : تُخضِلُ النبات أى تبه ، وروى : « غصّة » أى ذات نبات وزروع غصّة ؛ يقال : اخضلّ النبات اخضلا ، أى اقبل ؛ وإنما أنت السماء وهو المطر وهو مذكر ، لأنه أراد الإمطار . والودق : المطر . ويخيز : يدفع بشدة ؛ وإذا دفع المطر القطر ، كان أعظم وأقزره .

وبرق خلب : لا مطر معه ، وسحاب جهام : لا ماء فيه . والمجدبون : أهل الجذب . والسينون الذين أصابهم السنة وهى الحُلُ والتعطش الشديد .

[صلاة الاستسقاء وآدابها]

واعلم أن صلاة الاستسقاء عند أكثر الفقهاء سنة .

وقال أبو حنيفة : لا صلاة للاستسقاء . قال أصحابه : بنى ليست سنة فى جماعة ، وإنما يجوز أن يصلّى الناس مؤحدا ، قالوا : وإنما الاستسقاء هو الدعاء والاستغفار .

وقال باقى الفقهاء كالشافعى وأبى يوسف ومحمد وغيرهم بخلاف ذلك . قالوا : وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى بالناس جماعة فى الاستسقاء ، فصلّى ركعتين ، جهر بالقراءة فيهما وحول رداءه ورفع يديه واستسقى . قالوا : والسنة أن يكون فى الصلّى ، وإذا أراد الإمام الخروج فليكن وعظ الناس ، وأمرهم بالخروج من الظالم والتوبة من الناس ، لأن ذلك يجمع القطر .

قالوا : وقد روى من عبد الله بن مسعود أنه قال : إذا بُحِسَ المكيال حُبِسَ القطر .
وقال بجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَيُلْعَهُمُ اللَّاعُنُونَ ﴾ ^(١) ، قال : دواب الأرض تلعنهم ،
يقولون : مُتِمَّتَا الْقَطَرُ بِحِطَايَاهُم .

قالوا : ويأمر الإمام الناس بصوم ثلاثة أيام قبل الخروج ، ثم يخرج في اليوم الرابع
وم صيام ويأمرهم بالمُتَدَقَّة ، ويستنق بالصالحين من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه
وآله كما فعل عمر ، ويحضر معه أهل الصلاح والخير ، ويستنق بالشيوخ والصبيان .
واختلفوا في إحراج البهائم ، فهم من استعجب ذلك ، ومنهم من كرهه . ويُكره
إحراج أهل القمة ، فإن حضروا من عند أنفسهم لم يعموا . والمُتَلُّ والسواك في صلاة
الاستسقاء عندهم مسنونان ، ولا يستعجب فيهما التطيب ، لأن الحلال لا يقتضيه .
وينسى أن يكون الخروج متم اضع وحشوع وإخبات ، كما خرج رسول الله صلى الله
عليه وآله للاستسقاء .

قالوا : ولا يؤذن هذه الصلاة ولا يقام ، وإنما ينادى لها : الصلاة جامعة وهي
ركعتان كصلاة العيد ، يكبر في الأولى سبع تكبيرات ، وفي الثانية خمس تكبيرات .
قالوا : ويحطب بعد الصلاة خطبتين ، ويكون دعاء الاستسقاء في الخطبة الأولى .
قالوا : فيقول : اللهم اسقنا غيثا مغيثا ، هيثا مريثا مريثا ، عذقا محلا طيبقا ، متعا
دائما . اللهم اسقنا الميث ، ولا تجعلنا من القنطين . اللهم إن بالعباد والبلاد من اللأواء
والضنك والجهد مالا نشكوه إلا إليك . اللهم أنبت لنا الزرع ، وأحز لنا الضرع ،
واسقنا من بركات السماء . اللهم اكشف عنا الجهد والجوع والعري ، واكشف عنا
مالا يكشفه غيرك . اللهم إنا نستفرك ؛ إنك كنت ضارا ، فأرسل السماء
عليها مطرا .

قالوا: ويستحب أن يستقبل القبلة في أثناء الخطبة الثانية، وبحول رداءه فيجعل مائل الأيمن على الأيسر، وما على الأيسر على الأيمن تفتولاً بتحول الحال. وكذا روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله فعل، ويستحب للناس أن يحولوا أرديتهم مثله، وبتركوها كما هي، ولا يبدوها إلى حالها الأولى إلا إذا رجعوا إلى منازلهم.

ويستحب أن يدعو في الخطبة الثانية سرّاً فيجمع بين الجهر والسر، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُرِّرْتُ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَصَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْحَمْرِ مِنَ الْقَوْلِ^(١)﴾. قالوا: ويستحب رفع اليد في هذا الدعاء، وأن يكثر من الاستغفار لقوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ إِنَّهُ كَانَ عَفَّارًا ۖ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا^(٢)﴾، فإن صلوا واستسقوا فلم يسقوا طادوا من الماء، وصلوا واستسقوا، وإن سقوا قبل الصلاة صلوا شكراً وطلباً للزيادة.

قالوا: ويستحب أن يقفوا تحت المطر حتى يصبهم، وأن يحسروا له عن رؤوسهم؛ وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله حَسَرَ عَنْ رَأْسِهِ حَتَّى أَصَابَهُ مَطَرُ الاسْتِسْقَاءِ. ويستحب إذا سال الوادي أن يمشوا فيه، ويتوضؤوا منه.

وقد استحب قوم من الفقهاء أن يخرج الناس للاستسقاء حفاة حاسرين، والأكثر على خلاف ذلك.

فأما مذهب الشيعة في هذه المسألة فإن يستقبل الإمام القبلة بعد صلاة الركعتين، فيكبر الله مائة تكبيرة، ويرفع بها صوته ويكثر من حضر معه، ثم يلتفت عن يمينه فيسبح الله مائة تسبيحة، ويرفع بها صوته، ويسبح معه من حضر، ثم يلتفت عن يساره فيهلل الله

(١) سورة نوح ٩

(٢) سورة الأنعام ٦٣

(٣) سورة نوح ١٠، ١١

مائة مرة يرفع بها صوته ، ويقول من حضر مثل ذلك ، ثم يستقبل الناس بوجهه ، فيحمد الله مائة مرة ، يرفع بها صوته ويقول معه من حضر مثل ذلك ؛ ثم يخطب بهذه الخطبة للرؤية عن أمير المؤمنين عليه السلام في الاستسقاء ، فإن لم يتمكن منها اقتصر على الدعاء .

[أخبار وأحاديث في الاستسقاء]

وجاء في الأخبار الصحيحة رؤيا رقيقة في الجاهلية ؛ وهي رقيقة بنت أبي صفيان ابن هاشم بن عبد مناف^(١) ، قالت رقيقة : تقابمت على قريش سنوت أقحلت^(٢) للضرع وأرقت للمظم ، فيينا أماراة^(٣) - اللهم - أو مهومة^(٤) [ومى منوى]^(٥) ، إذا أنا سائف صيت^(٦) بصرخ [صوت صهيل]^(٧) : يامعشر قريش ؛ إن هذا النهي المبسوث فيكم قد أنظتكم أيامه ، وهذا إبان مجومه^(٨) ؛ غيها^(٩) بالخصب والحيا^(١٠) . ألا فانظروا رجلا منكم عظيما جئما^(١١) ، أبيض بضاً ، أو طف الأهداب^(١٢)

(١) وكانت لغة عبد المطلب بن هاشم .

(٢) أقحلت ، من فعل قحولا ، وفعل قحلا إذا يس .

(٣) الرلود : النوم فالليل المستحكم المنند ؛ ومنه ألوم : طريق مرقد ؛ إذا كان بهناً مننداً .

(٤) هوموا وتهوموا ؛ إذا حزوا همهم من الناس .

(٥) من الفائق .

(٦) الصيت : فيعل ، من صات بصوت وصات كالت من مات ، ويقال في معناه : صات وصات ومصوات .

(٧) الصهل : الذي في صوته ما ينحب يحدته ؛ وهو مستند في السبع .

(٨) إبان مجومه : وقت ظهوره ، وهو غلغل ، من أب الشيء إذا تها .

(٩) غيها ، بألف مزحمة ، ويجوز التوين والتكثير ، أى عمل .

(١٠) الحيا : الطر ؛ لأنه حياة الأرض .

(١١) الفائق : « طوالا » .

(١٢) أو طف الأهداب : طويها .

سهل الخدين ؛ أشمّ العرينين ، له سُنَّةٌ ^(١) تهدي إليه . ألا فليخلص ^(٢) هو وولده ،
وليدلف إليه من كل بطن رجل . ألا فليشئوا ^(٣) عليهم من الماء ، وليمشوا من الطيب ،
وليطوفوا بالبيت سبعا ؛ وليكن فيهم الطيب الطاهر [لذاته] ^(٤) . فليستق الرجل ،
وليؤمن القوم . ألا فيئتم ^(٥) إذا ما شئتم .

قالت : فأصبحتُ - علم الله - مذعورة قد ^(٦) قت حليدي ، وولّ عقي ، فالتصصت
رؤياي على الناس ، فذهبت في شِعَاب مكة ؛ فوالحرمة والحرم ؛ إن بقي أبطحي إلا
وقال : هذا شبة الحمد ^(٧) .

فتنامت ^(٨) رجال قريش ، واختص إليه من كل بطن رجل ، فشتوا عليهم ماء ،
ومسوا طيبا ، واستلموا وأطوفوا ، ثم ارتقوا أبا قيس ، وطبق القوم بذفون حول ^(٩)
عبد المطلب ، ما إن يذكرك ^(١٠) منهم مظهر ^(١١) ؛ حتى استقرتوا بذروة الجبل ،
واستكفوا ^(١٢) جانيبه .

فقام فاعتضد ابن ابنه محمدا صلى الله عليه وآله ، فرفعه على عاتقه ؛ وهو يومئذ غلام

(١) الفائق : له صفة .

(٢) فليخلص : فليتبر هو وولده من الناس .

(٣) من الماء : صب على رأسه .

(٤) زيادة من الفائق ؛ قال في شرحه : «بعض أن مولده وموالده من مضي من آجاله كلها موصوف بالطهر
والزكاة ، أو يراد أنزابه ، وذكر الأعراب أسلوب من أساليب في تثبيت الصفة وتمكينها .»

(٥) غتم : طرتم .

(٦) قت شعري : نقص .

(٧) قال الزمخشري : اسم عبد المطلب عامر ؛ وإنما قيل له شبة الحمد لشبهه كانت في رأسه ؛
وعبد المطلب ، لأن هاشمًا تزوج سلمى بنت زيد النضارية ، فولدته ، فلما تولي هاشم وشب الغلام أنزعه
المطلب عنه من أمه ، وأردنه على راحلته ، ولهم به مكة . فقال الناس : أردب للمطلب عمه .

(٨) التام : التوافر .

(٩) الدفيع : للسرير .

(١٠) اللؤلؤ ، بالإسكان : التؤدة ؛ أي لا يدرك إبراهيم إلا طاء .

(١١) استكفوا : أحذقوا ؛ من السكة وهي ما استدار .

قد أيفع أو كَرَب^(١) ، ثم قال : اللهم سلا الخلة ، وكاشف الكرب ، أنت عالم غير مُعَلَّم ،
ومستول غير مبطل ، وهذه عبادتك^(٢) وإماؤك مذارات^(٣) حرَمِك ، بشكون إليك
سَنَتَهُم التي أذهبت الخلف والظلف ، فاسمِنَ اللهم ، وأمطرِنَ علينا غيثا مُفْدِقًا مريحا
سَعًا طَبَقًا دراكا .

قالت : فورب الكمية ملراموا حتى اغمرت السماء بأمها واكتظ الوادي بشجيجه^(٤)
وانصرف الناس يقولون لمبد المطلب : هيتا لك سيد البطحاء !
وفي رواية أبي عبيدة معمر بن النخعي قال : فسمعنا شيخان^(٥) قريش وجلتها :
عبد الله بن جُدعان وحزب بن أمية وهشام بن المغيرة ، يقولون لمبد المطلب : هيتا
لك ، أبا البطحاء^(٦) !

وفي ذلك قال شاعر من قريش وقد روى هذا الشعر لرفيقة :
بشيرة الحمد أسقى الله بِلْدَنَنَا وقد قدنا الحيا واجلوز الطر^(٧)
بجاد بالساء وسمى له سبل^(٨) سعا ، فعاثت به الأنعام والشجر^(٩)



وفي الحديث من رواية أنس بن مالك : أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله
صلى الله عليه وآله ، فقام إليه رجل وهو يحطب يوم الجمعة ، فقال : يا رسول الله ، هلك
الشاء ، هلك الزرع^(٩) ، ادعُ الله لنا أن يسقينا ، فدعا عليه السلام بده ، ودعا واستسقى ،

- (١) كرب ، أي قرب من الإيقاع .
- (٢) المداء والمبدى : المبد .
- (٣) المذارات : جمع المذرة ؛ وهي النماء .
- (٤) التنجيع : التجويع ، أي للمصوب .
- (٥) الشيخان : جمع شيخ ، كالضيفان في جمع ضيف .
- (٦) الخبر في الفائق ٢ : ٣١٤ - ٣١٧ .
- (٧) اجلوز الطر : أي امتد وقت تأخره وانقطاعه .
- (٨) سبل : أي سطر حود عاقل .
- (٩) سنن أبي داود : « هلك الكراع ، هلك الشاء » .

وإن السماء كمثل الزجاج ، فهاجت ريح ثم أنشأت سحاباً ، ثم اجتمع ، ثم أرسلت عزّاليتها^(١) ، فخرجنا نحو موضع المساء حتى أتينا منازلنا ، ودام القطر ، فقام إليه الرجل في اليوم الثالث . فقال : يا رسول الله ، نهضت البيوت ، ادع الله أن يهبه عنا . فبسم رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم رفع يده : وقال : « اللهم حوالينا ولا علينا » . قال أنس : هو الذي بهت محمداً بالحق ، لقد نظرت إلى السحاب ، وإنه لقد انحأ حول المدينة كالإكليل^(٢) .



وفي حديث عائشة أنه عليه السلام استسقى حين بدأ قرن الشمس ، فقع على المبر ، وحيد الله وكثره ، ثم قال : إنكم شكوتُم جذبَ دياركم ، وقد أمركم الله أن تدعوه ، ووعدكم أن يستجيبَ لكم فدعوه . ثم رفع صوته فقال : « اللهم إنك أت العى ، ونحن الفقراء ، فأزِلْ علينا العيث ، ولا تجعلنا من القنطين . اللهم اجعل ما تنزله علينا قوة لنا ، وبلاءاً إلى حين ؛ برحمتك يا أرحم الراحمين » . فأنشأ الله سحاباً ، فرعدت وبرقت ، ثم أمطرت ، فلم يأت عليه السلام منزله ، حتى سالت السيول ، فلما رأى سرعته إلى السكن صعدك حتى بدت نواجده ، وقال : أشهد أني عند الله ورسوله ، وأن الله على كل شيء قدير^(٣) .



ومن دعائه عليه السلام في الاستسقاء وقد رواه الفقهاء وغيرهم : « اللهم اسقنا وأغننا ، اللهم اسقنا غيثاً مُمِيناً ، وحيّاً ربيعاً ، [وحداً]^(٤) طمّناً ، عدفاً مُعَدفاً^(٥) ، مَوْثِقاً^(٦) علماء ،

(١) المراد في الأصل : جمع مزل . وهو مصدق من الراوية ، ويريد شدة وقع المطر . على التشبيه .

(٢) الحديث في سنن أبي داود ٩ : ١٦ ، مع اختلاف في الرواية .

(٣) الحديث في سنن أبي داود ١ : ١٦ ، مع اختلاف الرواية أيضاً .

(٤) من الفائز ، والحداء : والطلق ماله .

(٥) الغنى . الكثير المطر .

(٦) مَوْثِقاً : مصحاً .

هَيْبَتَا مَرِيَّتَا ، مَرِيْعَا مَرِيْعَا^(١) مَرْنَعَا^(٢) ، وَابِلَا سَابِلَا^(٣) سَهْلَا ، مَجَلَلَا^(٤) ، دَرَا ، نَافِعَا
غَيْر ضَارٍّ ، عَاجِلَا غَيْر رَآثِتٍ^(٥) . غَيْثَا - اَللّٰهُمَّ - تَحِيَّ بِهٖ الْعِبَادَ ، وَتَنْفِثْ بِهٖ الْبَلَادَ ،
وَتَجْمَلْهُ بِلَاغَا لِلْعَاضِرِ مِنَّا وَالْبَادِ ؛ اَللّٰهُمَّ اَنْزِلْ عَلَيْنَا فِيْ اَرْضِنَا زَيْفَتَهَا ، وَاَنْزِلْ عَلَيْنَا فِيْ اَرْضِنَا
سَكْنَهَا . اَللّٰهُمَّ اَنْزِلْ عَلَيْنَا مَآءَ طَهْرًا ، فَاحِيٍّ بِهٖ بَلَدَةً مَّيْمَنًا ، وَاسْقَ مَا خَلَقْتَ لَنَا اَنْسَامًا
وَاَنْفَاسًا كَثِيْرًا^(٦) .



وروى عبد الله بن مسعود أن عمر بن الخطاب خرج يستقي بالمعاس ، فقال : اَللّٰهُمَّ
اِنَّا نَتَقَرَّبُ اِلَيْكَ بِهَمِّ نَبِيِّكَ وَقَفِيَّةٍ^(٧) آيَاتِهِ^(٨) وَكَبِيْرٍ رَّجَاهُ ، فَاِمَّاكَ قُلْتُ ، وَقَوْلَكَ اَلْحَقُّ :
(وَاَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيْمَتَيْنِ فِي الدَّيْفَةِ ...) الْآيَةُ ، فَحَفَظْتُهُمَا لِصَلَاحِ اَبِيْهِمَا ،
فَاَحْفَظْ اَللّٰهُمَّ نَبِيَّكَ فِيْ مَنَّةٍ قَدْ وَفَّقَا بِهٖ اِلَيْكَ مُسْتَغْفِرَيْنِ وَمُسْتَغْفَرَيْنِ . ثُمَّ اَقْبَلَ عَلَى
النَّاسِ ، فَقَالَ : اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ اِنَّهٗ كَانَ خَفِيْرًا .

قال ابن مسعود : رَأَيْتُ الْمَعَاسَ يَوْمَئِذٍ وَقَدْ طَالَ حُمُرُ ، وَهَيْبَتَاهُ تَنْضَعَانِ ، وَسَهْلَاهُ
تَجُولُ عَلَى صَدْرِهِ ؛ وَهُوَ يَقُولُ : اَللّٰهُمَّ اَنْتَ الرَّامِيْ فَلَا تَهْمِلُ الضَّآلَّةَ ، وَلَا تَدْعُ الْكَبِيْرَ
بِدَارٍ مَّضِيْعَةٍ ، فَتُدْخِرَ عَ الصَّغِيْرَ ، وَرَقَّ الْكَبِيْرُ ، وَارْتَفَعَتِ الشُّكُوْى ، وَاَنْتَ تَعْلَمُ السَّرَّ
وَالْحَقَّ . اَللّٰهُمَّ اَغْنِهِمْ بِفِيْئَتِكَ مِنْ قَبْلِ اَنْ يَقْنَطُوْا فَيُهْلِكُوْا ، اِنَّهٗ لَا يَبَاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللّٰهِ
اِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُوْنَ^(٩) .

(١) للريح : ذو المראה ؛ وهي الحصب . والريح : التي يرسم من الارياض ؛ من دبت بالكلية
وأرسلت .
(٢) للريح : التي تهب ما يرشح فيه .
(٣) السابل : من قولهم : سابل سابل ؛ أي سطر سطر .
(٤) المجلل : الذي يجلل الارض بماله أو بعبادته .
(٥) الرأثت : الطوى .
(٦) العائلي قرطخسرى ١ : ٣١٧ ، ٣١٨ .
(٧) قفية آياته : تلوم وتابعهم .
(٨) كبر قومه : أقدم في النسب .
(٩) الخبر في القائي ٧ : ٣٦٦ .

قال : قنشات طريرة^(١) من معاب ، وقل الناس : تروون ترون ! ثم تلاعت واستتمت
ومشت فيها ريج ، ثم هدت^(٢) ودرت ، فواقة ما يرحوا حق اعتلقوا الأحذية ، وقلصوا
للآزر ، وطقق الناس بلوذون بالعباس ، يسحون أركانه ويقولون : هيننا لك ساقى
الحرمين^(٣) .

(١) الطريرة : تصغير طرة ، وهي القطعة المستطيلة من المعاب ؛ شبهت بطرة التوب .
(٢) هدت من الهدء ؛ وهي صوت ما يقع من السقاء .
(٣) قال الزعفراني : « ساقى الحرمين بهذه السقيا » .

(١١٥)

الأجل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَرْسَلَهُ دَائِمًا إِلَى الْخَلْقِ ، وَشَهِيدًا عَلَى الْخَلْقِ ، فَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ ، غَيْرَ وَانٍ
وَلَا مُقَصِّرٍ ، وَشَهِيدًا فِي أَفْئِدَةِ أَعْدَائِهِ ، غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ ، إِمَامٌ مَنِ اتَّقَى ، وَبَصَرٌ
مَنْ أَهْتَدَى .



البنرخ :

قوله : « وَشَهِيدًا عَلَى الْخَلْقِ » ، أى : يشهد على القوم الذين نعت إليهم ، وشهد لهم ،
فيشهد على العاصي بالمعصيان والخلاف ، ويشهد للطيع بالإطاعة والإسلام ، وهذا من
قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى
هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ^(١) ، ومن قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُ عَائِيهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ بِهِمْ ﴾ ^(٢) .
فإن قلت : إذا كان الله تعالى عالمًا بكل شيء ، ومالكًا لكل أحد ، فأى حاجة
إلى الشهادة ؟

قلت : اس عسكر أن يكون في دهر مصحة للمكلفين في أدياسهم ، من حيث إله
قد تقرّر في عقول الناس ، أن مَنْ بغوم عليه شاهد بأمر منكر قد فعله ، فإنه يحزى

(١) سورة النساء ٤١ .

(٢) سورة المائدة ١١٧ .

ويجعل وتنقطع حجته ، فإذا طرق أسماعهم أن الأنبياء تشهد عليهم ، والملائكة الحافظين
تكتب أعمالهم ، كانوا عن مواجهة القبيح أبعد .

والروائي : الفاتر الكال . والواهن : الضعيف .

والمعذر : الذي يعتذر عن تقصيره بنير عنده ؛ قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمَعْذُرُونَ مِنَ
الْأَعْرَابِ ﴾ ^(١) .

• • •

الأصل :

منها :

وَلَوْ تَمَدُّنَ مَا أَعْلَمُ بِمَا طَوَى عَنْكُمْ غَيْبُكُمْ ؛ إِنْ تَخَرَجْتُمْ إِلَى الْمُعْتَدَاتِ ؛
تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ، وَتَلْتَمِذُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَرْكُمُ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ
لَهَا ، وَلَا خَالِفَ عَلَيْهَا ، وَلَهَمْتُ كُلَّ أَمْرٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ ؛ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى قَبْرِهَا ؛
وَلَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ ، فَنَاءَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ ، وَنَشَنَّتْ
عَلَيْكُمْ أُمُورُكُمْ .

وَلَوِ دِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ ؛
قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيَّامِينَ الرَّأْيِ ، مَرَّاجِيحُ الْحُلُمِ ، مُقَاوِيلُ بِالْحَقِّ ، مُتَارِكُ اللَّبَنِ ، مَصُورَا
قَدُمَا عَلَى الطَّرِيقَةِ ، وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمُحَبَّةِ ، فَظَمِرُوا بِالْعَقَبِ الدَّائِمَةِ ، وَالْكَرَامَةِ
الْبَارِدَةِ .

أَمَّا وَاللَّهِ لَيْسَ طَرٌّ عَلَيْكُمْ عَلَامٌ تَقِيغِي الدِّبَالُ الْمَيَّالُ ، بِأَكُلِ خَيْرَتِكُمْ ،
وَبُدَيْبِ شَحْمَتِكُمْ . إِيهَ أَبَا وَدَّحَةَ !

قال الرضى رحمه الله تعالى :

أَلْوَذَحَةٌ : أَخْتَفَاءٌ ؛ وَهَذَا الْقَوْلُ يُؤْمَرُ بِهِ إِلَى الْحَبَّاجِ ، وَلَهُ مَعَ أَلْوَذَحَةٍ حَدِيثٌ
لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ .

• • •

الْبَيْخُ :

الصميد : التراب ، ويقال : وَجَّهَ الْأَرْضَ ، وَاجْمَعَ صُعْدَ وَصُعْدَاتِ ، كَطَرِيقَ وَطَرِيقِ
وَطَرُقَاتِ . وَالْإِلْتِدَامُ : ضَرْبُ النَّسَاءِ صَدُورَهُنَّ فِي النَّيَاحَةِ . وَلَا خَالَفَ عَلَيْهَا :
لَا مُسْتَخْلَفَ .

قوله : « وَلَمَسْتُ كُلَّ أَمْرٍ مِنْكُمْ غَمٌّ » ، أَيْ أَذَابْتَهُ وَأَعْلَنَتْهُ ، هَمَّتُ الشَّعْمَ ،
أَيْ أَذْبَتَهُ . وَيُرْوَى : « وَلَمَسْتُ كُلَّ أَمْرٍ مِنْكُمْ » وَهُوَ أَصَحُّ مِنَ الرَّوَايَةِ الْأُولَى ؛ أَمَتَى
الْأَمْرَ ، أَيْ أَحَزَنَتْنِي .

وتاء عن فلان رآيه ، أَيْ عَرَبَ وَصَلَ .

ثم ذكر أنه يؤد ويصن أن يفرق الله بينه وبينهم ، ويلحقه بالنبي صلى الله عليه وآله
وبالصالحين من أصحابه ، كحمزة وجعفر عليهما السلام وأمثالهما ممن كان أمير المؤمنين يثق
عليه . ويحمد طريقته من الصعابة . فصوا قُدُماً ، أَيْ مُتَقَدِّمِينَ غَيْرَ مُتَرْجِّئِينَ وَلَا مُرَدِّينَ ^(١) .

وأوجفوا : أَسْرَعُوا . ويقال : غَنِيمةٌ بَارِدَةٌ وَكَرَامَةٌ بَارِدَةٌ ، أَيْ لَمْ تَتَوَخَّذْ بِحَرْبٍ وَلَا عُسْفٍ
وَذَلِكَ لِأَنَّهُ السَّكَنُ بِالْحَرْبِ جَارٍ فِي الْمُنَى لَا يَلَاقِي وَيَمَانِي فِي حَصُولِهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ .

وغلام ثقيف المشار إليه ، هُوَ الْحَبَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ . وَالْقِيَالُ : الثَّانِي ، وَأَصْلُهُ مِنَ
« ذَال » أَيْ تَبَغَّرَ ، وَجَرَّ ذَيْلَهُ عَلَى الْأَرْضِ . وَالْمَيَالُ : الظَّالِمُ .

وَيَا كُلَّ خَيْرَتِكُمْ : بِسِتَاصِلِ أَمْوَالِكُمْ . وَيَذِيبُ شَحْمَتَكُمْ مِنْهُ ؛ وَكَلَّتَا
الْمُفْتَخَتَيْنِ اسْتِمَارَةً .

(١) يقال : مُرَدُّ الرَّجُلِ مِنْ قُرْبِهِ ؛ إِنَّمَا أَحْبَبَ وَمَسَكَ .

ثم قال له كالمخاطب لإسان - ضرب بين يديه : « إيه أبوا ذحة » ، إيه كلة يستزاد بها من الفعل ، تقديره : زدوها أيضا ما عندك ، وضدّها إليها ، أى كفت وأمسك .
قال الرضى رحمه الله : والوذحة الخنفساء ؛ ولم أسمع هذا من شيخ من أهل الأدب ، ولا وجدته في كتاب من كتب اللغة ، ولا أدرى من أين نقل الرضى رحمه الله ذلك !
ثم إن المفسرين بعد الرضى رحمه الله قالوا في قصة هذه الخنفساء وجوها :
منها أن الحجاج رأى خنفساء تدب إلى مصلاه ، فطردها فمادت ، ثم طردها فمادت ، فأخذها بيده ، وحذف بها ، فقرصته قرصا ورمت يده بها وربما كان فيه حشمه ، قالوا :
وذلك لأن الله تعالى قتله بأهون مخلوقاته ؛ كما قتل عمرو بن كدعان بالبقعة التي دخلت في أهله ، فكان فيها هلاكه .

ومنها أن الحجاج كان إذا رأى خنفساء تدب قريبة منه ، يأمر غلامه بإسعادها ، ويقول : هذه وذحة من وذح الشيطان ، تشبيها لها بالبرقة ، قالوا : وكان مفرى بهذا القول ، والوذح : ما يتعلق بأذناب النساء من أسرارها فيحف .

ومنها أن الحجاج قال وقد رأى خنفساءات محتمات : وأعجباً لمن يقول إن الله خلق هذه ! قبل : فمن خلقها أيها الأمير ؟ قال : الشيطان ، إن ربكم لأعظم شأناً أن يخلق هذه الودح ! قالوا : لمعها على « قمل » كبذنة وبدن ، فنقل قوله هذا إلى الفقهاء في عصره ، فأكفروه .

ومنها أن الحجاج كان مثاراً^(١) ، وكان يمسك الخنفساء حية ليشتق بحركتها في الموضع حكاًكه . قالوا : ولا يكون صاحب هذا الداء إلا شائناً مبعضاً لأهل البيت . قالوا : ولست أقول كل مبعض فيه هذا الداء ، وإنما قلنا : كل من فيه هذا الداء فهو مبعض .
قالوا : وقد روى أبو عمر الزاهد - ولم يكن من رجال الشيعة - في أماليه وأحاديثه عن السيارى

(١) وحل مثار : نعت سوء .

عن أبي خزيمة الكاتب ، قال : ما فتننا أحدا فيه هذا الداء إلا وجدناه ناصيبا .

قال أبو عمر : وأحبرني المطافى عن رجاله ، قلوا :

مثل جعفر بن محمد عليه السلام من هذا الصنف من الناس ، فقال رحم منكوسة يؤتى ولا يأتي ؛ وما كانت هذه الخصلة في ولي لله تعالى قط ؛ ولا تكون أبدا ، وإنما تكون في الكفار والفاسق والناصب للطاهرين .

وكان أبو جهل عمرو بن هشام الخزرمي من القوم ؛ وكان أشد الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، قالوا : ولقد قال له حنبل بن ربيعة يوم بدر : يا مُصَفِّرَ أسفه (١) .

فهذا مجموع ما ذكره للفسرون ، وما سمعته من أفواه الناس في هذا اللوضع ، ويطلب حل غلبي أنه أراد معنى آخر ؛ وذلك أن عادى العرب أن تكفى الإنسان إذا أرادت تعظيمه بما هو مغلة التعظيم ، كقولهم : أبو الهول ، وأبو اللقحام ، وأبو اللقوار ، فإذا أرادت تحقيره وانقض منه كنفته بما يستحق ويستهان به ، كقولهم في كنية يزيد بن معاوية : أبو زنة ، يمتنون القرد ، وكقولهم في كنية سعيد بن حنفى البغارى المحدث : أبو الفار ، وكقولهم للطفيل : أبو لقمة ، وكقولهم لعبد الملك : أبو الله بان لبحره ، وكقول ابن بسام لبعض الرؤساء :

فأنت لعمري أبو جعفر ولكننا نخدع الفاء منه

وقال أيضا :

لثم دَرِنُ الثوبِ نثيف القصب والقِدْرِ

أبو الفتن ، أبو الدفر ، أبو البعر ، أبو الجعر

فلما كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلم من حال الخجاج نجاسته بالمعاصي والذنوب ؛

التي لو شوهدت بالبصر لكانت بمنزلة البحر المتصيق بشمر الشاء ، كناه « أبو ودحة »
ويمكن أيضاً أن يكنى بذلك لدمامته في نفسه ، وحقارة منظره ، وتشويه حلقته ، فإنه
كان قصيراً دميماً نحيفاً ، أخفش العينين معوج الساقين ، قصير الساعدين ، مجدور الوجه ،
أصلع الرأس ، فكناه بأحقر الأشياء ، وهو البهرة .

وقد روى قوم هذه اللفظة بصيغة أخرى ، فقالوا : « إيه أبودجة » ؛ قالوا : واحدة
الأوداج ، كناه بذلك لأنه كان قتلاً يقطع الأوداج بالسيف ، ورواه قوم « أباحرة »
وهي دويبة تشبه الخرباء قصيرة الظهر ؛ شبه بها .

وهذا وما قبله ضيف ، وما ذكرناه نحن أقرب الصواب .

(())

—————

(١١٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

فَلَا أَمْوَالَ بَذَلْتُمْوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا ، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا ،
تَكْرُمُونَ بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَا تُكْرِمُونَ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ !
فَاعْتَبِرُوا بِزُؤْلِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَأَعْطَاكُمْ عَنْ أَوْصِلِ إِخْوَانِكُمْ !



الشرح :

انتصاب « الأموال » بفعل مقدر دل عليه « بذلتموها » وكذلك « أنفس » ،
يقول : لم تبدلوا أموالكم في رضا من رزقكم لها ، ولم تخاطروا بأنفسكم في رضا الخالق
لها ، والأولى بكم أن تبدلوا المال في رضا رازقه ؛ والنفس في رضا خالقها ، لأنه ليس
أحدٌ أحق منه بالمال والنفس وبذلها في رضا .

ثم قال : من المعجب أنكم تطلبون من عباد الله أن يكرمواكم ويطيعواكم لأجل الله ،
وانتائكم إلى طاعته ، ثم إنكم لا تكرمون الله ولا تطيعونه في نفع عباده ،
والإحسان إليهم .

ومحصل هذا القول : كيف تسيئون الناس أن يطيعواكم لأجل الله ؛ ثم إنكم أنتم
لا تطيعون الله ، الذي تكلفون الناس أن يطيعواكم لأجله !
ثم أمرهم باعتبارهم بنزولهم منازل من كان قباهم ، وهذا مأخوذ من قوله

تعالى : ﴿ وَكَذَّبْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ ^(١).

ودوى من « أصل إخوانكم » ، وذلك بموت الأب ، فإنه يقطع أصل الأخ الواشع
بينه وبين أخيه ، والرواية الأولى أظهر .

(١١٧)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَنْتُمْ الْأَنْصَارُ عَلَى الْخَلْقِ ، وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَالْجَنَنُ يَوْمَ النَّاسِ ، وَالْإِطَاعَةُ
دُونَ النَّاسِ ؛ بِكُمْ أَضْرِبُ الدَّيْرَ ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْقَبِيلِ ؛ فَأَعِيذُونِي بِمَنْصَحَةِ خَلِيفَةٍ
مِنْ أَلَمِشْ ، سَلِمَتِهِ مِنَ الرَّبِّ ؛ فَوَاقِدِي إِنْ لَا وَفَى النَّاسُ بِالنَّاسِ !



الشرح

الجنن : جمع جنة ، وهي مأخوذة به . وطاعة الرجل : حواصده وحالته الذين
لا يطوي عنهم سره .

فإن قلت : أما ضربه بهم للدر معلوم ؛ يعني الحرب ، فما معنى قوله عليه السلام :
« وأرجو طاعة القبيل » ؟

قلت : لأن من ينضوي إليه من المخالفين إذا رأى ما عليه شيمته وبطاقته من
الأخلاق الحميدة ، والسيرة الحسنة ، أطاعه بقلبه باطنا ، بعد أن كان انضوي
إليه ظاهرا .

واعلم أن هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام للأنصار بعد فراغه من حرب
الجل ؛ وقد ذكره للدائمي والواقدي في كتابيهما^(١) .

(١) كتاب الجبل للقدسي ، ذكره ابن النديم في الفهرست ١٠ ، وكتاب الجبل للواقدي ذكره أيضاً
ابن النديم في ص ٩٩ .

(١١٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد جمع الناس، وحضهم على الجهاد ، فسكنوا ملياً، فقال عليه السلام: ما بالكم! احرصون انتم! فقال قَوْمٌ مِنْهُمْ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إن سِرْتَ سِرّاً مَعَكَ.

فقال عليه السلام :

مَا بَالُكُمْ الْأَسَدُذُنُّمُ لِرُخْدِ أَوْ لَا هُدَيْتُمْ يَهْضُمُ، أَيْ مِثْلُ هَذَا بَنِي بِي أَنْ أُخْرِجَ! وَإِنَّمَا يُخْرِجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ يَمُنُّ أَرْصَاءَ مِنْ شَجَاعَتِكُمْ، وَذَوِي بَأْسِكُمْ؛ وَلَا يَنْفُسِي لِي أَنْ أَدْعَ الْجَنَّةَ وَالْمَصْرَ وَتَبْتَ الْمَالُ حَيَاةَ الْأَرْضِ، وَالنِّصَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْهَطَرَ فِي حُقُوقِ الْأَطْلَائِينَ، ثُمَّ أُخْرِجَ فِي كَتِيبَةٍ أُتِنَتْ أُخْرَى: أَثَقَلْتُ ثَقَلْتُ الْقِدْحَ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ.

وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَا، تَدُورُ عَلَى وَأَنَا عِمَّكَاي! فَإِذَا فَارَقْتَهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَأَضْطَرَبَ نِثَالُهَا. هَذَا السَّمَرُ أَشَدُّ الرَّأْيِ الشُّوهِ؛ وَاللَّهُ لَوْ لَا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوِّ - وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَائِي، ثُمَّ شَحَصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُكُمْ، مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ؛ طَعَائِينَ عِيَّابِينَ، حَيَّادِينَ رَوَّابِينَ.

إِنَّهُ لَا غَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ، مَعَ قِلَّةِ اخْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ، لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّذِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ رَكَ قَبْلَى الدَّارِ!

التَّبْرُجُ :

سكنوا مليا ، أى ساعة طويلة ، ومضى ملى من النار كذلك ، قال الله تعالى :
 ﴿ وَأَهْبِجْزَنِي مَلِيًّا ﴾ ^(١) . وأقيمت عند فلان مَلَاوَةٌ وَمَلَاوَةٌ وَمِلَاوَةٌ من الدهر ، بالحركات
 الثلاث ، أى حيناً وبرهة ، وكذلك أقيمت مَلَوَةٌ وَمَلَوَةٌ وَمِلَوَةٌ ، بالحركات الثلاث .
 وقوله : « أَخْرَسُونَ أُنْفُمْ ؟ » اسم المفعول من أخرسه الله ، وأخرس الرجل ،
 وأخرس المصدر .

والكتيبة : قطعة من الجيش . والتفعل : الحركة فى اضطراب . والتدفع : السهم .
 والجفير : الكثانة ، وقيل وها . السهام أوسع من الكثانة .
 واستعار مدارها : اضطرب ، والنداء ما هنا مصدر . والتفأل بكسر التاء : جلد يسط
 وتوضع الرضا فوقه ، فتطحن بالهذ يسقط عليه الدقيق .
 وحُمٌ : أى قُدْرٌ ، والركاب : الإبل ، وشخصت عنكم : خرجت :
 ثم وصفهم بعبث الناس والطمع فيهم ، وآتهم يحيدون عن الحق وعن الحرب ، أى
 يصرفون ويروغون كما يروغ الثعلب .
 ثم قال : إنه لا غناء عندكم وإن اجتمعتم بالأبدان مع تفرق القلوب . والفناء ، بالفتح
 والمذة : النفع .

واكتصب « طمانين » على الحال من الضمير للتصوب فى « أطلبكم » .

• • •

وهذا كلام قتله أمير المؤمنين عليه السلام في بعض غارات أهل الشام على أطراف
أعماله بالعراق بعد انقضاء أمر صفين والنهروان ، وقد ذكرنا سببه ووقعته فيما تقدم .
فإن قلت : كيف قال : الطريق الواضح ، فذكره ، ثم قال : « لا يهلك فيها »
فأنته ؟

قلت : لأن الطريق بذكر ويؤث ، تقول : الطريق الأعظم والطريق العظمى ،
فامتثل الغتين معا .

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ ، وَإِتِمَامَ الْعِدَّاتِ ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ ؛ وَعِنْدَنَا
- أَهْلَ الْبَيْتِ - أَبْوَابُ الْحُكْمِ ، وَضِيَاءُ الْأَمْرِ .

أَلَا وَإِنْ شَرَّائِعَ اللَّهِ مِنْ وَاحِدَةٍ ؛ وَسُئِلَهُ قَاصِدَةٌ ؛ مَنْ أَخَذَهَا أَحَقَّ وَغَيْرِمْ ؛ وَمَنْ
وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَتَدِمَ .

أَعْمَلُوا لِيَوْمٍ تَذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ ، وَتُبْلَى بِهِ السَّرَائِرُ ؛ وَمَنْ لَا بِنَفْعِهِ حَاضِرُ
لَبِّهِ فَعَارِيَةُ عَنَّةٍ أَعْبَرُ ، وَغَائِبُهُ أَعْوَرُ .

وَأَنْشَقُوا نَاراً حَرَّهَا شَدِيدٌ ، وَقَمَرُهَا بَيْدٌ ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ ، وَشَرَّائِهَا صَدِيدٌ .

أَلَا وَإِنَّ أَلْسَانَ الصَّالِحِ يَحْمِلُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ فِي النَّاسِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ الْمَالِ
يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ .

الشرح :

رواها قوم « لقد عَلِمْتُ » بالتعريف وفتح العين ، والرواية الأولى أحسن ، فتبليغ
الرسالات تبليغ الشرائع بمطوفاة الرسول صلى الله عليه وآله إلى المكلفين ، وفيه إشارة إلى
قوله تعالى : ﴿ يَتْلُمُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ ^(١) ، وإلى
قول النبي صلى الله عليه وآله في قصة راءة : « لا يؤدى عني إلا أنا ورحل مني » .

وإنعام العِدات : إنجازها ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ ^(١) ، وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في حقه عليه السلام : « قاضى دينى ومنعز مؤعدى » .

وإنعام الكلمات : تأويل القرآن ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَنَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ حَيْدُهَا وَمَعْدَلَا ﴾ ^(٢) ، وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في حقه عليه السلام : « اللهم اهد قلبه ، وثبت لسانه » .

وخلاصة هذا ، أنه أقسم بالله أنه قد علم ، أو علم ، على اختلاف الروايتين - أداء الشرائع إلى المكلفين ، والحكم بينهم بما أنزله الله ، وعلم مواعيد رسول الله الذى وعد بها ، فنها ما هو وعد واحد من الناس بأمر ، نحو أن يقول له : سأعطيك كذا ، ومنها ما هو وعد بأمر يحدث ، كإخبار اللام والأمر للتعبدية . وعلم تمام كلمات الله تعالى ، أى تأويلها وبماها الذى يتم به ؛ لأن فى كلامه - تعالى - الجمل الذى لا يستغنى عن متم ومبين يوضعه . ثم كشف الغطاء وأوضح للراد فقال : « وعندما - أهل البيت - أبواب الحكم » ، يعنى للشرعيات والفتاوى . وضياء الأمر ، يعنى المظلمات والفوائد ، وهذا مقام عظيم لا يحضر أحد من المخلوقين أن يدعيه سواه عليه السلام ؛ ولو أقدم أحد على ادعائه غيره لكذب وكذبه الناس . و « أهل البيت » منصوب على الاختصاص .

وسببه قاصدة ، أى قريبة سببه ، ويقال : بيننا وبين لواء لينة قاصدة ورافعة ، أى هتفة المسير لا تعب فيها ولا بلاء .

وتبلى فيه السرائر ، أى تمنج

ثم قال : من لا ينفعه لبه الحاضر وعقله للوجود فهو بعدم الانتفاع بما هو غير حاضر

(١) سورة الأحزاب ٢٣

(٢) سورة الأنعام ١١٥ .

ولا موجود من النمل عنده أولى وأحرى ؛ أى مَنْ لم يكن له من نفسه ومن ذاته وازع
وزاجر من القبيح ، فبيد أن ينزجر ، وأن يرتدع بقل غيره وموعدة غيره له كاقبل ؛
.....
وزاجر من النفس خيرٌ من طاب المواذل
ثم ذكر النار فذكر منها .

وقوله : « حليتها حديث » ؛ يعنى القيود والأغلال .

ثم ذكر أن الذكر الطيب - يخلقه الإنسان بين الناس - خير له من مالٍ يجمعه
وروثه من لا يحمده ؛ وجاء في الأثر أن أمير المؤمنين عليه السلام جاءه خبرٌ فأخبره
أن مالا له قد انجبرت فيه عين خرافة ، يشره بذلك ، فقال : بشر الوارث ؛
بشر الوارث ، يكررها ، ثم وقف ذلك للال على الفقراء ، وكعب به كتابا في
تلك الساعة .



(١٢٠)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام ، وقد قدم إليرجل من أصحابه ، فقال : نهيتنا من الحكومة ثم أمرتنا بها ، فما تدرى أي الأمرين أرشد ؟ فسق عليه السلام إحداهما يدبر على الأخرى ، ثم قال :

هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ أَمَّا وَأَفِي لَزَائِي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ
حَقَّتْكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا ، فَإِنْ اسْتَقْتَمْتُمْ هَذَيْتُكُمْ ، وَإِنْ
أَعْوَجَجْتُمْ قَوَّيْتُكُمْ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَذَلُّوا كُفُّوا ، كِبَكَاتِ الْوَفْقِ ، وَلَكِنْ يَمَنْ
وَالِي مَنْ أَرِيدُ أَنْ أَدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي ، كُنْتُمْ الشُّوْكَةَ بِالشُّوْكَةِ ، وَهُوَ
يَعْلَمُ أَنَّ ضَلَمَهَا مَعَهَا !

اللَّهُمَّ قَدْ مَلَأْتَ أَهْلِيَاءَ هَذَا الدَّهْرِ الدَّوِي ، وَكَلَّتِ الدَّرَجَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِي !
أَيُّ الْقَوْمِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ قَبِلُوهُ ، وَفَرَّوْا الْقُرْآنَ فَأَخْكَمُوهُ ،
وَهَبَّجُوا إِلَى الْجَهَادِ فَوَلَّوْا وَلَهُ الْفَنَاجِ إِلَى أَوْلَادِهَا ، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَعْمَادَهَا ، وَأَخَذُوا
بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفًا زَحْفًا ، وَمَعَا مَعَا ، تَمَسَّ هَلَكٌ ، وَبَعْضُ نَجَا ، لَا يُبَشِّرُونَ
بِالْأَحْيَاءِ ، وَلَا يُعَزِّوْنَ عَنِ الْمَوْتِ ، مُرَّةُ الْمَيُوتِ مِنَ الْبُكَاءِ ، خُصُّ الْبُعُودِ مِنَ الصِّيَامِ ،
ذُبُلُ الشَّفَاءِ مِنَ الدُّعَاءِ ، صَفَرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ ، قَلَى وَجُوهِهِمْ غَبْرَةُ الْخَاشِعِينَ ،
أَوَّلِيكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ ، فَحَقٌّ لَدَا أَنْ نَظْمًا لِيَتِيمٍ ، وَنَهَضَ الْأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ !
إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَيِّ لَكُمْ طَرَفَهُ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً ، وَيُعْطِيَكُمْ

بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةِ ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةُ ، فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ ، وَأَقْبِلُوا النَّصِيحَةَ
مَنْ أَهْدَاكُمْ إِلَيْكُمْ ، وَأَعْقِلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ .

الْبَرْخ :

هذه شبهة من شبهات الخوارج ، ومنهاها أنك نهيت عن الحكومة أولاً ثم أمرت
بها ثانياً ، فإن كانت قبيحة كنت نهيك عنها مصيباً ، وبأمرك بها مخطئاً ، وإن كانت
حسنة ، كنت بهيك عنها مخطئاً وبأمرك بها مصيباً ، فلا بد من خطئك على كل حال .

وجوابها أن للإمام أن يعمل بموجب ما يبلط على ظنه من المصلحة ، فهو عليه السلام
لما نهام عنها كان نهيه عنها مصلحة حينئذ ، ولما أمرم بها كانت المصلحة في ظنه قد
تبدلت ، فأمرم على حسب ما تبدل وتغير في ظنه ، كالطبيب الذي يسيى المريض اليوم
عن أمر وبأمره بمثل غداً .

وقوله : « هذا جزاء من ترك المقدمة » ، يسيى رأى الوثيق ، وفي هذا الكلام
اعتراف بأنه بان له وظهر فيما بعد أن رأى الأصلح كان الإصرار والثبات على الحرب ،
وأن ذلك وإن كان مكروهاً ، فإن الله تعالى كان يجعل الخيرة فيه ، كما قال سبحانه :
(فَسَى أَنْ تَسْكُرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبَرًا كَثِيرًا)^(١)

ثم قال : كنت أحلكم على الحرب وترك الالتفات إلى مكيدة معاوية وعمره ؛ من
رفع المصاحف ، فإن استقمتم لي اعتديتم بي ، وإن لم تستقيموا فذلك ينقسم إلى قسمين :
أحدهما أن تموجوا ، أى يقع منكم به من الالتواء ، ويسير من المصيان ، كفتور الهمة وقلة
الجد في الحرب . والثانى الثانى والامتناع للطلق من الحرب ، فإن كان الأول قوتكم

بالتأديب والإرشاد وإرهاق الهمم والذرائع بالتبصير والوعظ والتعريض والتشجيع ، وإن كان الثأى تداركت الأمر معكم : إتما بالاستنجد بغيركم من قبائل العرب وأهل خراسان والحجاز ، فكلهم كانوا شجعته وقائلين بإمامته ، أو بما أراه في ذلك الوقت من المصلحة التي تحكمها الحال الحاضرة .

قال : لو فعلت ذلك لكانت هي الفتنة الوثقى ؛ أى للرأى الأصوب الأحزم .

فإن قلت : أفتقولون إنه أخطأ في المدول عن هذا الرأى ؟

قلت : لا أقول إنه أخطأ بمعنى الإنم ، لأنه إنما فعل ما نعلب على غلته أنه المصلحة ، وليس الواجب عليه إلا ذلك ، ولكنه ترك الرأى الأصوب ، كما قال الحسن : « هلا مصبت قدما لا أبالك » ، ولا يلحق الإنم من علب على غلته في حكم السياسة أمر فاعتمده ، ثم مان له أن الأصوب كان خلافه ، وقد قيل إن قوله :

أَقْدَعَتْ عَثْرَتُ عَثْرَةٍ لَا تَنْجِي
سَوْفَ أَكْبَسَ تَمَدُّهَا وَاسْتَعِيرَ

• وأجمع الرأى الثبت المنشتر •

إشارة إلى هذا المعنى ؛ وقيل : فيه غير ذلك مما قدما ذكره قبل .

وقال شيخنا أبو عثمان الخاظ رضي الله عنه : مَنْ عَرَفَهُ عَرَفَ أَنَّهُ غَيْرُ مَلُومٍ فِي الْأَهْيَادِ مَعَهُمْ إِلَى التَّحْكِيمِ ، فَإِنَّهُ مَلَّ مِنَ الْقَتْلِ وَتَحْرِيدِ السِّيفِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، حَتَّى مَلَّتِ الدَّمَاءُ مِنْ إِدْرَاقِهِ لَهَا ، وَمَلَّتِ الْحَبِيلُ مِنْ تَقْصِيهِ الْأَهْوَالِ بِهَا ، وَضَحِرَ مِنْ دَوَامِ تِلْكَ الْخَطُوبِ الْجَلِيلَةِ ، وَالْأَرْزَاءِ الْعَظِيمَةِ ، وَاسْتَلَابَ الْأَنْفُسَ ، وَنَطَّائِرَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَآكَلَتْ الْحَرْبُ أَصْحَابَهُ وَأَعْدَاءَهُ ، وَغَطَّتِ السَّوَاهِدَ ، وَخَدِرَتِ الْأَيْدِي الَّتِي صَمَتَتْ مِنْ وَقَائِعِ السُّيُوفِ بِهَا ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الشَّامِ لَمْ يَسْتَعْفُوا مِنَ الْحَرْبِ ، وَيَسْتَقْبِلُوا مِنْ

للقارعة والصادمة ، لأدت الحال إلى قصود الفيلقنين معا ، ووزومهم الأرض وإلقتهم السلاح ، فإنّ الحال أفضت بمنظما وهو لها إلى ما يعجز اللسان عن وصفه .



واعلم أنه عليه السلام قال هذا القول ، واستدرك بكلام آخر حذراً أن يثبت على نفسه الخطأ في الرأي ، فقال : لقد كان هذا رأياً لو كان لي من بطيئني فيه ، ويعمل بموجبه ، وأستعين به على فعله ، ولكن بمن كنت أعمل ذلك ، وإلى من أخلد في فعله ! أما الحاضرون لنصرى فأنتم وحالكم معلومة في الخلاف والشفاق والمصيان ، وأما الغائبون من شيعتي كأهل البلاد النائية فإلى أن يصلوا يكون قد بلغ المدوّ غرضه متى ، ولم يبق من أخلد إليه في إصلاح الأمر وإيرام هذا الرأي الذي كان صواباً لو اعتُمد ؛ إلا أن أمتين يبهضكم على بعض ، فأكون كناقش الشوكة بالشوكة ؛ وهذا مثل مشهور : « لا تنقش الشوكة بالشوكة » . فإن صنّعتها لها ، والصلح الميل ؛ يقول : لا نستخرج الشوكة الناشئة في رجلك بشوكة مثلاً ، فإن إحداها في القوة والضعف كالأخرى ، فكما أن الأولى انكسرت لنا وطنّتها فدحلت في لحك ، فالثانية إذا حاولت استخراج الأولى بها تنكسر ، وتلج في لحك .

ثم قال : « اللهم إن هذا الهاء الهوى » ، قد مات أطاؤه ، والهدوى : الشديد ، كما تقول : ليل أليل .

وكلت النزع ، جمع نازع ، وهو الذي يستقي الماء ، والأشطان : جمع شطن ، وهو الجبل . والزكى : الآبار ، جمع زكية ، وتجمع أبصا على دكايا .

ثم قال : ابن القوم ! هذا كلام متأسف على أولئك ، متعسر على قدم .

والولة : شدة الحب حتى يذهب العقل ، وله الرجل .

واللقاح ، بكسر اللام : الإبل ، والواحدة لقوح ؛ وهي الحلوب ، مثل قلاص وقلوص .

قوله : « وأخذوا بأطراف الأرض » ، أى أخذوا على الناس بأطراف الأرض ،
أى حصروهم ، يقال لمن استولى على غيره وضيق عليه : قد أخذ عليه بأطراف الأرض ،
قال الفرزدق :

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ لَنَا قَسْرَاهَا وَالنَّجْمُومُ الطُّوَلُوعُ^(١)
وزحفاً زحفاً ، منصوب على الصدر المحنوف القمل ، أى يزحفون زحفاً ، والكلمة
الثانية تأكيد للأولى . وكذلك قوله : « وصفاً صفاً » .

ثم ذكر أن بعض هؤلاء التأسف عليهم هلك ، وبعض نجى ، وهذا ينسب قوله تعالى :
(فَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ نَحْبَةً وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ)^(٢) .

ثم ذكر أن هؤلاء قوم وقَّضتهم العبادة ، واقطعوا عن الناس ، وتجرَّعوا من
الملائق الدنيوية ، فإذا ولد لأحدهم مولود لم يبشروه به ، وإذا مات له ميت لم يمزَّ عنه .
ومرَّهت عين فلان ، بكسر الراء ، إذا فسدت ترك الكحل ، لكن أمير المؤمنين
عليه السلام جعل مرّة عيون هؤلاء من الهكاه من خوف خالقهم سبحانه . وذكر أن
بطونهم من خالص الصوم ، وشفاهم ذابة من الدماء ، وجوههم مصفرة من السهر ،
لأنهم يقومون الليل وعلى وجوههم غبرة الخشوع .

ثم قال : « أولئك إخواني الداهيون » . فإن قلت : من هؤلاء الذين بشروا
— عليه السلام — إليهم ؟

قلت : هم قوم كانوا في نأمة الإسلام وفي زمان ضعفه وخوفه أرباب زهد وسبادة
وجهاد شديد في سبيل الله ، كعصم بن عمير من بني عبد الدار ، وكسعد بن معاذ من
الأوس ، وكبشعر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وغيرهم ؛ ممن استشهد من الصالحين

(١) ديوانه ٥١٥

(٢) سورة الأحزاب ٢٣

أرباب الدين والعبادة والشجاعة في يوم أحد ، وفي غيره من الأيام في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنتار ، وأبي ذر ، ولقناد ، وسلمان ، وخباب ، وجعاعة من أصحاب الصفة وفقراء المسلمين أرباب العبادة ، الذين قد جمعوا بين الزهد والشجاعة . وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الجنة لتشتاق إلى أربعة : علي ، وعمار ، وأبي ذر ، ولقناد » ، وجاء في الأخبار الصحيحة أيضا ، أن جعاعة من أصحاب الصفة مر بهم أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه فعضوا أيديهم عليه ، وقالوا : والأسفاء كيف لم تأخذ السيوف مأخذها من عنق عدو الله ! وكان معه أبو بكر ، فقال لهم : أتقولون هذا لسيد البطحاء ؟ فرفع قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأنكره ، وقال لأبي بكر : « انظر لا تكون أغضبهم ، فتكون قد أغضبت ربك » فغاد أبو بكر إليهم وترضاهم وسألهم أن يستغفروا له ، فقالوا : غفر الله لك .

قوله : « فعق لنا » ، يقال : حق له أن يفعل كذا ، وهو حقيق به ، وهو محقوق به ، أي خليف له ، والجمع أحقاء ومحقوقون .

ويسقى : يستهل . وصدف عن الأمر ، يصدف ، أي يصرف عنه . ونزغات الشيطان : ما ينزع به ، بالفتح ، أي يفسد ويعري . ونفثاته : ما ينثث به وينثث ، بالضم والكسر ؛ أي يخيل ويهجر .

واعقلوها على أنفسكم ، أي اربطوها والزموها .

(١٢١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج ، وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة ، فقال عليه السلام : أكلستم شهوداً معاً صفيين ؟ فقالوا : مِنَّا مَنْ شَهِدَ ، وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ . قَالَ : فَاثْنَاوَا فِرْقَتَيْنِ ؛ فَلْيَكُنْ مِنْ شَهِدَ صَفِيٌّ فِرْقَةٌ ، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةٌ ؛ حَتَّى أَكَلْتُمْ كَلَامَ مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ . وَنَادَى النَّاسَ ، فَقَالَ : أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي ، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ ، مَنِ اشْتَدَّ نَأَاهُ شَهَادَةٌ فَلْيَقُلْ بَعْدَهُ إِيهَا . ثُمَّ كَبَّهْتُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ ، مِنْ بَعْثِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رُسُلِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيَّةٌ وَفِيْلَةٌ ، وَمَكْرَأٌ وَحَدِيبَةٌ : إِنْ خَوَّانَا وَأَهْلُ دَعْوَانَا ، اسْتَقَالُونَا وَأَسْتَرَّاحُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ شَحَاقَهُ ، فَالْأَيُّ الْقَبُولِ مِنْهُمْ ، وَالتَّنْفِيسِ عَنْهُمْ ، فَقُلْتُ لَكُمْ : هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ ، وَمَا طِنُهُ عُدْوَانٌ ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ ، فَأَقْبِلُوا عَلَى شَأْيِكُمْ ، وَالْزَمُوا طَرِيقَكُمْ ، وَهَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى مَا عَقِبَ نَعَقٍ ؛ إِنْ أَحْبَبَ أَصْلٌ ، وَإِنْ تَرِكَ ذُلٌّ ^(١) .

فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ أَلْقَيْتُ لَيْدُورُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ

(١) بعدما في المخطوطة المصرية : « وقد كان هذه الصفة ، وقد رأيتم أعميت دوما . وافة لئن أيتها ما وجبت على مريضتها ، ولا على أمة دينا ، ووافد إن حشا إن لدنقى القى ينع ، وإن الكتاب لى ، ما طرقت مذ صحتة » .

وَالْإِخْوَانِ وَالْفَرَّابَاتِ ، فَمَا تَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُعْرِبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَانًا وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ ،
وَتَسْلِيمًا لِلْأَمْرِ ، وَصَبْرًا عَلَى مَضْعَى الْجُرَاحِ .

•••

وَلَسَكُنَّا إِذَا مَا أَصْبَحْنَا مُقَاتِلُ إِخْوَانِنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الرِّغْبِ
وَالْأَفْوَاجِ ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ ، فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْمَةٍ يَلُمُّ اللَّهُ بِهَا شَمْسَنَا ، وَتَقْدَانِي بِهَا
إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيهَا بَيْنُنَا ، وَرَغِبْنَا فِيهَا ، وَأَمْسَكْنَا عَنْهَا سِوَاهَا !

•••

الْبَيْخ :

هذا الكلام يخلو بمضه بعضا ؛ ولكنه ثلاثة فصول لا يلتصق أحدها بالآخر ؛ وهذه
عادة الرضى ، تراءى بفتنهم من جهة الخطبة المطلوبة كليات قصيدة ، يوردها على سبيل التتالي ؛
وليست متتالية حين تكلم بها صاحبها ، وينقطع كل فصل منها عن صاحبه إذا مررنا
على مَشْنَاهَا .

قوله : « إِي مَسْكَرُم » الكاف مفتوحة ، ولا يحوز كسرهما ؛ وهو موضع
المسكروحة .

وشهد صفين : حضرها ، قال تعالى : « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ » (١) .

قوله : « فَاغَارُوا : أَيِ افْرُدُوا » ، قال تعالى : « وَأَمَّا نَارُ الْيَوْمِ أَيْهَا الْبُغْرُمُونَ » (٢) .

قوله : « حَتَّى أَكَلَمَ كَلَامَكُمْ بِكَلَامِهِ » ، أي بالكلام الذي يليق به .

والنية : الخلداع . والناطق : للصوت .

قوله : « إِنْ أَجِيبَ ضَلَّ » ، وإن ترك ذلك . . . هو آخر الفصل الأول . وقوله : « ضَلَّ » ،

أي لزداد ضلالا ، لأنه قد ضل قبل أن يحل .

(١) سورة البقرة ١٨٥

(٢) سورة يس ٥٩ .

فأما قوله : « فلتدكنا مع رسول الله صلى الله عليه » ، فهو من كلام آخر ، وهو قائم بنفسه ، إلى قوله : « وصيرا على مضمحل الجراح » ، فهذا آخر الفصل الثاني .
فأما قوله : « لكننا إنما أصبحنا » ، فهو كلام ثالث غير منوط بالأولين ولا ملحق بهما ؛ وهو في الظاهر يخالف ومناقض للفصل الأول ؛ لأنَّ الفصل الأول فيه إنكار الإجابة إلى التحكيم ؛ وهذا يتضمن تصويبها ؛ وظاهر الحال أنه بعد كلام طويل . وقد قال الرضى رحمه الله في أول الفصل : إنه من جملة كلام طويل ، وإياه لنا ذكر التحكيم ، قال ما كان بقوله دائما ، وهو أتى إنما حكمت على أن نتمل في هذه الواقعة بحكم الكتاب ، وإن كنت أحارب قوما ما أدخلوا في الإسلام زبنا وأحدثوا به امور جاجاء ، فلما دعوني إلى تحكيم الكتاب أمسكتُ عن قتلهم ، وأقبلت عليهم لأني علمت في أمر يُعلم الله به شعث المسلمين ، ويتقاربون بطريقه إلى النقية ، وهي الإبقاء والكف .

فإن قلت : إنه قد قال : « قاتل إخواننا من المسلمين » ، وأنتم لا تطلقون على أهل الشام المحاربين له لفظة « المسلمين » ؟

قلت : إننا وإن كنا نذهب إلى أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا ولا مسلما ، فإننا نجيز أن يطلق عليه هذا اللفظ إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمة وعابدى الأصنام ، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرج به عن أن يكون مقصودا به التعظيم والثناء والمدح ، فإن لفظة « مسلم » و « مؤمن » تستعمل في أكثر الأحوال كذلك ، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يقصد بذلك إلا تمييزهم من كفار العرب وغيرهم من أهل الشرك ، ولم يقصد مدحهم بذلك ، فلم ينكر مع هذا القصد إطلاق لفظ المسلمين عليهم .

(١٢٢)

الأضلل

ومن كلام له عليه السلام قاله لأصحابه في ساعة الحرب :

وَأَيُّ أَمْرِي مِنْكُمْ أَحْسَنُ مِنْ نَفْسِي رِبَاطَةً جَاشٍ عِنْدَ الْفَقَاءِ ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًّا ، فَلْيَذُبْ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ بَحْدَتِهِ الَّتِي فَضَّلَ بِهَا عَلَيَّ ، كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِي ، قُلُوا شَاءَ اللَّهُ لِحَمَلِهِ مِثْلَهُ .

إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَتَّى لَا يَقُوتهُ الْقُفُومُ ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ .

إِنْ أَكْرَمَ الْمَوْتُ الْقَتْلُ وَالَّذِي ضَرَّ بِي إِلَى طَالِبٍ يَدِيهِ ؛ لِأَلْفِ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ !

• • •

الْبَرْخ :

أَحْسَنُ : علم ووجد . وَرِبَاطَةً جَاشٍ ، أى شدة قُتُب : والماضى « رَبط » ، كأنه يربط نفسه عن الفرار . وَالْمَرْوِيُّ : « رِبَاطَةً » بالكسر ، ولا أعرفه خلا وإعما القياس لا يأباه ، مثل تَعْمِيرِ عِمَارَةٍ ، وَخَلَبٍ خِلَابَةٍ .

وَالْفُشْلُ : الجبن . وَذَبَّ الرَّجُلُ عَنْ صَاحِبِهِ ، أى أكثر الذب ، وهو الدفع والنع . وَالنَّجْدَةُ : الشجاعة . وَالْحَنِيثُ : السَّريع ؛ وَفِي مَعْصِ الرِّوَايَاتِ : « فَلْيَذُبْ عَنْ صَاحِبِهِ » بِالْإِدْغَامِ ، وَفِي بَعْضِهَا « فَلْيَذُبْ » بِفَتْحِ الْإِدْغَامِ . وَالْمِيتَةُ ، بالكسر : هَيْئَةُ الْمَيِّتِ كَالْجُلُوسَةِ : وَالرُّكْبَةُ هَيْئَةُ الْجَالِسِ وَالرَّأْيُ كَب ، يُقَالُ : مَاتَ فُلَانٌ مِيتَةً حَسَنَةً ، وَالْمَرْوِيُّ فَي « نَهَج »

البلاغة ، بالكسر في أكثر الروايات ، وقد روى : « من مودة » وهو الأليق ، يعني المودة
الواحدة ، ليقع في مقابلة الألف .

واعلم أنه عليه السلام أقسم أن القتل أهون من الموت حثف الألف ؛ وذلك على
مقتضى ما منعه الله تعالى من للشعاعة الخارقة لعادة الشر ؛ وهو عليه السلام يحاول أن
يحمي أصحابه ، ويحرضهم ؛ ليحصل طباعهم مناسبة لطباعه ، وإقداؤهم على الحرب بمثالا
لإقداؤه ؛ على عادة الأمراء في تحريض جندهم وعسكرهم ؛ وهيبات إمامه كما قال
أبو الطيب :

يَكْتَفِي سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْجَيْشَ قَسْدٌ وَقَدْ تَحَرَّتْ عَنْهُ الْحَيُوشُ الْخَصَّارِمُ^(١)
وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْدَ هَيْبِهِ ذَلِكَ مَا لَا تَدْعِيهِ الصَّرَاحِمُ

ليست النفوس كلها من جوهر واحد ، ولا الطباع والأمزجة كلها من نوع واحد ،
وهذه خاصية توجد لمن يصطفيه الله تعالى من عباده ، في الأوقات المتطاولة ، والدهور
للتباعدة ؛ وما اتصل بنا نحن من بعد الطوفان ؛ فإن التواريخ من قبل الطوفان - مجهولة عندنا -
أن أحدا أعطى من الشعاعة والإقدام ، أعطيه هذا الرجل من جميع فرق العالم على احتلالها ؛
من الترك والفرس والعرب والروم وغيرهم ؛ والمعلوم من حاله أنه كان يؤثر الحرب على السلم ،
والموت على الحياة ، وللموت أذى كان يطببه ويؤثره ؛ إمامه هو القتل بالسيف ، لا الموت
على الفراش ، كما قال الشاعر :

لَوْ لَمْ يَمُتْ بَيْنَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ إِدَا لَمَاتَ - إِذْ لَمْ يَمُتْ - مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

(١) ديوانه ٣ : ٣٧٩ ، والمصادر : جمع حصرم ؛ وهو العظيم الكبير من كل شيء .

وكما قال الآخر :

بستمذبون متايام كأنهم لا يئأسون من الدنيا إذا قتلوا

فإن قلت : فما قولك فيما أقسم عليه : هل أنت ضربة بالسيف أهون الماء على القتل من موتة واحدة على الفراش بالحقيقة ، أم هذا قول قاله على سبيل اللبالة والتجوز ؛ ترغيباً لأصحابه في الجهاد ؟

قلت : الخالف يحلف على أحد أمرين : أحدهما أن يحلف على ظنه واعتقاده ؛ نحو أن يحلف أن زيدا في الدار ، أي أنا حالف ومقسم على أني أظن أن زيدا في الدار ، أو أني أعتقد كون زيدا في الدار . والثاني أن يحلف ، لا على ظنه ، بل يحلف على نفس الأمر في الخارج ؛ فإن حملنا قسم أمير المؤمنين عليه السلام على الحمل الأول فقد اندفع السؤال ؛ لأنه عليه السلام قد كان يعتقد ذلك المستغنى عنه بصدق وأنه يظن ذلك ؛ وهذا لا كلام فيه ، وإن حملناه على الثاني فالأمر في الحقيقة يختلف ؛ لأن القتل بسيف صارم معجل للزهوق لا يجد من الألم وقت الضربة ما يجده للبت دون النزع من اللذة والسكينة ، نعم قد يجد للقتول قبل الضربة ألم التوقع لها ، وليس كلامنا في ذلك ، بل في ألم الضربة نفسها وألف سيف صارم مثل سيف واحد ، إذا فرضنا سرعة الزهوق . وأما في غيره هذه الصورة ، نحو أن يكون السيف كألاً ، وتكرر الضربات به ، والحياة باقية بعد ؛ وقايسنا بينه وبين ميت يموت حشف أنه موتاً سريعاً ، إما بوقوف القوة الغازية كما يموت الشيوخ ، أو بإسهال خريع تسقط معه القوة ، ويبقى العقل والدهن ، إلى وقت الموت ، فإن للموت هاهنا أهون وأقل ألماً ، فالواجب أن يحتمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام إما على جهة التعريض ؛ فيكون قد بالغ كمادة العرب وانطباء في اللبالات المجازية ، وإما أن يكون أقسم على أنه يعتقد ذلك ، وهو صادق فيما أقسم ؛ لأنه هكذا كان يعتقد بناء على

ما هو مركوز في طبعه من محبة القتال ، وكرهية الموت على الفرائض . وقد روى أنه قيل
لأبي مسلم الخراساني : إن في بعض الكتب للثروة : مَنْ قَتَلَ بالسيف فبالسيف يُقَتَّل ،
قَالَ : القتل أحب إليّ من اختلاف الأطباء ، والنظر في لاء ، ومقاساة الدماء والذماء ،
فذكر ذلك المنصور بعد قول أبي مسلم ، قَالَ : قد أبلغناه محبته !

(١٢٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

وَكَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَيْكُمْ تَسْكِينًا وَتَحْشِينًا ، لَا تَأْخُذُونَ حَقًّا ، وَلَا تَتَمَنَّوْنَ ضِيًّا ، قَدْ خَلَيْتُمْ وَالطَّرِيقَ ، فَاسْجَاةَ الْمُفْتَعِمِ ، وَالْمَلَكَةَ الْمُتَكَلِّمِ .

• • •

الشرح :

الكشيش : الصوت يشوبه حوراء مثل الحشيشة ، وكشيش الأفي : صوتها من جلودها لا من فيها ، وقد كشت تكش ، قال الرازي :

كشيش أفي أجبت لمض وهي تحك مضها ببعض^(١)

يقترع عليه السلام أصحابه بالبين والفيل ، ويقول لهم : لكأني أنظر إليكم وأصواتكم غمسة بينكم من الملع الذي قد اعتراكم ؛ فهي أشبه شيء بأصوات الضباب المجمعة .

ثم أكد وصف حبهم حقا وخوفهم ، فقال : لا تأخذون حقا ، ولا تمنون ضيا ، وهذه عاية ما يكون من الذل .

ثم ترك هذا الكلام واجتأ فقال : قد خليت وطريق النجاة عند الحرب ، ودلتهم عليها ،

وهي أن تقتحموا وتلجحوا ، ولا تنهوا ، فإنكم متى فعلتم ذلك محوتم : ومتى تولتم
وتنبطتم وأحجمتم هلكتم ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

تَأَخَّرْتُ اسْتَنْبَقَ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدِّمَ^(١)

وقال قطري بن النجاعة :

لَا يَرْكَنُ أَحَدٌ إِلَى الْإِحْصَامِ يَوْمَ الْوَفَى مَتَخَوِّطًا لِلْحَمَامِ^(٢)
فَلَقَدْ أَرَانِي لِلرَّمَاحِ دَرِيشَةً مِنْ عَنِ يَمِينِي تَارَةً وَأَمَامِي
حَتَّى خَضِبْتُ عَمَّا تَحْدَرُ مِنْ دِي أَكْثَافِ مَرْحَى أَوْ عِيَانِ الْجَاهِي
ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَقَدْ أَصَبْتُ وَلَمْ أَصِبْ نَجْدَعُ الْبَصِيرَةَ قَارِحَ الْإِقْدَامِ^(٣)

وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : واعلم أن عليك صيوما من أمة نراك ،
فإذا لقيت العدو ، فاحرص على الموت توهيبك الحياة ، ولا تمسك الشهداء من دماهم ؛
فإن دم الشهيد نورته يوم القيامة . وقال أبو الطيب :

يُقْتَلُ الْعَاجِزُ الْجَبَانُ وَقَدْ يَمْتَحَرُّ عَنْ قَطْعِ حُمُقِ الْمَوْلُودِ^(٤)
وَيُوقَى الْفَتَى الْخَشْخَشُ وَقَدْ خَوَّضَ فِي مَاءِ لَبَةِ الصَّنْدِيدِ^(٥)

(١) الحسين بن الحفام للري ، ديوان الحفاسة - شرح التبريزي ١ : ١٩٢ .

(٢) ديوان الحفاسة ، شرح التبريزي ١ : ١٣٠ .

(٣) قال التبريزي في شرح البيت : « يقول : أأجد بصيرة ، أي استصاري وبقي لا يحتاج إلى تهذيب ولا تأديب ؛ كما لا يحتاج الجدع إلى الرابسة ، وقد نسي طرح ، أي قد طلع النهاية ، كما أن الفروح نهاية من الفرس ولا من بعه » .

(٤) ديوان ١ : ٣٢٢ ، الحق : ما يجعل على رأس الصبي ، وتلبسه المرأة عند إدهان رأسها .

(٥) الخشخاش : الرجل الجريء على الليل والصنديد : السيد الكريم وخوَّض : أكثر الخوض .

ولهذا المعنى الذى أشار إليه عليه السلام سبب مقتول ؛ وهو أن التقدم على خصمه يرتفع له حصصه ، ويتعزل عنه نفسه ، فيكون النجاة والفقر للتقدم ؛ وأما التلوث عن خصمه ، المحجم التهييب له ؛ فإن خس حصصه تقوى عليه ، ويزداد طمعه فيه ، فيكون الفقر له ، ويكون العطب والمهلك للتلوث المائب .

﴿ ثم الجزء السابع من شرح سجع البلاغة ويليه الجزء الثامن ﴾

فهرس الخطب (٥)

- ٣٢ - ٣ منجدة
- ٩٠ - تكملة الخطبة للمروفة بخطبة الأشباح^(١)
- ٩١ - من كلام له عليه السلام لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان رضي الله عنه
- ٩٢ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها ما كان من تغلبه على فتنة الخوارج وما يصيب الناس من بني أمية
- ٩٣ - من خطبة له عليه السلام يصف فيها حال الأنبياء
- ٩٤ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها حال الناس عند البيعة
- ٩٥ - من خطبة له عليه السلام في تعظيم الله وتعبيده ، ثم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم والثناء عليه
- ٩٦ - من كلام له عليه السلام في توبيخ أصحابه على التهاطل عن نصرة الحق
- ٩٧ - من كلام له عليه السلام في وصف بني أمية وحال الناس في دولتهم
- ٩٨ - من خطبة له عليه السلام في وصف الدنيا
- ٩٩ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها عمدا صلى الله عليه وسلم وما تركه في أصحابه من سنته
- ١٠٠ - من خطبة له عليه السلام ، وهي من الخطب التي تشتتل على ذكر لللاحم
- ١٠١ - ٩٦

(٥) وهي الخطب الواردة في نهج البلاغة .

(١) أولها في الجزء السادس من ٣٩٨

الصفحة

- ١٠١ - من خطبة له أخرى عليه السلام تجرى هذا الجرى ١٠٢-١٠٤
- ١٠٢ - من خطبة له عليه السلام في التزهيد ووصف الناس في بعض الأزمان ١٠٥-١١٣
- ١٠٣ - من خطبة له عليه السلام يصف فيها حال الناس قبل البعثة وما صاروا إليه بعدها ١١٤
- ١٠٤ - من خطبة له عليه السلام ، ذكر فيها كلاما في شأن أهل البيت وأمر بني أمية معهم ١١٧-١٢٧
- ١٠٥ - من خطبة له عليه السلام في وصف الإسلام وسوء شرائعه ، ثم ذكر النبي صلى الله عليه وآله وذكر أصحابه ١٢١-١٢٦
- ١٠٦ - من كلام له عليه السلام يصف بعض أئمة صفين ١٢٩
- ١٠٧ - من خطبة له عليه السلام وهي من خطب لللاحم أيضا ١٨١-١٩١
- ١٠٨ - من خطبة له في تمجيد الله ووصف ملائكته ١٩٤-٢١٨
- ١٠٩ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها فرائض الإسلام ٢٢١
- ١١٠ - من خطبة له عليه السلام في وصف الدنيا ٢٢٦-٢٢٨
- ١١١ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها ملك الموت وتوفية الأنفس ٢٣٧
- ١١٢ - من خطبة له عليه السلام في التحذير من أمر الدنيا ٢٤٦، ٢٤٧
- ١١٣ - من خطبة له عليه السلام في الخس على التقوى وذكر أوصاف الدنيا والفرق بينها وبين الآخرة ٢٥٠-٢٥٢
- ١١٤ - من خطبة له عليه السلام في الاستسقاء ، وصلاة الاستسقاء وآدابها وأخبار وأحاديث في الاستسقاء ٢٦٢، ٢٦٣
- ١١٥ - من خطبة له عليه السلام في تنظيم ما حُجب عن الناس وكشف له ، والإخبار بما سيكون من أمر الحاجج التقي ٢٧٠-٢٧٥
- ١١٥ - من خطبة له عليه السلام في تنظيم ما حُجب عن الناس وكشف له ، والإخبار بما سيكون من أمر الحاجج التقي ٢٧٦-٢٧٨

منه

- ٢٧٢ - ١١٦ - من كلام له عليه السلام في التوبيخ على البخل ، ودعوة أصحابه لتصرته
- ٢٨٤ - ١١٧ - من كلام له عليه السلام في حث أصحابه على مناصحته
- ٢٨٥ - ١١٨ - من كلام له عليه السلام وقد جمع له أصحابه فخصهم على الجهاد وأثار المحبة فيهم
- ٢٨٨ - ١١٩ - من كلام له عليه السلام في وصف نفسه والحث على الاستقامة والتعذير من النار والحث على طلب الهدى
- ٢٩٢ ، ٢٩١ - ١٢٠ - من كلام له عليه السلام في احتجاجه على الخوارج
- ٢٩٨ ، ٢٩٧ - ١٢١ - من كلام له عليه السلام في التعظيم
- ٣٠٠ - ١٢٢ - من كلام له عليه السلام قاله لأصحابه في ساعة الحرب
- ٣٠٤ - ١٢٣ - من كلام له عليه السلام في توبيخ أصحابه ووصفهم بالجبن ؛ وحثهم على الجرأة والقسم

فهرس الموضوعات (*)

صفحة	
٢١ - ٧	القول في عصمة الأنبياء وفيه ثلاثة فصول :
١٠ - ٨	الفصل الأول في حال الأنبياء قبل البعثة
١٨ - ١١	الفصل الثاني في عصمة الأنبياء زمن النبوة في أفعالهم وتركهم هذا ما يتعلق بتبليغ الوحي والفتوى في الأحكام
٢١ - ١٨	الفصل الثالث في خطتهم في التبليغ والفتوى
٤٣ - ٣٥	فصل فيها كان من أمر طلعة الزبير عند قسم المال
٥١ - ٤٧	فصل في ذكر أمور غيبية أخبر بها الإمام ثم تحققت
٨٧ ، ٨٦	أقوال مأثورة في مدح الأمانة ودم المعجزة
٩٣ - ٨٧	فصل في مدح قوة الكلام ودم كثرته
١٢٣ - ١٢١	هزيمة مروان بن محمد في موقعة الزاب ثم مقتله بعد ذلك
١٢٤ ، ١٢٣	شعر عبدالله بن عمرو الميلي في رثاء قومه
١٢٤	أنفة ابن مسلمة بن عبد الملك
١٢٨ - ١٢٥	مما قيل من الشعر في التعريض على قتل بني أمية
١٦٦ - ١٢٨	أخبار متفرقة في اعتقال الملك من بني أمية إلى بني المهاس
١٨٦ - ١٨٤	فصل في التقسيم وما ورد في ذلك من الكلام
١٩٧ ، ١٩٦	فصل في الكلام على الالتفات
٢١٦ - ٢١١	موازنة بين كلام الإمام علي وخطب ابن نباته
٢٤١ - ٢٣٩	فصل في التخلص وسياق كلام لشعراء فيه
٢٤٥ - ٢٤١	فصل في الاستطراد وإيراد شواهد لشعراء فيه
٢٧٥ - ٢٧٠	أخبار وأحاديث في الاستسقاء